
Bibliotheca Alexandrina
0013878



تأليف
دكتور زاهر رياض
معهد الدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

تاريخ إثيوبيا

« ونام سليمان فرأى فى الحلم شمساً ساطعة ظهرت فى السماء وسارت حتى وصلت إلى إتيوبيا واستقرت هناك . فسبب له هذا الحلم اضطراباً كبيراً » .

[من قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان]

مقـــــدمة

منذ أن سلطت الأضواء على قارة أفريقيا ، بسبب ما ظهر بها من الحركات التحررية، ظهرت باللغة العربية عدة كتب عن دول أفريقيا الناشئة ، ولم يظهر بينها كتاب عن إتيوبيا بالرغم مما يربطها بمصر من الصلات التى تعود إلى أيام ما قبل التاريخ. وإن كانت أقدم الوثائق والنقوش تعود بها إلى حملة الملـكة حتشبسوت إلى بلاد بونت لحمل الخشب والبخور اللازمين للمعابد المصرية .

وإذا كان هناك من المؤرخين من يذكر أن بلاد بونت إنما هى الشاطىء الشرقى للقارة الأفريقية أو بلاد اليمن، إلا أن أغلب المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد أنهـا بلاد الصومال أو ماوراء الساحل الأفريقى من هضبة عالية، كانت تنتج هذه المواد التى اشتدت مصر فى طلبها. وبالرغم من هذه العلاقات الدينية التى تربط شعبى مصر وإتيوبيا منذ القرن الرابع الميلادى حتى وقتنا هذا دون توقف أو انقطاع . ولذا كان لزاماً علينا نحن المشتغلين بالدراسات الإفريقية أن نعنى بسد هذا النقص، لا سيما وصلتى بهذه البلاد تعود إلى بدء الثلاثينات حين اتجهت إليها للعمل بمدارسها الثانوية . وشاء الله أن تتجدد صلتى بها، حين ذهبت إليها للمرة الثانية خلال الحرب العالمية الثانية لإقامة ما تهدم من نظام تعليمى خلال الاحتلال الإيطالى الأسود، وحين اهتممت بدراسة اللغة الإتيوبية كما اهتممت بدراسة تاريخ هذه البلاد فخالجتنى فـكرة وضع تاريخ لها . ولـكن كتابة تاريخ شامل لدولة ما ـ لا سيما وتاريخها يتوغل عميقاً فى التاريخ ـ لا تقوم به إلا عصبة من الباحثين يدأبون على العمل المتواصل فلم أجد مندوحة عن أن أكتفى بهذا الموجز الذى يصور إلى حد ما صورة متكاملة لحقبات من تاريخ هذه البلاد .

وإنى لآمل أن يكون كتابى هذا قد سد نقصاً كان موجوداً فى المكتبة العربية . كما أرجو أن تتاح لى فرصة قريبة أتمكن فيها من نشر كتب تتناول بالتفصيل بعض جوانب التاريخ الإتيوبى والله ولى التوفيق .

مصر الجديدة فى ١٠ / ٥ / ١٩٦٦

دكتور زاهر رياض

الفصل الأول

البلاد وسكانها

إتيوبيا هضبة مرتفعة مستديرة الشكل تحيط بها أراض منخفضة من جميع الجهات . فهى تطل من الشمال والغرب على سهول السودان ، ومن الجنوب على هضبة كينيا القليلة الارتفاع ، أما من الشرق فيفصلها عن البحر الأحمر والمحيط الهندى صحراء الدناكل والأوجادين . وقد أتاحت لها أرتريا التى اتحدت معها اتحاداً فيدراليا منذ سنة ١٩٥٢ وقاما فى سنة ١٩٦٠ أن تطل على البحر بميناءين هما عصب ومصوع بينهما يفصلها عنه فى الجنوب الصومال الفرنسى فجمهورية الصومال (الصومال البريطانى والإيطالى سابقاً)

وهضبة إتيوبيا أعلى هضاب أفريقيا . وجبالها من أعلى جبال أفريقيا . ويتراوح ارتفاعها بين ألفين وثلاثة آلاف متر ولكن ترتفع بعض قممها إلى قرابة خمسة آلاف متر مثل قمة داشان فى إقليم سمن وجبل تشوكى فى جودچام . وبعض الجبال مخروطى الشكل شديد الانحدار صعب المرتقى، إذا كان مكوناً من صخور نارية بركانية الأصل . أما إذا كانت من الخرسان فجوانبها منحدرة انحداراً تدريجيا .

وتتخلل القمم العالية هضاب متسعة مستوية السطح كما هو الحال فى جودچام وشواوكافا وأروسى ولا يزيد ارتفاع الهضبة المستوية فى العادة عن ثلاثة آلاف متر ولذا بدت القمم العالية وسط هذه الهضاب المنخفضة نسبيا كالجزر وسط

المحيطات . وتتخلل هذه الهضاب، الأودية العميقة التى حفرتها الأنهار المنحدرة وهى أودية كبيرة الغور . تبدو على السطح متسعة نوعا ما . ولكنها تأخذ فى الضيق التدريجى كلما اتجهت نحو القاع . ويصل عمقها كما هو الحال فى أغلب أجزاء النيل الأزرق (أباى) إلى ألف متر . ومعظم صخور الهضبة من البازلت وهى التى كونت ـ على مدى العصور الطويلة ـ تربة مصر الخصيبة . وانحدار الهضبة العام نحو الشمال والغرب .

ويشق الهضبة من الجنوب إلى الشرق الفرع الشرقى من الأخدود الإفريقى وتقع فيه مجموعة من البحيرات أكبرها بحيرة رودلف وهى أولها وتنتهى ببحيرة زوى التى تقع جنوبى أديس أبابا بقليل ويحتل نهر أواش بقية الأخدود من ناحية الشرق .

وتحتل بحيرة طانا مساحة قليلة فى وسط الهضبة، وهى مثلثة الشكل قاعدتها إلى الشمال ، وتنحدر إليها مجموعة كبيرة من الأنهار الصغيرة تحمل اليها أمطار الجهات العالية التى تحيط بها وأكبرها نهر تنش أباى (أباى الصغير) الذى يصل إليها من هضبة جودجام ليصب فى ركنها الجنوبى الغربى فتكون منها مخزن للمياه يمد النيل الأزرق بالمياه طول العام . ويبلغ ارتفاع مستوى هذه البحيرة ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر ومساحتها ٣٠٦٠ كيلو متراً مربعاً . وتقع بين الجبال العالية التى تحيط بها وسواحل البحيرة سهول متسعة نوعاً . أكبرها سهل دمبية الذى يقع فى شمالها ، وسهل فوجارا الذى يقع شرقها . وعلى مشارف الجبال التى تحيط بها بنى الأهالى بعض مدنهم الحصينة مثل جوندار التى تقع شمال البحيرة بقليل والتى كانت عاصمة للبلاد خلال العصور الوسطى ، ودبراتابور فى الشرق منها .

ويجرى فى الهضبة كثير من الأنهار أهمها أربعة هى :

١ ـ النيل الأزرق (اباى) الذى يخـــرج من الطرف الجنوبى لبحيرة طانا تحف به برك ومستنقعات تكثر على الضفة الغربية جنوبى دارا جورجيس ويرسم النهر دائرة كبيرة تحيط بهضبة جوديام من الشرق والجنوب. فتنحدر إليه خلال هذا الجزء مئات من المسيلات المائية والجداول اتية من هضبة جودچام لتتصل به من ناحية اليمين أو من الجبال الشرقية لتتصل به من ناحية اليسار حاملة إليه كميات هائلة ، من المياه والغرين ليحملها ويتجه بها إلى ناحية الشمال الغربى حتى يتصل بالنيل الأبيض عند الخرطوم . وفى سهول السودان يتصل به فرعا رهدودندر وهما أكبر فروعه وينبعان من الطرف الشمالى لهضبة جوديام غربى بحيرطانا بقليل . وتعترض النهر خلال سيره فى الهضبة مجموعة من الشلالات التى تسقط عليها المياه بعنف فيسمع له صوت كالرعد وينتثر منها الماء فيرتفع إلى أعمدة عالية تشبه الدخان فيسميها الأهالى (تيص واها) أى الماء الذى يشبه الدخان (انظر شكل ١) والنيل الأزرق بوجه عام نهر جبلى شديد الانحدار فى كل مجراه .

٢ ـ أومو الذى ينبع من هضبة كافا فى الجنوب الغربى ويتجه إلى الجنوب فى مجرى قليل الالتواء، حتى يصب فى الطرف الشمالى لبحيرة رودلف التى تقع فى قاع الأخدود الإفريقى . والتى تشترك فى شواطئها ثلاث دول هى إتيوبيا وأوغندة وكينيا . والمنابع العليا لهذا النهر تقترب كثيراً من منابع نهر الداديسا الذى يتصل بالنيل الأزرق من ناحية اليسار، وكذلك بالمنابع العليا لنهر أكاكى الذى هو فى الواقع أصل نهر أواش . ومعظم ما يتصل بهذا النهر من جداول يتصل به من شاطئه الأيمن آتيا من هضبة كافا ومجرى هذا النهر متسع بوجه عام كما أنه قليل الانحدار نسبياً .

٣ ـ وبى شبلى الذى ينبع بأكثر من عشرة منابع من الطرف الجنوبى الشرقى للهضبة الأتيوبية ويفصله عن بقية الهضبة الأخدود الإفريقى ويتجه إلى الجنوب الشرقى فى واد يبلغ طوله قرابة مائتين من الأميال حتى يدخل فى الصومال ومجراه ـ خصوصاً فى أجزائه العليا ـ عميق ضيق وإن كان لا يبلغ فى عمقه مجرى

الأبأى . وإذا ما اقترب من شاطىء المحيط الهندى حال دون وصوله إليه كثبان رملية قليلة الارتفاع وانحدر فجأة نحو الجنوب . وساعدت الحرارة الشديدة التى تسود تلك الانحاء أغلب أيام السنة على تبخر مائه .

٤ ــ أواش . الذى ينبع بمجموعة كبيرة جداً من الجداول العميقة التى تنحدر من الحواف الغربية لهضبة شوا، وهى التى تطل على الأخدود الإفريقى . وهو خلال فصل المطر يحمل كميات هائلة من الماء المحمل بالغرين ليلقى بها فى قاع الأخدود فتكون بحيرة كبيرة. ويسمى النهر حتى هذا الجزء بنهر أكاكى ثم تنحدر هذه المياه نحو الشرق متتبعة مجرى الأخدود الشرقى فى مجرى سرعان ماتظهر ملامحه ويحمل اسماً جديداً هو نهر أواش الذى يتميز بمجراه العميق المتسع، ثم يتجه اتجاها شمالياً شرقيا متبعا اتجاه الأخدود . وينحدر مع الهضبة حتى يدخل فى صحراء الدناكل فتهدأ سرعته ويتسع مجراه فيساعد ذلك، مع شدة الحرارة السائدة هناك أغلب أيام السنة، على تبخر مائه دون الوصول إلى البحر.

أما فى خلال فصل الجفاف فلا يعدو مجرى هذين النهرين أخدوداً صخريا عميقاً جافا، تتخلل قاعه بحيرات متتوالية ماؤها راكد، تفصلها كتل هائلة من الصخور الكبيرة الحجم المستديرة الشكل الناعمة الملمس، أما ناحية المصب فهو خور متسع رملى الجوانب والقاع تتخلله المسايل الجافة التى تنبىء عن مسير الماء خلال الفصل المطير .

ويوجد عدا ذلك المنابع العليا لنهر العطبرة، وهى تقع فى مكانين أحدهما شمالى بحيرة طانا فى إقليم جوندار ويسمى نهر السلام ، والآخر شرقى البحيرة ويسمى تكاز، ويسمونه فى السودان ستيت. وهو يرسم شكل Z قبل أن يتصل بنهر السلام ليكونا معاً نهر العطبرة خارج حدود إتيوبيا. وكذلك توجد المنابع العليا لنهر السوباط وهى فى الجنوب الغربى من الهضبة فى مكانين أيضاً أحدهما شمالى هضبة كافا ويسمى بارى، ومنابعه العليا قريبة من منابع أومو وواديسا، والآخر

جنوبى الهضبة وشمال بحيرة رودلف بقليل ويسمى ا كوبو ، وهما يلتقيان معاً خارج حدود إتيوبيا أيضاً ليكونا نهر السوباط . وهذه الروافد وإن كانت تحمل كمية كبيرة من المياه خلال فصل المطر تعتبر باكورة الفيضان إلا إنها خلال فصل الجفاف لا تعدو مسيلا بطيئاً قليل الماء وجوانب المنابع الإنيوبية مرتفعة شديدة الانحدار كما أن معرفة الجغرافيين بتخطيط النهر وروافده غير دقيقة .

وتنحصر الهضبة بين خطى العرض ٤و١٨ شمالا فهو إقليم حار ولكن تأثير الإرتفاع واضح كل الوضوح فى تلطيف درجة الحرارة . وقد اختلف المناخ فى أجزاء الهضبة إختلافاً كبيراً باختلاف الارتفاع فبينما نجد الأودية العميقة والمنخفضات الشرقية تشتد فيها الحرارة ويقل هبوب الرياح فيكون مناخها مداريا قاسياً فى حرارته ورطوبته، فلا يرتاح الأهالى إلى سكناها ويسمونها القلا، نجد الأقطار المرتفعة والشاهقة الارتفاع يكسو بعضها الجليد على الدوام ، فمناخها قطبى وبردها شديد وهى التى يدعوها أهل البلاد بالديجا . على أن أكثر هضبة إتيوبيا متوسط الإرتفاع كما ذكرنا . يتراوح ارتفاعها بين ١٧٠٠و٢٤٠٠ متراً ولذا كانت معتدلة الحرارة طول العام صالحة، لحياة الأوروبيين وهذه المنطقة هى أكثر مناطق إتيوبيا ازدحاماً بالسكان . ويسميها الأهالى واينا ديجا أى الإقليم الصالح لزراعة الكروم . وتتذبذب درجة الحرارة فى هذه المنطقة بين ١٨و٢٥ مئوية إلا خلال فصل المطر من يونيو إلى أغسطس حين تهبط درجة الحرارة بسبب كثرة الغيوم، فتتذبذب بين ١٣ و ٢٣ مئوية على أن أهم ما يلاحظ هو الاختلاف بين درجتى الحرارة نهاراً وليلا . وخصوصاً فى فصل الجفاف . بينما ترتفع فى النهار فى الظل إلى ٢٢ درجة مئوية تنخفض ليلا إلى ما دون الخمسة . وقد تصل إلى الصفر . ومن ذلك نرى أنه ما من مكان آخر فى العالم يتمتع بمثل هذا المناخ المعتدل لمدة تصل إلى ثمانية أشهر فى السنة مثل ماتتمتع به إتيوبيا .

ويقول الجغرافيون أن ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فى إتيوبيا فى فصل

الشتاء عنها فى الصيف ظاهرة غير عادية لا يكفى فى تقليلها جفاف هذا الفصل بالنسبة لرطوبة فصل الصيف، لأنها مازالت أعلا من الحرارة فى أى أقليم آخر من وادى النيل يقع على نفس خط العرض . فلا بد أن يكون هناك سبب خاص لم يوضحه الميثورولوجيون بعد .

وعاصمة البلاد الحالية هى أديس أبابا وهى مثال حسن لاعتدال الحرارة فى الإقليم المسمى وايناديجا وهى ترتفع عن سطح البحر بمقدار ٢٤٤٠ متراً .

والمطر غزير فى أكثر أجزاء الهضبة ولكن ينحصر سقوطه فى الأربعة أشهر الصيفية وهى يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر - ويسمونه هناك فصل الشتاء (كرمت) وأكثر الأشهر مطراً النصف الثانى من يوليو والعشرين يوما الأولى من أغسطس . ونسبة ما يسقط من المطر فى أشهر الصيف إلى ما يسقط منه فى العام كله ٨٠ ٪، ومن الغريب أن المطر لا يبدأ هناك قليلا ثم يزداد شيئاً فشيئاً، بل يبدأ غزيراً دفعة واحدة فى تاريخ يكاد يكون محدداً كل عام وهو العشرون من يونيو، ويظل غزيراً حتى منتصف يوليو ثم يعلو إلى القمة حتى العشرين من أغسطس، ثم يقل بشكل محسوس حتى الثالث والعشرين من سبتمبر حين ينعدم نهائياً .

على أن هناك فصل مطر قصير يمتد من أواخر فبراير حتى أواخر مارس، وفترة الجفاف التى تفصل بين الفصلين أظهر ما تكون فى الشرق. ولكن قد يتأخر فصل المطر القصير فى الغرب فيلتحم مع فصل المطر الكبير فيطول موسمه ويكون ذلك إيذانا بفيضان عال.

ومن المألوف أن يكون الجو صحواً فى الصباح ولكن يبدأ السحاب بالتجمع بعد الساعة العاشرة . وعند الظهر تكفهر السماء بالسحاب الكثيف الأسود ثم يسقط المطر غزيراً فى الساعة الأولى أو الثانية بعد الظهر، ويظل حتى الصباح

ولكن تخف حدته بعض الشيء أثناء النصف الثانى من الليل . ولا تصحب المطر أو تسبقه رياح عاصفة — كما هو الحال فى أوروبا — فاشتداد الريح هناك نادر .

وقد اختلفت المناطق النباتية فى إتيوبيا تبعاً لدرجة الحرارة والمطر . فنمت الغابات المعروفة بغابات الأروقة فى الجهات المنخفضة خصوصاً فى قاع الأخدود الإفريقى وأودية هضبة كافا . وأشجار هذه الغابات ليست عالية والجذوع غير متلاصقة . على أن القسم الأعظم تنمو فيه الحشائش فهو الظاهرة النباتية السائدة وإن اختلفت كثافتها باختلاف كمية المطر فهو يغزر حيث تشتد الحرارة ويغزر المطر وتتخلله أشجار السنط حتى لتكوّن غابات تكسو مساحات كبيرة، وتطول الحشائش فتصل إلى المتر وتزهر فى فصل المطر . وما يليه . ثم يبدأ فى الاحتراق فى خلال شهر ديسمبر . أما الجهات الشرقية المنخفضة شديدة الحرارة نادرة المطر ،فصحراء تنتشر فيها الأعشاب الصحراوية وهى قصيرة ذات شوك .

فطبيعة البلاد الجبلية ومناخها المعتدل ومطرها الموسمى يجعل البلاد قليلة السكان كجميع البلاد الجبلية فى العالم، وسرعة جريان الماء فى الأنهار وعمقها يجعل الأهالى لا يعتمدون عليها فى الزراعة . ولذا أصبحت الحرفة الأساسية التى تهيئها طبيعة البلاد للناس، هى رعى الماشية على سفوح الجبال الخضراء لمدة طويلة فى السنة . ولذا كان دأبهم التنقل بالقطعان . والاستقرار هناك قليل لا يدوم إلا ريثما ينزل المطر فيحل وقت بذر الحبوب . ولذا كانت الحياة الاجتماعية بدوية أكثر منها مستقرة فلم تقم بينهم المدن الكبرى فإذا استثنينا أكسوم وجوندار وهرر وبعض المدن الساحلية كزيلع وعدول لا تجد مدينة تستحق هذا الاسم بل ينتشر السكان فى تجمعات قليلة لا يعدو كل مركز منها بضع بيوت على جانبى

طريق ممتد ، وتتكون هذه القرى عادة قرب عين ماء بعيداً عن الطرق الرئيسية المطروقة . وهى فى العادة على مرتفع من الأرض كى لاتتجمع فيها مياه الأمطار وتكون سريعة الجفاف ، ويحيط بالقرية فى العادة سور من النباتات الجافة أو الشوكية .

وليست هذه البيئة وحدها هى التى ترغم سكانها على احتراف الرعى كحرفة أساسية . بل هناك أيضاً البيئة الصحراوية ، إلا أن هاتين البيئتين تختلفان فى أن البيئة الأولى تجعل سكانها يشتغلون بالزراعة إلى جانب الرعى بينما تجعل البيئة الصحراوية سكانها يشتغلون بالتجارة . ولا يحترف التجارة فى البيئة الأولى إلا تجار أغراب إذا استطاعوا الوصول إليهم .

ولبيئة الرعى سواء كانت فى جهات جبلية أو صحراوية مميزات خاصة هى :

(١) أنها لاتساعد على قيام حضارة .

(ب) تساعد على الاستقلال السياسى إذ لايطمع فيها أحد لفقرها .

(حـ) أن لاتكون مصدر إشعاع ثقافى أو حضارى أى أنها تتعلم من الغير ولا تعلم هى شيئاً . إلا إذا خرج أهلها من بيئتهم هذه كما حدث للعرب حين خرجوا من شبه الجزيرة .

(ء) جهل العالم بتاريخ سكان هذه الأجزاء لعدم وجود وثائق أو آثار أو منشئات .

ولذا نجد الخطوط العريضة التى تحدد تاريخ إتيوبيا هى :

(١) أنها متخلفة عن جيرانها نسبياً.

(٢) مستقلة دائما حيث لم يطمع فيها أحد سواء لصعوبة الوصول إليها أو لفقر مظاهرها .

(٣) خيرها فى الخروج من عزلتها والاتصال بالخارج.

(٤) أغلب تاريخها مجهول لقلة مصادره .

وقد كانت البيوت ـ إلى عهد قريب ـ تبنى من الأعشاب الجافة والأغصان، تقام رأسية وتطلى بالطين، وهى مستديرة ولها سقف هرمى من الأعشاب الجافة أيضا ويطلقون عليها اسم توكول . وهذا النوع من المنازل شائع فى كل جهات أفريقيا ، ويذكر لنا محمد بن عمر التونسى حين زار دارفور فى بداية القرن التاسع عشر أن منازلها كانت على مثل هذا الشكل ومادة البناء، ويطلق عليها الأهالى اسم توكولتى مما يجعلنا نفكر فى وجود شىء كثير من العلاقة بين المجتمع الإتيوبى والمجتمع فى دارفور، خصوصا وأن هناك مظاهر اجتماعية أخرى مشتركة بينهما .

ومن الطبيعى أن تكون المنازل حجرة واحدة تتمثل فيها مسرحية الحياة كلها، وفى وسط هذه المجموعة وفى أعلى مكان فيها يوجد منزل الرئيس (شوما) وإلى الغرب من القرية توجد المقبرة . وغالباً ما تكون فى فناء كنيسة ، والإتيوبيون يعملون طول فصل الجفاف فى زراعة أرضهم أو رعى قطعانهم ولكن إذا حل المطر حبسوا أنفسهم فى منازلهم لا يبرحونها بعد أن يكونوا قد اختزنوا فيها مايلزمهم من مؤونة ، ولكن لابد لهم من الرحلة اليومية ـ فى فصل الجفاف ـ إلى البئر لطلب الماء. والبئر عادة فى وسط الوادى حيث الحقول التى يزرعونها بينما يحتفظون بسفوح الجبل لأجل الرعى .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بنيت البيوت من هيكل خشبى يملأ ما بين أجزائه بأعواد القصب ومطلية بالطين كما تعددت الغرف . وفى القرن العشرين طليت جدرانها بمختلف الألوان، بل لصق عليها الورق المزخرف وفى الربع الأول من هذا القرن بنيت الأبنية من الحجر وتعددت الطوابق ولكن فى النصف الثانى وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت العمارات ذات الطوابق الكثيرة تظهر بسبب العدد الكبير من الأجانب الذى يتردد عليها .

ومن الطبيعى إزاء هـذه الطبيعة الجبلية القاسية أن تـكون المواصلات بين أحراء الهضبة صعبة تقوم أكثر ما تقوم على الحيوان . والبغل هو الحيوان المفضل لديهم لهدوئه وصبره وشدة احتماله فهو يستعمل للركوب والحمل .

والأرض الزراعية خصبة ــ والأرض بركانية التكوين كما قدمنا ــ وقد تعطى محصولين فى السنة أحدهما فى مايو عقب فصل المطر الصغير، والآخر فى ديسمبر أو يناير عقب فصل المطر الـكبير ، وأهم ما يزرعونه الطيف والدخن والذرة والقمح والشعير والشوفان والحمص . والأول هو مادة خبزهم ويسمونه أنجرة ولا يؤكل إلا طازجا . أما الحمص فغذاؤهم الأساسى فى وقت الرحلة . كما يزرع البن بـكثرة فى إقليم هرر ولـكنه ينمو بريا فى كافا وهو الذى أعطى الإقليم اسمه . كما يصلح مناخهم لزراعة الـكروم والزيتون ولـكن اقبالهم على زراعتهما قليل وكذلك الموز والخوخ .

وازهار الحشائش التى تنمو عقب فصل المطر مورد غذائى طيب لأسراب كبيرة من النحل . ويعتمد السكان على مايحصلون عليه من عسل لغذائهم، وكذلك لعمل مشروبهم الوطنى المفضل المسمى بالتدج وهم يستبدلونه بالماء لصعوبة الحصول على هذا الأخير وعندهم مثل قديم يقول «الماء للضفدع » .

ولديهم أيضاً زراعة متقدمة لبعض أنواع التوابل كالفلفل واللبان والسنامكى والقرنفل وجوز الطيب وتستعمل فى تجهيز الأدوية الوطنية .

وتشغل الغابات مساحات كبيرة من الأراضى قليلة الارتفاع غزيرة المطر . وأكثرها فى جهتى كافا وجما فى الجنوب الغربى فيما بين أحواض السوباط وأومو واباى . وتنمو بها أنواع كثيرة من الأشجار ذات الأخشاب المتعددة الألوان . وقد أجريت التجارب أخيراً لزراعة القطن والمطاط فى الأجزاء الحارة ويقال أنه أتى بنتائج طيبة . وتعيش فى هذه الغابات بعض الحيوانات المفترسة كالأسود

والنمور والضباع والفيلة والذئاب والظباء والتيتل وكذلك تعيش هناك أعداد كبيرة من النعام .

وتعتمد التجارة الإتيوبية أكثر ما تعتمد على الجلود والبن والعسل وأضيف إليها القمح فى الأيام الأخيرة . وكذلك سن الفيل وريش النعام . وكلها تتحمل الرحلة الشاقة والمسافة الطويلة، وقد كان نصيب أتيوبيا من التجارة العالمية ضئيلا بسبب صعوبة خروج المواد التجارية إلى الخارج، ولكن إقبال الولايات المتحدة الأمريكية على شراء البن جعل منه مادة عالمية .

وإلى بداية القرن التاسع عشر كانت القوافل البرية هى طريق اتصالها بالخارج، وتأتى من أحد الموانى التى تطل على البحر الأحمر أو عن طريق الشمال والغرب آتية من السودان . وفى بداية القرن العشرين مر بها أول خط حديدى وهو الذى يصل ثغر جيبوتى بأديس أبابا وقد انشأته شركة فرنسية مجتازة به صحراء الدناكل الشاسعة الحارة إلى ديردوا التى تقع على أول مشارف الهضبة من ناحية الشرق ثم تصعد الهضبة إلى أواش التى تقع على النهر المسمى بهذا الإسم حتى إذا عبر هذا النهر على جسر ضخم مرتفع عن قاعه بأكثر من مائتى متر اتجه صوب أديس ابابا ، وقد تم الوصول إليها فى سنة ١٩١٧ ويبلغ طول هذا الخط ٧٨٩ كيلوا متراً تقطعها القطار فى ثلاثة أيام إذا سار نهارا فقط . أو يومين وليلة واحدة .

والإتيوبى منطوعلى نفسه لا يحب الاتصال بالغرباء، ولا تدخلهم فى أوساطه وينظر دائماً إلى الأجنبى نظرة الشك لأنه لا ينتظر منه إلا شرا . وليست هذه أخلاق الإتيوبيين وحدهم، بل يبدو أنها طبيعة جميع سكان هذا الركن من العالم . فشأنهم فى ذلك شأن أهل اليمن والحضارمة . رغم اشتغال الأخيرين بالتجارة وجوبهم البحار الجنوبية منذ أقدم الأزمنة ، يحملون تجارة البلاد التى تحيط بهم إلى مختلف البلاد . والإتيوبى لا يميل إلى احتراف التجارة ولذا كان

العرب هم أغلب من يزاولها بأبيوبيا ويسميهم الإتيوبيون نجادى التى أصبحت علماً على كل عربى وقد انضم إليهم حديثاً بعض اليونانيين . أما الأرمن فاقتصروا على بعض تجارة القطاعى فى المدن الـكبيرة وبعض القرى .

ولا يقصر الإتيوبيون فى مظاهر فرحهم فهم شعب مرح يحب الغناء ويـكثر من الضرب على الآلات بينما يصفق الموجودون ويغنون .

وهذه هى إحـدى أغنياتهم التى يترنمون بها فى أفراحهم وتغنيها إحدى المغنيات ، والباقيات يصفقن ويرددن المقطع الأخير .

سألت عنه فى أنطوطو	كان فى أكاكى	قالو لى كده
سألت عنه فى اكاكى	كان راح جارير	« « «
سألت عنه فى جارير	كان فى مندر	« « «
سألت عنه فى مندر	كان راح أواش	« « «
سألت عنه فى أواش	كان راح شرشر	« « «
سألت عنه فى شرشر	« « هرر	« « «
سألت عنه فى هرر	كان فى جيبوتى	« « «
سألت عنه فى جيبوتى	كان عدى البحر	« « «
بعثت له خمسين مرة	لـكن ماعرفت مكانه	« « «
قعدت جنب النار أبكى	أبـكى وأعيط	« « «
باين عليه اتجنن	حايلاقى فين اللى زيى	« « «

وهى تبين مطاردة الفتاة لصديقها الذى يمعن فى الهرب منها . وهى تـكاد تشبه الأغانى المصرية فى مطاردة الحبيب والتذلل له .

وليس أدل على حبهم للرقص من إباحته لرجال الدين أثناء بعض طقوسهم

على نحو لم نألفه أى طائفة من الطوائف المسيحية، وحجتهم فى ذلك أن داود النبى كان يرقص أمام المذبح على نغمات المزمار. وقد اتفق الرحالة الذين ذهبوا إلى إتيوبيا على أن الرقص الإتيوبى أبعد من أن يوصف بأنه إفريقى.

ولا يقتصد الإثيوبيون أيضاً فى مظاهر الحزن فى المناسبات التى توجب ذلك كالوفاة إذ يصحبها فى العادة الصياح والبكاء والندب والعديد. وكذلك خمش الوجوه وتمزيق الثياب وضرب الصدور، ويخرج الرجال والنساء لتشييع جنازة الميت والـكل يصرخون ويضربون صدورهم بكفوفهم ضربا متواصلا مؤلما. ويحلق النساء شعورهن ويلبسن الملابس الملونة.

وقد اتخذ الإتيوبيون جميع أدواتهم من بيئتهم فكراسيهم من جذوع الأشجار وموائدهم من القش المضفور، وهى مستديرة ولها حافة عالية وغطاؤها هرمى الشكل وتوضع عليها الأنجرة ويلتف حولها أفراد الأسرة يقطعون أجزاءها ويغمسونها فى طبق من الوات موضوع فى الوسط.

ولا يميل الإتيوبيون إلى أكل الخضروات الطازجة بل يفضلون الجافة مطبوخة فى الصلصة ومعها البيض المسلوق واللحم بعد إضافة كميات كبيرة من الشطة ويطلقون عليها اسم وات وإذا أراد صاحب البيت إكرام ضيفه أجلسه إلى جانبه وقطع له الأنجرة بيده وأغمسها فى الوات وطواها على قطعة كبيرة من اللحم والبيض وألقاها فى فمه.

والإتيوبى محارب بطبعه ولعل مرد ذلك طبيعة بلاده الجبلية فهو ينتظر الغدر فى كل لحظة ولذا نشأ متقلدا سلاحه أينما سار، فكلهم مستعد للحرب فى أى وقت. وإلى ماقبل سنة ١٩٣٥ كانت الزوجة تصحب زوجها فى الحرب مخافة أن يتركها فيقتنصها العدو فتصير له رقيقا. ولذا كان يتضخم عدد الجيش بمن يصحبه من النساء والأولاد والخدم.

والإتيوبيون يكرهون الصناعة والصناع رغم احتياجهم لهم . وقد اشتهر الصناع بالحسد وهم يسمونه (بودا) وإذا مرض الإتيوبى جعل يفكر فيمن حسده من الصناع . وإذا ما نطق المريض باسم عامل ، يعتقد أنه حسده أخذ العامل من الدار إلى النار وقد يقتل إذا مات المريض .

وينظر الإتيوبيون إلى الزواج كرابطة مقدسة ، ويعجبون بعدم الطلاق . إلا أنهم يرون فى الزواج عبئاً كبيراً خصوصاً فى سن الشباب . ولذا يبدأ الإتيوبى حياته بزواج مدنى تحت إشراف الكهنه وفقاً لعرف بينهم له قوة القانون . وهو يبيح لهم الطلاق عند الرغبة أمام شاهدين ، على أن تقاسمه الزوجة أملاكه وهم لا يجمعون بين زوجتين وإن أكثر بعض أغنيائهم من التسرى .

وما زال التسرى جاريا بينهم وفقا لعاداتهم الموروثة . وهو شىء أملته عليهم ظروف حياتهم الإجتماعية . فالزوجة لا تستطيع خدمة زوجها فى ميدان القتال ، وقد يستمر غياب الزوج فى الحرب فصلا أو سنه أو أكثر .

وإذا ما أراد الشاب الزواج اشترط فى الزوجة أن لا تمت بصلة القرابة إلى الزوج حتى الدرجة السابعة، ويتم الاتفاق على الزواج عادة بين الآباء . حتى إذا تم الاتفاق على الشؤون المالية عقدت الخطبة فالزواج .

وعقد الخطبة لا يفصم ، وإلا تعرض المتسبب فيه للغرامة أو أى عقاب آخر . ويعلق العريس فى رقبته خاتما فضيا فى خيط من حرير أزرق ، لمنع الحسد .

وإلى ما قبل الحرب الإتيوبية الإيطالية فى سنة ١٩٣٥ كان رؤوسهم وقوادهم يلبسون — إذا ما خرجوا للحرب — ملابس خاصة من جلود الحيوانات كالأسد والنمر (١) . ولكنهم الآن يرتدون الملابس الحربية العادية . التى لا تختلف عن ملابس جنود وقواد الدول الأخرى .

وتتبع اعيادهم من بيئتهم . فيحتفلون بعيد الصليب فى نهاية فصل المطر وفى

(١) أنظر مقال الفرسان والفروسية فى اتيوبيا للمؤلف بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة

ليلتها يجمعون عصيا طويلة تبلغ الواحدة منها قرابة أربعة أمتار ويعملون منها حزما نقف رأسية ،وفى المساء يحرقونها فترتفع النار إلى أعلا . وفى العاصمة يقبل ممثلو القبائل المختلفة من أجزاء البلاد حيث يستقبلهم الإمبراطور أو ممثله فيتبارون فى اللهب بالسيف والكر والفر وتمثيل القتال مفاخرين بأعمالهم وحروبهم فى حضرة الإمبراطور ويتوالى هؤلاء اللاعبون أثر بعضهم حتى ينتهى المساء فى مرح وسرور . كما يحتفلون بعيد الغطاس . حين يقوم كهنة الكنائس القريبة من العاصمة إليها ، من أجل تعميد تابوت المذبح فى مواكب كبيرة تحف بهم شمامسة الكنيسة فى ملابسهم الكنسية المزخرفة ، ورجال القرية وبعض نسائها وصبيانها يحملون الزهور والرياحين ويكتفى كهنة القرى البعيدة بحمل تابوت الكنيسة والخروج به فى موكب مع أهل القرية ؛ حيث يجرى النهر فيقوم بتعميده كما يقوم أهل القرية بالتبرك منهم .

وفى هذا العيد يحتفل المطران(والآن البطريرك جاثليق)بتعميد الإمبراطور فى مكان خارج العاصمة وإذا ما انسحب المطران والإمبراطور ظل الكهنة يرقصون رقصهم الدينى ويترنمون بألحانهم بقية اليوم .

ويلبس الرجال ملابس بيضاء من قطعتين إحـــداهما بنطلون ضيق يستر الفخذين والساقين ،وينتهى عند العقب بصف طويل من الأزرار . وعليه رداء طويل حتى الركبتين .ويلتفون(بالشما) حول أكتافهم . وهى قطعة من الشاش الخام يبلغ طولها مترين . وتطرز حافتها بالرسوم الملونة وقد لاحظ محمد بن عمر التونسى اتخاذ أهل وادای مثل هذه الشما ويستعملونها فيما يستعمله الإتيوبيون . ويشكلونها أشكالا خاصة فى المناسبات المختلفة كما يفعل الإتيوبيون تماماً . كما تلبس المرأة جلبابا واسعا يشد عند الوسط بحزام عريض . وتصفف نساء كل قبيلة شعورهن بأشكال خاصة بهن،على أن تقصير الشعر ذائع بين النساء

والرجال . أما الأولاد فيحلقون رؤوسهم بعد أن تترك فى وسطها أجزاء طويلة ترتفع فى أعلى فى أشكال مختلفة .

والإتيوبى فى حياته العادية هادىء لايميل إلى الصخب والكلام بصوت مرتفع ، ولكنه يميل إلى أن يؤكد كلامه بالقسم مشفوعا بالإشارة وهو يقسم بالإمبراطور أو أبيه ونادراً مايقسم بالله أو الملائكة . والقسم بالإمبراطور أشد أنواع القسم قوة ، والتحية عندهم الانحناء إلى الأرض أكثر من مرة . ولها عندهم تعبيرات كثيرة وقد يترجل الراكب عن بغلته ثم ينحنى مبالغة فى الاحترام . والقبلة شائعة بين الرجال والنساء . واللغة الأمهرية مؤدبة ليست فيها كلمات حوشية أو شتائم .

وللطبيعة الجبلية أثر كبير فى صوغ تاريخ إتيوبيا . فهى ككل البلاد الجبلية لا تساعد على قيام دولة متحدة ذات حكومة مركزية . فالجبال والقمم العالية تمنع اتصال سكان الوديان ببعضها ، وتكون حواجز لها أهميتها تحول دون امتداد سلطة الحكومة . وتساعد على استقلال سكان كل جزء بأنفسهم . ولذا عاشت إتيوبيا مقسمة بين عدة حكومات . حتى تجد الحكومة القوية التى تستطيع بسط نفوذها على غيرها من الدويلات فتخضعها وتوحدها . ولكن هذا الإخضاع وهذا التوحيد لايستمران إلا باستمرار قوة الحكومة المركزية .. وضعف الدويلات . فوجدت بها البيوت المالكة المتعددة التى يخضع قويها ضعيفها ولكنه لا يستطيع سحقه . فنشأ بها نوع من الحكم أساسه خضوع التابع للمتبوع . طالما يستطيع المتبوع إخضاع التابع وحمايته . وقد ترتب على هذا الخضوع سلسلة من الحقوق والواجبات المتبادلة بين التابع والمتبوع . ولذا كان تاريخ إتيوبيا سلسلة من الحروب المستمرة بين الحكومات المختلفة . كل منها تريد إخضاع الأخرى لسلطتها . ورأس الحكومة أو الملك أو الرأس الذى ورث

الملك عن أبيه . وإذا مات ورثه ابنه الأكبر أو أقوى أبنائه دون تدخل من أحد حتى إذا كان خاضعاً لحكومة أخرى أقوى منه . وقد كونت كل أسرة حاكمة مع شعبها وحدة تميزت عن غيرها من الوحدات ولذا كانت القومية الصغيرة أو القبيلة هى أساس الحياة الاجتماعية والسياسية فى إتيوبيا .

ولا نستطيع أن نسمى هذا النوع من الحكم اقطاعياً ، فالحكم الإقطاعى نشأ فى أوروبا نتيجة لظروف خاصة .. وهى التجاء جمهور الفلاحين إلى صاحب القلعة لحمايتهم من الهجمات. فلجأ هذا بدوره إلى الملك ليتبادلا الخدمات.. ولذا كان من حق الملك عزل التابع متى أراد . وقد انتهى النظام الإقطاعى فى أوروبا بانتهاء أسبابه ودواعيه . بينما بقى هذا النوع من الحياة فى إتيوبيا ببقاء أسبابه واتصالها بالحياة الإتيوبية نفسها .

ولكن منذ ابتداء القرن العشرين ، تمكن الإمبراطور من بسط سلطته على جمع أجزاء البلاد بفضل المواصلات السريعة ولذا ضعفت سلطة الملوك بل أصبح إلى جانبهم حكام للمقاطعات يحكمونها باسم الإمبراطور تعينهم السلطة المركزية . ويمثلون سلطة الحكومة بجميع مظاهرها ويشرفون على تنفيذ القانون الذى أصبح موحداً يصدر من السلطة المركزية فى العاصمة ليسرى فى جميع أنحاء البلاد . بل إزيلت الممالك القديمة واستبدل بها اثنتا عشرة مقاطعة إدارية ، يتبع حكامها وزارة الداخلية .

ولما كانت حدود إتيوبيا الشرقية امتدت فى العصور القديمة حتى أطلت على البحر الأحمر ، فقد تأثرت إتيوبيا بحضارة وثقافة وأحداث جميع البلاد التى تطل على هذا البحر الضيق . فقامت بينها وبين هذه البلاد علاقات وطيدة .. فعن طريق هذا البحر أتت التجارة والدين والثقافة من مصر والدولة الرومانية الشرقية . كما عبر إليها التجار العرب وعبروا هم إلى شبه الجزيرة . فعبرت

المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية كما عبر الإسلام إلى إتيوبيا . منذ أيامه الأولى. كما امتدت حدود الدولة الإتيوبية ذات يوم فشمـلت اليمن وحاولت ان تغزو الحجاز فكانت بذلك الدولة الوحيدة — غير تركيا — التى حاولت تلك المحاولة — كما تأثرت بالحضارة الفارسية حين امتدت حدود دولةفارس فشملت اليمن . وأطلت على البحر الأحمر قبل ظهور الإسلام بقليل .

الفصل الثاني

إثيوبيا حتى ظهور الإسلام

إتيوبيا كغيرها من بلاد إفريقيا موطن العنصر الإفريقى . وأقبل عليهم العنصر الكوشى من الشمال والشمال الغربى . فأفسحوا لهم مكاناً فى هذا الجزء من العالم وسكنوا الأجزاء المنخفضة وكانت أهم قبائل هذا العنصر هم الصومال .

وإذا ماتغيرت الأحوال المناخية فى شبه الجزيرة العربية وأخذت الهجرات السامية تخرج منها إلى البلاد الغنية التى حولها . واتجهت إلى مايسمى الآن بالهلال الخصيب ، اتجهت هجرات سامية أخرى إلى إتيوبيا . وشجعها على هذا الاتجاه ضيق البحر الأحمر . وهدوء الملاحة فيه أغلب أيام السنة . فخرجت من جنوب الجزيرة العربية هجرات متتابعة . ويظهر أنها استمرت فى دخول إتيوبيا عن طريقين ارتريا والصومال . وقد نفهم كيفية دخول هذه العناصر السامية على مر السنين من ملاحظة ما هو حادث الآن فى إتيوبيا . فأهالى اليمن وحضرموت منتشرون فى جميع البلاد الصغيرة والكبيرة يحترفون التجارة الصغيرة . وهذه ظاهرة يمكننا إعتبارها استمراراً لما حدث فى الزمن القديم وكانت أقوى هذه القبائل القادمة واحدة تسمى حبشة هى التى أعطت البلاد اسمها الذى عرفها به العرب .

وقد كان هؤلاء القادمون أكثر ثقافة من السابقين وأرقى منهم حضارة، فبينما كان الأولون على درجة كبيرة من البداوة، لايحسنون من الزراعة إلا الزراعة البدائية بينما كان القادمون يمارسون الزراعة بدرجة متقدمة تتميز باستعمال الآلات، فعلم

القادمون أهل البلاد هذه الزراعة المتقدمة . كما علموهم تخطيط الأرض وجعلها شرفات ترتفع على جوانب الجبال كما علموهم فن بناء المنازل . وكذلك بناء الخزانات من أجل الاستفادة من مياه الأمطار الموسمية .

وقد استطاع هؤلاء القادمون بفضل سلاحهم المتقدم؛ أن يكتبوا لأنفسهم السيادة على العناصر القديمة . وقد فضل هؤلاء سكنى الجهات المرتفعة وتركوا الوديان والجهات المنخفضة للسكان الأصليين يعيشون فيها كما كانوا يفعلون من قبل . وكون القادمون مملكة فى الركن الشمالى الشرقى من الهضبة عرفت باسم مملكة اكسوم .

وتقول الأساطير الإتيوبيةأن بيتهم المالك أقدم البيوت المالكة فى العالم إذ يتسلسل من سليمان ملك بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد حين زارته ملكة سبأ وأنجبت منه إبناً هو منليك الأول رأس عائلتهم المالكة .

أما عن ملكة سبأ هذه وسبب زيارتها لسليمان . فللاتيوبيين فى ذلك قصة يعتقدون فى صحتها اعتقاداً لا يعتوره الشك ،وينظمها كتاب يطلقون عليه إسم (كبر انجست)أى تاريخ الملوك . يحفظونه لديهم فى مدينتهم المقدسة اكسوم ولا يسمحون لأحد بالاطلاع عليه أو قراءته إلا إذا كان موضع ثقتهم (أنظر شكل ٤) .

كما أن هناك قصة أخرى لهذه الزيارة تتحد معها فى أغلب أجزائها وتختلف معها فى المقدمة لابأس من إيرادها لما لها من الأثر فى تاريخ أتيوبيا

كانت ماكيدا ملكة اتيوبيا تحكم الحبشة واليمن ، فترامى لهذه الملكة العظيمة صيت بعيد فى جميع أنحاء العالم ، وكانت هذه الملكة واسعة الثروة والغنى ، تملك الكثير من الذهب والفضة والعدد الهائل من الجمال والعبيد ، سمعت عن ملك بيت المقدس سليمان بن داود الذى وهبه الله له المجد والحكمة فزرع الله فى قلبها الرغبة فى أن تذهب لتراه .

وتتلخص هذه القصة فى أنه كانت هناك فتاة تعيش فى إقليم تجرى اسمها (اتيجى ازب) أى ملكة الجنوب[1]. وكانت كشعبها تعبد الحية . وكان على كل واحد من أفراد الشعب أن يهب الثعبان ابنته الكبرى وكميات من الخمر واللبن كل عام ، فى ميعادمعين . فلما جاء دور والد الفتاة قيدها إلى شجرة خارج المدينة انتظاراً لمجىء الحية . ولكنها استطاعت أن تقتل الثعبان وتخلص نفسها بل تخلص شعبها منه . وفى أثناء صراعها معه طارت نقطة من دمه وسقطت على قدمها فصيرته قدم حمار — وفى . رواية أخرى قدم عنزة — وعادت الفتاة إلى قومها فأنكروها . ولكنها قصت عليهم قصتها وأرتهم الثعبان ميتاً . ففرحوا بها وأقاموها ملكة عليهم وجعلوا فتاة أخرى رئيسة لحرسها .

وسمعت اتيجى بعد ذلك بمقدرة سليمان بن داود ملك بيت المقدس الطيبة كما سمعت بحكمته . فصممت على أن تسعى إليه . وقام بتجهيز الرحلة تاجريسمى تامارين تمر الجنة أو ثمر الدين كان يترددعلى سليمان ليبيعه مختلف عروض التجارة التى يحملها من البلاد التى يقصدها ومنها إتيوبيا .

وقامت قافلة كبيرة . وقد تنكرت الملكة ورئيسة حرسها فى زى غلامين . وقصدتا إلى حيث يقيم سليمان . (لأن الله أراد أن تستمر مملكة داود إلى نهاية العالم . كما وعد الله داود أن نسله لن يفنى ومن ثمرته سيضع على العرش ماداموا يحافظون على اللوح والشريعة التى سأعلمها لهم . وسيجلس أبناؤه على العرش إلى الأبد) .

ووصلت الملكة وقافلتها إلى أورشليم ومازالت الملكة ورئيسة حرسها متنكرتين فى زى الغلامين ،ولكن سليمان استطاع — بحيلة منه — أن يعرف

---

(١) أنظر كتاب قصة ملكة سبأ بين الاسطورة والتاريخ للمؤلف

حقيقتهما كما عرف أيضاً قصة قدمها دون أن يسألها . وهناك عادت قدمها — بقوة الله — قدماً طبيعية كالأخرى . وفرحت الملكة بذلك فرحاً لا يوصف .

وبعد ذلك قدم لها سليمان كل فروض الإحترام وجعلها ورفيقتها وجنودها يقيمون بجوار قصره وهيكله الذى بناه . وكان يزورها كل يوم كما تزوره لتسمع وتتعلم من حكمته . وكان سليمان محباً للنساء فإذا كثر ترددها عليه طلب منها أن تهبه نفسها، ولكنها رفضت وقالت له — لقد جئت لك وأنا عذراء فهل أعود إلى بلدى مسلوبة بكورتى لأحمل عار ذلك بين قومى ؟ ، ولكنه ذكرلها أنه سيتزوجها كما يتزوج الملوك . وأنها ستكون ملكة ، ولكنها رفضت بل أخذت عليه عهداً أن لا يحاول اغتصابها ، ولكنه قال لها إذا حضرت إلى سريرى ليلا وأنا نائم فستكونين زوجتى ، وفقاً لقانون الملوك ، وكانت هى من جانبها مصممة على أن تحتفظ ببكورتها ولكن ما حدث كان بإرادة الله له المجد وأخذ سليمان يوالى إلقاء دروس الحكمة عليها وهى تعى كل ذلك بفهم طيب .

وفى ذات ليلة جمع سليمان الطهاة وأمرهم أن يجهزوا طعاما لكل من بالقصر وأعطاهم كل ماهو شهى من التوابل النفاذة الرائحة . وامتثل الطهاة لأمره . وعندما أكلت الملكة من هذه التوابل أكثرت من طلب الماء وشربت منه كميات كبيرة ، ولكن ذلك لم يطفىء ظمأها . وفى الليل ، أعطى سليمان الأوامر سراً لمن بالقصر برفع الماء . وأن لا يعطوها شيئاً منه . وإلا كانوا عرضة للموت وإذا سألتهم عن مكانه أجابوها إنه بجوار سرير الملك . وفى منتصف الليل قامت الملكة تشكو العطش إذ شعرت بالحرارة فى جوفها بسبب ما أكلته من توابل، وأمرت وصيفتها بصوت عال أن تأتى لها بالماء . ولكنها لم تستطع أن تقدمه لها ، مما جعلها تقوم لتبحث عنه بنفسها ، فأسرعت إلى حيث كان سليمان الذى كان متيقظاً ولكنه يتظاهر بالنوم وشربت الملكة كمية كبيرة من الماء لتطفىء

ظمأها . فاستعادت روحها وشعرت أن قوتها قد عادت إليها بعد أن كادت تموت عطشاً . وعندما أرادت الملكة أن تعود أدراجها قفز الملك إليها وأمسك بها ، وقال لها . الآن قد أصبحت زوجتى وفقاً لقانون الملوك . فتذكرت الملكة اتفاقها الذى كان بينهما ، فوهبته نفسها ، عن إرادة وحرية ، ولم يكتف سليمان بذلك. بل اضطجع مع وصيفتها أيضاً ، وأعطى كلا منهما قطعة من الفضة وخاتماً ومرآة ، وقال لهما إذا كان المولود بنتا فلتحمل الفضة وتأتى إلىّ ، أما إذا كان ولداً فليحمل الخاتم . ثم عادت الضيفتان إلى بلدهما ، وأنجبت كل منهما ولداً .

ولم تقف القصة عند هذا الحد بل استرسلت وكان هناك غرض من وراء هذا الاسترسال . كما سيبدو ولما بلغ ابن الملكة مبلغ الرجال ، كان صحيح البدن قويا عاقلا حكيما كأبيه ، ولم يلبث أن عرف قصة ولادته إذا كان دائم السؤال عن أبيه لأنه يرى لكل الصبيان أباء إلا هو ، حتى إذا أعلمته أمه القصة ، تاقت نفسه إلى رؤيته ، فشجعته أمه على هذه الرغبة ، وأمرت فجمع له من الجنود الهدايا ما هو لائق به وبأبيه ، وخرج يقصد أورشليم ومعه ابن المرأة الأخرى ولكن الأول كان قد حمل معه المرآة التى أعطاها أبوه لأمه ، بينما لم يفعل الثانى ذلك واكتفى بالخاتم .

وعندما اقتربا من أورشليم وسمع سليمان بمجيئهما تنكر فى زى خادم له وذهب إلى مكان آخر واختبأ فيه. وأمر بالولدين ليدخلا عليه فدخل ولد الوصيفة أولا فاتجه إلى حيث الجالس على العرش وقبل يده ظناً منه أنه أبوه . بينما ظل إبن الملكة الذى كان يسمى ابن حكيم واقفاً بدون أن يقدم فروض الطاعة، ولما نظر فى المرآة التى أعطتها له أمه رأى ملامح الجالس على العرش تختلف تماماً عن ملامحه فعرف أنه ليس الملك . فاتجه إلى جميع الجهات وأخذ يبحث عنه فرأى سليمان ينظر إليه من فرجة باب قريب فعرفه لساعته، واتجه إليه وقدم له فروض الطاعة فقال سليمان أهذا إبنى الحقيقى . مرحباً بك يابنى الحبيب أنت ابن داود.

ووضع تاج أبيه على رأسه و أطلق عليه اسم منليك وأجلسه على عرش داود أبيه. وضرب أصحاب الطبول طبولهم . ونفخ أصحاب الأبواق أبواقهم وصرخ الواقفون قائلين هذا داود بن سليمان بن داود ملك إسرائيل .

وكان فى الهيكل الذى بناه سليمان تابوت عهد الرب، وفى داخله لوحا الحجر اللذان كتب الله عليهما بأصابعه . وعصا هارون . وكذلك لوح مانا، كان هذا التابوت مغطى بصفائح من ذهب ملفوفا بلفائف من القطيفة مطرزة بخيوط الذهب .

وحدث أن ذهب منليك بن سليمان إلى الهيكل للصلاة ورأى التابوت وكيف كان يرتفع عن الأرض بقوة خفية إذا ما صلى الكاهن، فصمم من معه على أن يحمله إلى مملكته، ودعوا سراً صانعاً وكلفوه أن يصنع لهم تابوتاً خشبياً بنفس أبعاد الصندوق الذى فيه التابوت وإذا ماتم عمله قتل العامل سراً كى لا يفشى سرهم.

وفى ليلة رحيلهم أخذوا حفنة من رجالهم مزودين بالحراب إلى الهيكل وحملوا التابوت وجعلوا الصندوق الذى صنعوه مكانه. وخرجوا ومعهم التابوت ولم يودع منليك والده. وحدث كل ذلك بإرادة الله له الشكر كى يسكن التابوت المقدس إلى الأبد فى مملكة داود كما وعد الله داود أن يجلس نسله على العرش إلى الأبد) .

ولم يتبين القوم فى أورشليم ماحدث إلا بعد مدة. فذهب الكهنة إلى سليمان الملك وكانوا يولولون من الحزن بسبب غياب التابوت من مكانه المقدس . واتهموا الملك بأنه كان يعلم بأمر سرقة ولده للتابوت ، بل هو الذى أمره بأخذ التابوت معه، فبكى سليمان وأقسم لهم إنه لم يصرح لولده بذلك ولم يودعه ولم يعلم شيئاً عن سفره . وأسرع سليمان فأمر أن يرسل الجند خلف ولده يطاردونه ليستعيدوا التابوت . فساروا أربعين يوماً . حيث رأوا نجاراً فسألوه، فأجاب إنه رأى ملكا عظيما وجنوداً كثيرين يسيرون وأن الصندوق كان معهم . ولكنهم يسيرون كسحاب يدفعه ريح قوى . فعاد الجند يملأهم اليأس والحزن ولكن هذا الحزن

لم ينفعهـــم شيئا . وبذلك أصبحت مملـكة إتيوبيا تتبع عرش داود إلى الأبد واستقر التابوت هناك .

وليس لهـــذه القصة أى سند تاريخى يمكن أن نعتمد عليه لنثق بصحتها، ولـكنهم يقولون أن هذه الملـكة هى ملـكة الجنوب التى عناها الإنجيل حين قال فى الآية الثانية والأربعين من الإصحاح الثانى عشر من انجيل متى « وملـكة الجنوب ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان) وهى نفسها ملـكة التيمن التى ذكرتها الآية الواحـدة والثلاثون من الإصحاح الحادى عشر من انجيل لوقا « ملـكة التيمن ستقوم فى الدين مع رجال هذا الجيل وتدينهم لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان » .

وهى نفسها ملـكة سبأ التى ذكر العهد القديم نبأ زيارتها لسليمان ملك بيت المقدس فى الإصحاح العـاشر من سفر الملوك الأول « وسمعت ملـكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه فى مسائل كثيرة . فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً .. إلخ » بل أن هذه الملـكة لم تفعل أكثر مما كان يفعله كل رجال ونساء عصرها كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من نفس السفر (وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان .لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه)

وملـكة الجنوب . أو ملـكة التيمن التى ذكرت فى الإنجيل وملـكة سبأ التى ذكرها العهد القديم كلها شخصية واحدة وهى نفسها ملـكة سبأ التى ذكرها القرآن فى سورة النمل .

وإذا كانت سبأ إسماً لمكان فى اليمن لا فى إتيوبيا فقد كانت هذه الملـكة تحكم كلا من إتيوبيا واليمن . وقد ظهر فى التاريخ الإتيوبى كثير من الملوك الذين حكموا هذين البلدين .

وقد اختلف موقف المؤرخين إزاء هذه القصة، فهناك من يقول أن القصة كلها

خرافة مخترعة فى عصور متأخرة لمداهنة كبرياء الشعب الإتيوبى . من جهة ، وليسند أدعاء الأسرة المالكة فى العرش الإتيوبى من جهـــة أخرى ، ويؤيد ذلك أن أكسوم التى تقول القصة ان منليك قد بناها ليحفظ فيها التابوت والألواح فى القرن العاشر قبل الميلاد لم تنشأ قبل القرن الثانى الميلادى . فإن المؤرخين الذين كتبوا عن هذا العصر مثل سترابو لم يأتوا لها بذكر .

ويقول آخرون أن هذه القصة إنما هى خليط من قصص كثيرة وأساطير كانت أجزاء كثيرة من بلاد إتيوبيا ترددها وتعتقد صحتها . وأن شخصا أو أشخاصاً معينين أخذوا هذه القصص كلها وصاغوا منها قصة واحدة اتخذت شكلا خاصا لغرض خاص. ومن هؤلاء الأخيرين من يقول أن قصة كبرا نجست يعود إنشاؤها إلى القرن السادس الميلادى وإنها ربما تكون قد وضعت أولا بالقبطية بواسطة قس قبطى عاش فى مصر وأكسوم أو أى جزء آخر من أجزاء إتيوبيا . وأنها ترجمت فى عصور تالية إلى العربية . وأضيفت إليها أثناء الترجمة زيادات من مصادر عربية ثم ترجم هذا النص العربى فيما بعد إلى الحبشية . وفريق رابع يرى أن هذا التأليف النهائى وهذه الترجمة لم يتما إلا عقب مايسمى بعودة الأسرة السليمانية إلى العرش فى القرن الثالث عشر الميلادى وأن المؤلف أو المؤلفين للنص الحبشى قد أضافوا إلى الأصل المترجم بعض الإضافات ليعطوه أهميـــة لم تكن له .

نعود فنقول أن ملوك إتيوبيا والإتيوبيين جميعاً يعتقدون اعتقاداً لا يعتوره الشك فى صحة هذه القصة، كما يعتقدون أن بيتهم المالك يتسلسل تسلسلا غير منقطع عن منليك الأول هذا ابن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس، ونرى هذا واضحا فى المادة الثالثة من الدستور الإتيوبى الصادر فى سنة ١٩٣١ التى تقول (أن حق الحكم الإمبراطورى فى أسرة الإمبراطور هيلاسلاسى الأول ابن الملك سهلاسلاسى

الذى ينحدر نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن سليمان ملك بيت المقدس وملكة إتيوبيا المعروفة باسم (ملكةسبأ).

وقد أعيد صياغة هذه المادة فى الدستور الجديد الذى صدر فى سنة ١٩٥٥ فنصت مادته الثانيةعلى أن (يظل العرش بصفة دائمة محصورا فى نسل هيلاسلاسى الأول المتسلسل من الملك سهلاسلاسى الذى هو بدون توقف من نسل أسرة منليك الأول ابن ملكه إتيوبيا ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس) ويكاد النصان يتفقان كما رأينا[١].

ونحن وإن سلمنا جدلا بصحة قصة الزيارة وأن هذه الملكة قد انجبت فعلا إبنا من سليمان هو منليك هذا . فلكى نسلم بأن ملوك اتيوبيا الحاليين هم من نسل منليك الأول يجب أن نتأكد من :

(١) أن التى قامت بزيارة سليمان ملك بيت القدس فى القرن العاشر قبل الميلاد كانت ملكة على إتيوبيا وتحكم كلا من سبأ وأكسوم لا ملكة لليمن فقط.

(٢) أن نسل هذه الملكة هو الذى حكم دولة اكسوم القديمة بدون انقطاع حتى القرن العاشر الميلادى . حين طردتها أسرة أجوا .

(٣) أن الأسرة التى جلست على العرش فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن طردت أسرة أجوا هى نفس الأسرة القديمة . التى كانت تحكم أكسوم قبل أن تطردها أسرة أجوا لثلاثة قرون .

وهذه الأمور كلها لم نعثر بعد على وثائق أو رسوم أو نقوش تؤكدها لنا .

ومن اليسير علينا أن نعرف الأسباب الحقيقية لاهتمام ملوك إتيوبيا بتأكيد

---

(١) أنظر (الدستور الاتيوبى) للمؤلف

صحة هذه القصة . وصحة تسلسلهم من منليك الأول ابن ملكة سبأ فاعتقاد الإتيوبيين أن ملكهم من نسل داود يجعله قريبا للمسيح وليس فوق ذلك فخر لهم، كما جعل الأتيوبيين يعتقدون أيضاً أن أسرتهم المالكة لاتستند على حق شرعى فحسب بل إلى حق إلهى يجعل التفكير فى الثورة عليها نوعا من الكفر ، لايجرؤ عليه إتيوبى مهما كان تفكيره . وأخيراً جاء التفاف الإتيوبيين حول أسرتهم المالكة وإيمانهم بسلطتها المطلقة النتيجة الطبيعية لإيمانهم بصحة هذه القصة .

* * *

ويمضى كبرا بجست فيعدد لنا أسماء الملوك الذين توارثوا عرش أكسوم بعد منليك الأول فيذكر لنا خمسة وعشرين اسما آخرها الملك بازن Bazen الذى يقولون عنه أن المسيح ولدفى فى أيامه . ويسود الشك جميع هذه الأسماء . كما يسود كل من قبل بازن، مادام ليس هناك أى دليل تاريخى يؤيد هذه الأسماء أو حتى واحدا منها، كما أن حكم خمسة وعشرين ملكا فى مدة تسعة أو عشرة قرون يجعل متوسط حكم كل ملك منهم أربعين سنة وهى مدة لايستطيع عقل أن يتصورها . أما عن حوادث هذه المدة أو تطور الأحوال السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فيها فالمصدر الإتيوبى صامت عنها كل الصمت .

ولكنا من ناحية أخرى نعلم أنه فى خلال عصر الإمبراطورية الثانى الذى قام فى مصر الفرعونية وماتبعه من عصور الاحتلال الأجنبى ثم عصر النهضة، عنى الملوك المصريون، وكذلك ملوك البطالمة بأمر التجارة الخارجية فكانوا يرسلون البعوث البحرية إلى البحر الأحمر لجلب الخشب والمر واللبان والبخور من بلاد بونت، التى اتفق أغلب المؤرخين أنها بلاد الصومال الحالية والهضبة التى وراءها. وأن العلاقات التجارية بين هذه البلاد ومصر قد ازدهرت وأن المبادلة كانت على أساس التعامل بينهما . ولأجل هذه التجارة عنى ملوك مصر وخاصة الملك سيزوستريس

وكذلك الملك نخاو بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، كما عنى بطليموس فيلادلفوس (٢٦٧—٢٤٧ ق.م) بتمهيد طريق القوافل بين النيل والبحر الأحمر. ولا يمكن أن يحدث هذا الاهتمام مالم يكن مايتم تبادله من التجارة عن هذا الطريق يستحق كل هذا الاهتمام، وما يصرف على هذه المشاريع من جهد ومال، خصوصا وإننا نعرف أن الدوافع إلى الاهتمام بالأمور التجارية خلال العصر البطلمى لم تكن دوافع دينية كما كان الحال أيام ملوك الأسرات .

وإلى هذا العصر السابق للميلاد تعود الآثار التى كشفت عنها بعثة ليتمان فى سنة ١٩٠٥ فى حفرياتها بجوار أكسوم .

وهذه الآثار عبارة عن عدد من المسلات ليس بينها الآن إلا واحدة قائمة . (أنظر شكل رقم ٣) والأخريات ملقيات على الأرض .ولا ندرى من الذى أقام هذه المسلات ولا لماذا أقيمت. ويبلغ طول هذه المسلة القائمة سبعة وعشرين متراً وهى لاتشبه المسلات المصرية إلا فى شيئين وهى أن كليهما قطعة واحدة من الحجر . كما أن مساحة القاعدة تقل كلما اتجهنا نحو القمة . ولكن نقوش مسلة أكسوم تختلف كل الاختلاف عن نقوش المسلات المصرية. فهى تمثل بناء ذا تسع طوابق يحتوى كل طابق على عدد من النوافذ المتجاورة وهى ترتكز على قوائم مستديرة تمثل العروق الخشبية ويحوى الطابق الأول هيئة باب . وقاعدة المسلة مستطيلة وليست مربعة . وهذا الباب موجود فى أحد الجانبين الكبيرين وهو ما نستطيع أن نسميه بوجه المسلة .

وهذه النقوش موجودة على الوجه والجانبين أما الظهر فخال من النقوش وليس فيه إلا دائرة فى أعلا المسلة يحتوى على أربعة ثقوب، وتنتهى المسلة فى قمتها بقوس ينحنى إلى أعلا .

ويظن أن هذه المسلات كانت تقام لأغراض دينية حينما كان شعب هذه

الجهات يعبد الشمس على مايظن ، والتى كان القوس الذى فى أعلى المسلة يمثل قرصها وهو يرسل أشعته إلى جميع الجهات .

وإلى هذا العهد أيضاً تعود الآثار التى عثرت عليها بعثة المكتبة الأهلية المكونة من جان لـكلانت الاجبتولوجست. وجان دوريس المختص فى التاريخ والأدب القبطى عام ١٩٥٣/١٩٥٤ فى أزبى ديرا فى أقصى شرق هضبة تجرى . فقد عثر هناك على تمثال حجرى لملك يلبس رداء ثميناً مزينا جالس على كرسى (أنظر شكل ٤) وعند قدم التمثال كتابات باللغة العربية الجنوبية تبين الغرض من عمل هذا التمثال . ولـكن اسم هذا الملك غير ظاهر . ولـكن يبدو من أسلوب الكتابة وطريقتها أنها تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد . ولا يظهر فى التمثال أى أثر إغريقى أو مصرى . وملامح الملك شرقية بحتة وفى مواجهة المكان الذى عثر فيه على التمثال وجد مذبح من الحجر الجيرى الصلب يحمل كتابة سبأية طويلة على جانبيه وعلى واجهته . ولـكن اسم الملك غير ظاهر أيضاً . ولـكن يبدو أنه كان يحكم على عدة ولايات إتيوبية وعلى مملـكة سبأ فى بلاد العرب الجنوبية وعثر أيضاً فى نفس المنطقة على فناجين من البرنز وجفان . اثنتان منها تعود إلى أصل مصرى فرعونى. وربما تعود إحداها إلى العهد الصاوى إلى ٦٦٣ — ٥٢٨ ق . م وعليها نقوش هى زهرة اللوتس وحافة من صور الضفادع وهى تبعث الماء من أفواهها (أنظر شكل ٦) . وهذه تعد من أقدم المصنوعات المصرية التى عثر عليها فى إتيوبيا .

على أن مجموع هـــذه الآثار تدل على أن الهجرات السبأية إلى أفريقيا حدثت فى أوقات مبـكرة عما قدره لها العلماء.

ويذكر كبرانجست عشرة ملوك بعد الملك بازن حتى يصل إلى عيزانا (٣٣٠ م) الذى دلت النقوش على أن المسيحية دخلت البلاد فى أيامه . وكما

صمتت المصادر عن ذكر أية تفاصيل عن هؤلاء الملوك الذين أتوا قبل بازن فقد صمتت أيضاً عن أخبار من خلفوه ولكن عثر فى ضواحى أكسوم خلال سنة ١٩٥٨ على عملات برنزية تحمل أسماء الملوك لا يسعنا إلا التسليم بها وإن كنا نجهل على وجه التحديد سنى حكمهم وأعمالهم . وهؤلاء الملوك هم .

١ — انديبيس بيسى داخو Endybis Bisi Dakhaw .

٢ — افيلاس بيسى ديميلى Aphilas Bisi Dimele .(انظر شكل ٥)

٣ — وازانا Ouasanas

٤ — وازب Ouazab

٥ — عيزانا Ezana (انظر شكل ٧)

وهذا الأخير صاحب اللوحات التى عثرت عليها البعثة الألمانية الأولى فى سنة ١٩٠٥ والتى دون عليها هذا الملك أخبار حملاته الحربية التى قام بها على البلاد المجاورة . وهذه اللوحات مكتوبة بثلاث لغات هى الإغريقية والحبشية والسبأية ومن هذه النقوش استطعنا أن نعرف أن حكم هذا الملك كان طويلا مزدهراً ، علاوة على كونه جنديا عظيما ومحاربا شجاعاً . فإنه كان إداريا فذا . كما كان صافى الذهن بعيد النظر . اتسعت مملكته حتى شملت أكسوم وحمير وريدان وسبأ وصالحين وسيامو وبيجه وكاسو . أما أكسوم فعاصمته وحمير وريدان وسبأ وصالحين فى اليمن . أما بيجة فلاشك أنه يعنى بها قبائل البجة التى كانت تسكن بين النيل والبحر وكاسو هى قبائل كوش التى كانت تسكن ضفاف النيل النوبى جنوبى الشلال الثانى .

وكتابة هذه النقوش باللغات الثلاث تدل على رغبته فى نشر أعماله حتى يعرفها كل من يعرف إحدى هذه اللغات مما يجعلنا نصدق ماقيل عن هذا العصر من أن

أكسوم كانت مركز التجارة فى شمال شرقى أفريقيا : يقصدها تجار من جميع الجنسيات كالإغريق الذين كانوا يشتغلون بالتجارة بين مصر وموانى البحر الأحمر ، واليمنيين الذين ينقلون هذه التجارة بين موانى البحر الأحمر وشرق أفريقيا . وأنها كانت لاتيوبيا ما كانت الإسكندرية لمصر .

ويقسم المؤرخون هذه النقوش إلى قسمين . القسم الأول منها والملك مازال وثنياً يعبد الآله محرم . وفيها يعلو الهلال نقوشه ويطلق على نفسه فيها.

عيزانا بن الا أميد من عائلة
هالن ملك أكسوم وحمير
وريدان وسبأ وصا
لحين وسيامو وبيجا وكاسو
ابن محرم الذى لا يقهر باى
عدو غزا . . .

وإذا ما انتهى من تعداد حملاته وما قام به من جليل الأعمال وما أسره من أفراد القبائل التى هزمها وما استولى عليـــه من غنائم ينهى النص بقوله (وأعطى الهبات لمحرم الذى منحه مائة من الماشية وخمسين أسيراً) .

أما القسم الثانى من النقوش فيبدو لنا فيها عيزانا وقد اعتنق المسيحية فوضع الصليب على رأس نقشه ويبدأ النص بقوله :

بقوة إله السماء
الذى هو فى السماء
وأقوى من أى شىء فى الوجود .

ويختمه بقوله :

بقوة إله السماء . غير المنظور
للاعداء . الذى جعلنى . ملـكا

وفى هذا النص يعد الملك الإله أن يحكم شعبه بالعدل. ولا يظلم أحداً كى يصون شعبه العرش الذى أقامه لأجل إله السماء . بعد أن شكره على المساعدة التى منحه إياها والعرش الذى أعطاه إياه .

فإذا كانت المصادر قد صمتت عن الفترة السابقة لحـكم عيزانا إلا أن النقوش التى عثر عليها ديمبرجر والتى يبدو أنها كتبت فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد تدل على أن أحد الملوك قد أقام نصباً تذ كاريا إعترافا بفضل الآله محرم السبأى . على ما أولاه إياه من نصر على مملـكة سبأ التى كانت على الشاطىء الآخر للبحر الأحمر، ليؤدب الحميريين وجميع الشعوب التى تسكن الجزيرة العربية حتى عدن ، فهم جميعاً كانوا قد اتخذوا نهب التجارة الأتيوبية التى تسير فى البحر الأحمر أو جنوب الجزيرة العربية صوب حضرموت حرفة لهم ، فـكأننا نستطيع أن نقول أن اتيوبيا منذ القرن الأول الميلادى (حين قام هذا الملك المجهول الإسم بحملاته هذه) حتى القرن الرابع (حين قام عيزانا بحملاته التى وجدنا أخبارها على هذه النقوش الأربعة) كانت دولة عظيمة مرهوبة الجانب بسطت سلطانها على شاطىء البحر الأحمر وامتد هذا السلطان شرقا حتى شمل اليمن وحضرموت كما امتد غربا حتى وصل إلى النيل النوبى . وأن البحر الأحمر لم يكن إلا بحيرة إتيوبية [1] .

كما أن دخول المسيحية ألى اتيوبيا تدل على أن البحر الأحمر كان طريقاً تجاريا هاما . وأن ميناء عدول الإتيوبية التى كانت تطل على البحر الأحمر كانت

(١) انظر (بين أثيوبيا واليمن) للمؤلف

ميناء نشطة آهلة بالسكان الوطنيين والعرب والمصريين والإغريق، يشتغل أهلها بالتجارة وبناء السفن وأن بعض من كانوا بها من الإغريق والمصريين كانوا مسيحيين أقاموا لهم بعض الكنائس. فإذا كان قسطنطين إمبراطور الدولة الرومانية قد منح المسيحيين فى إمبراطوريته الحرية الدينية بأن جعل المسيحية على قدم المساواة مع الديانات الأخرى. فإن عيزانا قد فعل — باعتناقه المسيحية مثل ذلك تماما.

ولم يكن هذا العمل فى هاتين الناحيتين من العالم نتيجة اتفاق بينهما بل كان كل منهما مستقلا عن الآخر تمام الاستقلال. وكان لهذه الخطوة أثرها فى إتيوبيا فإنها لم تعط هذه البلاد ديانة سماوية فحسب بل إنها دفعت باتيوبيا لأن تتحرك بخطوات سريعة فى فلك العالم المسيحى.

وتروى المصادر الدينية لدخول المسيحية إلى إتيوبيا قصة لا بأس من إيرادها: كانت إحدى سفن التجار تسير صوب الجنوب فى البحر الأحمر حين اصطدمت بإحدى الشعب المرجانية الساحلية فتحطمت، أمام ثغر عدول ميناء إتيوبيا، وهلك ركابها إلا إثنان هما تاجران مصريان. وكان هذا التاجران شقيقين هما ديو نيسيوس وفرمنتيوس، وحمل التاجران إلى ملك البلاد فقابلهما، وسر منهما فعين أولهما نديماً له والآخر مستشاراً [1].

ومات الملك بعد أن ترك ولداً صغيراً فى كفالة أمه الملكة، وأراد التاجران أن يعودا إلى بلدهما بعد أن فقدا الملك الذى كان يعطف عليهما، ولكن الملكة تقدمت إليهما بالرجاء أن يبقيا ليساعداها فى تصريف أمور الدولة، وليعيناها فى تربية الطفل الملك. وهنا يختفى ديو نيسيوس من القصة ولا يعود يظهر بعد ذلك.

---

(١) أنظر كتاب (كنيسة الأسكندرية فى أفريقيا) للمؤلف

أخذ الملك الصغير ينمو ويكبر وهو لا يزداد إلا شجاعة وحكمة وبعد نظر، وجلس على عرش أبيه واستقل به ، وفرمنتيوس إلى جانبه دائماً ، وأظهر الملك فى حكمه شجاعة ، وقام بحملاته التى ذكرناها ، ولم يكن هذا الملك إلا عيزانا الذى أخلص لفرومنتيوس الود كما أخلص له هذا الأخير النصح ، وأعجب الملك بكل ما كان فرومنتيوس يأتيه ، وبطريقة حياته ، وأمانته وعلو نفسه ، وتمسكه بكل ما هو فاضل وشريف ، فكانت النتيجة أن اعتنق المسيحية التى كان يعتنقها فرومنتيوس . وظهر هذا الاعتناق فى كتابات الملك ونقوشه كما رأينا .

ولم يلبث فرومنتيوس أن طلب العودة إلى مصر ليقابل بطريركها يسأله رعاية هذا الحقل الجديد . فأذن له الملك . وقدم فرومنتيوس إلى الأسكندرية ثم قابل إثناسيوس (البطريرك العشرين من سجل بطاركة الأسكندرية[١] وقد عاد إليها من منفاه فى المرة الثالثة . فحدثه خبر هذا الحقل الجديد ، فنصبه أسقفاً لأتيوبيا وأطلق عليه إسم أبا سلامة .

ولما عاد أبا سلامة إلى أكسوم مدينة ملك إتيوبيا سنة ٣٣٤ م ظل يباشر عمله فى توسيع رقعة المسيحية وزيادة عدد المسيحيين وتفهيم هؤلاء الأتيوبيين هذا الدين الجديد . ويبدو أن الإتيوبيين وعلى رأسهم الملك سروا من هذا الرجل ، ومن هذا الدين الذى حمله إليهم ، فأطلقوا عليه كنية تدل على هذا الحب وهى « كاشاتى برهان » ومعناها كاشف النور ، ومنذ هذا الوقت استقرت المسيحية على المذهب السكندرى فى إتيوبيا .

وقد أكسبت حملات عيزانا الحربية هذا الملك شيئاً من التفوق على جميع الملوك الذين كانوا يتبعونه ولذا يرجح أنه استبدل بلقب ملكان الذى كان يستعمل فى شبه الجزيرة العربية ليدل على الملك . لقب نجوس وهو لا يختلف كثيراً من

---

(١) أنظر كتاب (موجز تاريخ بطاركة الأسكندرية) إشراف المؤلف .

حيث المعنى عن لفظ ملكان الا أنه تطور فيما بعد إلى لقب نجوس نجست أى ملك الملوك . وأصبح هـذا اللقب الجديد خاصاً بملك أكسوم ليدل على الملك الذى انتخبته كل القبائل المحاربة وأصبح هـذا اللقب يكتب على جميع النقود دلالة على مركز ملك أكسوم الأمبراطورى وإن كنا لا نعرف على وجه الدقة متى بدأت هذه الكتابة ولا إذا كانت قد استمرت أم لا .

وتكاد المصادر تجمع على أن عيزانا كان أعظم الملوك الذين حكموا أكسوم وتحت حكمه وصلت اتيوبيا إلى أقصى قوتها كما وصل الشعب الإتيوبى إلى أقصى حد من الرفاهية فقد صارت أكسوم مركز التجارة فى شمال شرق أفريقيا، وقصدها تجار من جميع الجنسيات . هذا الى ما قام به من شق الطرق فى مناطق كثيرة وتأمين تلك القوافل لا للرجال فقط بل للنساء أيضاً ، كما أكثر من الاهتمام بجنده فكان يحصى جنده عقب كل معركة ليعرف من فقد منهم .

ويمكننا أن نعطى شيئاً من التفاصيل عن هذه الحروب التى قام بها هذا الملك الذى برز من بين كل الملوك الذين حكموا اتيوبيا بروزا خلد اسمه .

كانت أولى حروبه موجهة ضد قبائل البجة التى كانت تعيش فى المناطق الشمالية ودأبت ــ مدفوعة بالرومان ــ على نهب القبائل خصوصاً بعد أن سقطت مملكة مرو ولم تعد هناك دولة قوية يرهبونها. فأسر عيزانا ستة من ملوكهم كما أسر أكثر من خمسة آلاف من رجالهم وأرغمهم على الإقامة فى أماكن خاصة لا يبرحونها حتى إذا تم له هذا النصر أقام نصباً تذكارياً تخليداً له .

وكانت الغزوة الثانية ضد قبائل (بال كيو) التى تعيش شرقى اكسوم . فلم يكد الملك يخرج إليها حتى قدم ملكهم أجويزات Aguizat وحمل له الهدايا وقدم له الخضوع ، ولكن عيزانا لم يلبث أن اكتشف أن هذا الخضوع لم يكن إلا خداعاً، فقبض عليه وجلده عاريا وقيده مع خدمه الذين يحملون عرشه .وكانت

الغزوة الثالثة ضد قبائل افان التي يظن أنها كانت تسكن جنوبى ا كسوم فارسل إليهم ثلاث جيوش ولم يلبث أن لحق بها بنفسه فأسر قائدهم وقتل المئات من الرجال والنساء واستولى على مواشيهم وقد بلغت أكثر من ثلاثين ألفاً . وشكر الملك الآله على هذا النصر فقدم له الهبات وقد بلغت مائة من الماشية وخمسين من الأسرى.

وكانت الحملة الرابعة أكبر حملاته الحربية وقد وجهها إلى قبائل النوبة التي كانت تسكن النيل عند تكاز، وهم الذين أطلق عليهم اسم كاسو ،وكانوا محاربين أشداء ،خضعوا لأكسوم فى تاريخ سابق ولكنهم خرجوا عن طاعتها فسار عيزانا إلى مرو وخرب الأرض وعبر العطبرة يطاردهم فهزمهم وأقسموا له يمين الولاء إلا أنهم حنثوا بيمينهم ثلاث مرات وأعتدوا على القبائل التى كانت فى حماية عيزانا وسرقوا مواشيهم بل جردوهم من كل مامعهم . فسار إليهم فهربوا أمامه ولكنه تتبعهم إلى حيث مواطنهم واستولى على مخـــازن الحبوب والطعام كما استولى على النحاس والحديد والبرونز وكذلك على أشجار القطن مما يدل على أن هذه القبائل النوبية كانت ذات حضارة تعرف استعمال المعادن وتجيد زراعة القطن ولا بد أنهم عرفوا غزلها ونسجها . وعند فم العطبرة دارت المعركة الكبرى حيث قتل منهم مقتلة كبيرة . هربوا على أثرها صعداً فى النيل ، فتتبعهم ودمر مدينتى علوا ودارو وأخيرا عاد الجند بسلام وعند مكان المعركة (التقاء النيل بالعطبرة) أقام عرشاً لنفسه وقدم الشكر لآله السماء على ما حباه من نصر .

وهذه الحملات الحربية الناجحة وكذلك دخول المسيحية إلى البلاد عن طريق مصر يدل على ما كانت عليه تجارة اتيوبيا فى القرن الرابع وما قبله من انتشار، كما تدل على سهولة الاتصال وتأمين الطرق بين اتيوبيا والعالم الخارجى ، وهذا يؤيد ما ذكرناه من قبل من أن رفاهية اتيوبيا تتحقق دائمـــاً عن طريق اتصالها بالخارج .

وكانت هـذه التجارة مصدر قوة لاتيوبيا كما كانت مصدراً لثرائها ، فقد كانت قوافلها البرية تتجه إلى الشرق فتحمل إلى فارس البن والرقيق وسن الفيل والقرنفل وجوز الطيب لقاء ما تأتى به من السجاد والقطيفة . كما تحمل إلى الدولة الرومانية الشرقية مثل ما تحمله إلى فارس لقاء الحرير والمخرمات والملابس المطرزة بالذهب والفضة وكذلك الديباج .

وقد مكنت هذه الثروة مملكة اتيوبيا من أن تصبح دولة غنية قوية ، تمتد حدودها الشرقية حتى تعبر البحر الأحمر فتشمل اليمن ونجران، كما امتدت شمالا وغرباً حتى أطلت على سهول السودان . حيث يسكن البليميون والبجة . وغـيرهما من القبائل الضاربة فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر . وشملت أقليم جودچام ، كما كان شعراؤها يلقون من أمبراطور الدولة الرومانية وملوك النوبة كل إجلال واحترام .

فنى سنة ٥٢٠ م كان كوزماس السكندرى عائداً من الهند وزار ثغر عدول ومدينة أكسوم وكتب عنهما يقول أن عدول ميناء كبير مزدحم بالسفن القادمة من خليج ايلات ومن الساحل المصرى . ولها علاقات مع اليمن وفارس والهند وجزيرة سيلان . وترسل إليها الهند بالزمرد . أما أكسوم فهى التى تحكم طرق القوافل الذاهبة إلى جنادل النيل أو الذاهبة إلى بلاد الصومال . وطبقا لمعاهدة بين ملك أكسوم وملك الاجوا أرسلا معا قافلة مكونة من خمسمائة رجل إلى الجنوب الغربى (أقليم ولجا) وإذا ما وصلت هناك أقامت فى أرض فسيحة وبادلت أهلها بالمواشى والحبوب والذهب . وقد أثارت المدينتان إعجاب كوزماس بكنائسهما وتماثيلهما كما ذكر عن قصر الملك انه ذو أربعة أبراج فوق كل منها تمثال .

وحول نهاية القرن الرابع المسيحى كان لليهود جاليات كبيرة العدد فى اليمن واتيوبيا قدموها ، بعد أن غزا الرومان القدس سنة ٧٠ م وخربوا معبدها ،

وأرغموا الأهالى على التفرق فى أنحاء البلاد .فاتجهوا إلى هاتين الدولتين بعدأن مروابيثرب ومكة ونجران واستقرت أعداد منهم هناك وإذا ما اتجهت الدولة الرومانية الشرقية بعد عهد تيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥) إلى جعل المسيحية ديانة رسمية للدولة أخذت الهجرة اليهودية إلى اليمن تزداد لا سيما وقد صارت هذه البلاد مركزا لتجارة عالمية هامة .

وكانت كراهية اليهود للرومان والمسيحين هى التى دفعتهم إلى اضطهاد المسيحيين فى اليمن بعد أن أخذ اليهود مركز الصدارة ،هناك مما عا الملك الاتيوبى إلا عاميداً إلى التدخل واحتلال اليمن سنة ٣٤٥ فكانت الغزوة الاتيوبية الأولى لليمن .

ولكن الاحتلال الاتيوبى لليمن لم يستمر طويلا إذ استطاع تبع ملك (سبأ وريدان وحضرموت ويمنات فى سنة ٣٧٨ م) أن يستعيد جميع الأراضى التى أحتلها الإتيوبيون .

ومنذ هذا الوقت بدأ صراع بين المسيحية واليهودية اتخذ أرض اليمن ميداناً له . انتهى بسيطرة اليهودية . وتمثلت هذه السيطرة فى جلوس ذى نواس اليهودى على عرش اليمن سنة ٥٢٢ م فشرع فى اضطهاد المسيحيين اضطهاداً قاسياً، ومن أجل ذلك حالف الفرس أعداء الرومان . ممادعا اتيوبيا إلى التدخل فعبر الملك (ألا أصبحا) أوكما تسميه المصادر الاتيوبية كالب (٥١٤ – ٥٤٢) البحر الأحمر . وهزم ذا نواس واضطره إلى الفرار وسيطر على المواقع الهامة فى اليمن. ولكنه عاد إلى بلاده فى نفس العام فكانت هذه هى الغزوة الثانية لليمن.

وانتهز ذو نواس فرصة عودة كالب إلى بلاده فعاد إلى اليمن . وخرب كنائسها . بل تقدم إلى الشمال حيث احتل نجران . وهناك انفرد بالمسيحيين وجعل يسومهم عذاباً طويلا قاسياً . لحفر لهم أخدوداً وألقى بأعداد كبيرة منهم فيه وأشعل فيهم النار . وقد ندد القرآن بهذا العمل فنزلت الآية (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذهم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أثارت هذه المذابح ثائرة المسيحيين وفر أحدهم على وجهه يقصد بطريرك الإسكندرية البابا تيموثاوس الثالث (٥١٨ـ٥٣٥) فكتب هذا إلى الأمبراطور جستين البيزنطى فى القسطنطينية يستحثه لانقاذ أخوانه فى الدين . فما كان من الأمبراطور إلا أن كتب إلى كالب ملك إتيوبيا (مما يدل على علاقات الصداقة التى كانت تربطهما) يعرض عليه أسطولا رومانيا إذا أراد نجدة مسيحيى اليمن ونجران . فأعد الملك كالب حملته الثانية فى شتاء سنة ٥٢٤ — فكانت الغزوة الثالثة الأتيوبية لليمن — وقد بلغت مائة وعشرين ألفا ، وتحدد المصادر الكنسية يوم ١٨ مايو تاريخ بداية الحملة . ونجحت فى النزول إلى شاطىء اليمن . حيث استطاعت أن تهزم القوات اليمنية وتقتل ذا نواس وتعيد إلى المسيحيين أمنهم وطمأنينتهم . وقد اشترك كوزماس الرحالة السكندرى فى هذه الحملة وكتب لنا عنها . وأقيم أبرهة الأشرم حاكما على اليمن وارياط تابعا له على حمير ونجران . وكان من أثر هذه الغزوة ،لا استقرار المسيحية فى هذا الجزء من الجزيرة العربية فحسب ، بل عودة التجارة الإتيوبية السائرة إلى الشام وفارس سيرتها الأولى من النشاط والازدهار .

وفى أيام جبرا ماسقال الأول (٥٥٠ ـ ٥٧٠) أغرى أبرهه سيده على غزو الحجاز فوافق جبرا ماسقال على الفكرة . وخرجت الحملة من صنعاء واتجهت شمالا . ولكن طول الرحلة أنهك الجند فتفشى المرض فيهم . مما كان سببا فى فشلها . وقد أطنبت المصادر العربية فى ذكر هذه الحملة وما أصاب الأتيوبيين فيها من فشل . فذكروا الأفيال التى كان يركبها قواد الحمله وكيف أبت السير احتراما للكعبة وكيف استدارت هذه الأفيال على الإتيوبيين تقتلهم حتى فروا هاربين وقنعوا من الغنيمة بالإياب وقد أطلق العرب على تاريخ هذه الغزوة (عام الفيل) .

وإذا كانت إتيوبيا قد لقيت الفشل فى هذه الحملة فقد كان ما لقيته فى اليمن

أكثر مرارة ، فقد ثار اليمنيون عليهم يقودهم سيف بن ذى يزن . وكتبوا إلى ملك الفرس ينجدهم فكانت الجيوش الفارسية القادمة سبباً فى هزيمة الأتيوبيين. فخرجت اليمن من حكمهم لتدخل فى حوزة الفرس ، الذين أقاموا عليها حاكما . ومن الطبيعى أن يتبع التجار الفارسيون الجند الفارسى . فيقيموا المراكز التجارية فى اليمن . بل ويعبر منهم كثيرون إلى ساحل أفريقيا ويدخلون إلى إتيوبيا فيستقرون فى شرقيها وشرقى أفريقيا كله يزاولون نشاطهم التجارى .

ويبدو أن نصرة المسيحية لم تكن السبب الوحيد لهذه الغزوات الأتيوبية لليمن . فقد كانت اليمن بحكم موقعها نقطة ارتكاز لتبادل تجارى نشيط بين الحضارات القديمة التى قامت فى وادى النيل وفى وادى دجلة والفرات وفى حوض البحر المتوسط . وبين الحضارات الشرقية التى عاصرتها فى أوقات مختلفة فى الهند وجنوب شرق آسيا . وربما فى شرق أفريقيا أيضا . وذلك بفضل مهارة اليمنيين فى الملاحة لاسيما فى المحيط الهندى والبحار الجنوبية . كما كان اليمنيون يسيطرون أيضاً على الطرق البرية التى تخترق الجزيرة العربية وكان أهم هذه الطرق ثلاثة ، يتجه أحدها شمالا على طول الحافة الشرقية للبحر الأحمر مخترقا تهامه والحجاز إلى ساحل الشام . والثانى من أقصى شمال بلاد اليمن إلى وسط الجزيرة العربية إلى جنوبى بلاد العراق . بينما يتجه الثالث إلى وسط بلاد العرب على طول وادى السرحان إلى جنوبى شرقى سوريا مارا بواحات الجوف فى الشمال .

فكانت الغزوات الأتيوبية المتوالية ترمى — علاوة على نصرة المسيحية كما ذكرنا — إلى امتلاك بلاد اليمن نفسها حيث الثروة الطبيعية وخصوصا البخور الذى كان سلعة تجارية عالميه ، من أجل الطقوس الدينية . وإلى تحطيم الاحتكار اليمني للتبادل التجارى بين الشرق والغرب .

ولم يلبث الإسلام إن ظهر فى شبه الجزيرة وأوقع القرشيون الأذى بالنبى وأصحابه، فنصحهم بالهجرة إلى (الحبشة) ـ لأن فيها ملـكا لا يظلم عنده أحد ـ[1] وهى البلاد التى اعتادوا الرحلة اليها من قبل والتى استقر فيها كثير من إخوانهم يشتغلون بالتجارة ، فسافر إليها فريق منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله . فاحسن حاكم الإقليم الساحلى (بهر نجش) ـ الذى سماه المسلمون بالنجاشى ـ لقاءهم . وأرسلت قريش فى أثرهم من يطلب اليه طردهم وأعادتهم من حيث أتوا ، فأبى النجاشى ذلك . فـكان ذلك مشجعاً لأن تتجه إلى هذه البلاد موجة أخرى من المهاجرين بلغت أكثر من مائة وعشرين مسلماً ، رفض البهر نجش تسليمهم أيضاً . فـكان ذلك سببا فى علاقات من الصداقة والمودة بين النجاشى والنبى . الذى أرسل إليه ـ كما تذكر المصادر الإسلامية ـ كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام فاستجاب له. كما تبادلا الهدايا فى أكثر من مناسبة ،وفى السنة السابعة للهجرة ـ وقد استقر النبى فى المدينة ـ أرسل فى طلب أصحابه فاذن لهم النجاشى بالسفر فرحلوا إلى المدينة وقد انتهى النبى من غزوة خيبر فافرد لهم نصيبا من الغنيمة .

وتقول المصادر العربية أيضا أن النبى أهدى إلى (النجاشى) خفين ساذجين فارسل له (النجاشى) بغلا حبشيا وثلاث عنزات وقارورة طيب غالية الثمن . وزعها النبى على أصحابه إلا أحدى العنزات[2] فاحتفظ بها لنفسه . وكان يحملها أمامه بلال بن رباح . حتى إذا بدأ يصلى ركزها أمامه . وقد ورثها عنه خليفتاه أبو بكر ثم عمر وكانا يفعلان بها مثل ما كان يفعل النبى . ومات (النجاشى) ومازال النبى حيا . فلما سمع بذلك جمع أصحابه وصلى بهم صلاة الغائب . فكانت أول صلاة على الغائب فى الإسلام .

---

(١) أنظر (الاسلام فى اتيوبيا) للمؤلف

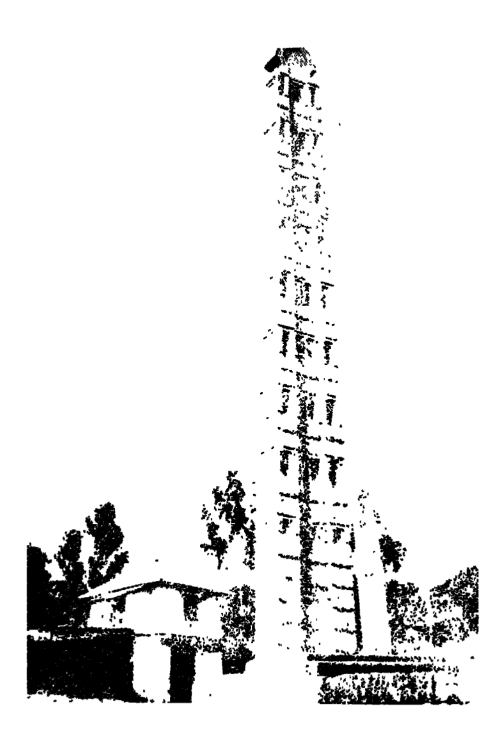
(٢) العنزه بفتح النون والزاى هى الحربة الصغيرة .



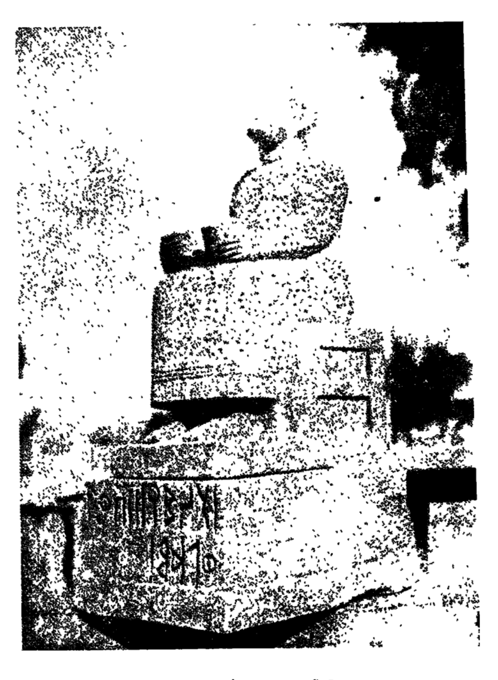
أحد شلالات النيل الأزرق (اباى) عقب خروجه من بحيرة طانا



قصة زيارة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس كما يصورها الفنان الأثيوبى
فى هيئة صورة مسلسلة على قطعة من القماش أو الجلد



مسلة اكسوم وهى تمثل بناء ذا تسع طوابق
تفصل بينها سقوف من خشب اسطوانية الشكل



تمثال حجرى لملك لم يعرف إسمه
عثر عليه اخيراً فى أزبى ديرا وعلى قاعدته كتابات سبأية

الفصل الثالث

من ظهور الإسلام حتى قيام الأسرة السليمانية

١٢٦٨ - ٦٠٠

١٢٦٨ — ٦٠٠

كان ظهور الإسلام مؤذنا بانطلاق القوة العربية ممثلة فى حركة الفتوح الكبرى . فشملت أولا شبه الجزيرة العربية ثم انطلقت إلى الدولة الفارسية فقضت عليها ثم إلى الدولة الرومانية الشرقية فسلبتها أثمن ولاياتها فى الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وتأسست الإمبراطورية الإسلامية ممثلة فى الدولتين الأموية والعباسية متعاقبتين . وامتدت هذه الإمبراطورية شرقا حتى حدود الهند كما سارت غربا حتى شمال أفريقيا وأطلت على المحيط الأطلسى . كما شملت أسبانيا .

وكان أثر هذه الإمبراطورية على أثيوبيا كبيرا رغم أنها لم تحتك بها بل لم تحاول الاحتكاك بها .

فباستيلاء المسلمين على الشام ومصر حرمت إتيوبيا المورد الذى كانت تستقى منه حضارتها وثقافتها بل وثروتها . فقد كانت كلاهما بالنسبة لإتيوبيا المنهل الذى تستمد منه مقوماتها الروحية والحضارية وليس معنى ذلك أن الكنيسة الإتيوبية لم تعد تتبع الكنيسة المصرية. بل ظلت تتبعها وما زالت تتبعها. ولكن أخذ الإضطراب يسود هذه العلاقة. فقد شغل المصريون بأنفسهم منذ أن انقطعت صلتهم الروحية بالدولة الرومانية الشرقية وزاد انقطاعهم بعد الفتح الإسلامى. وأخذ الضعف بل والانهيار يسرع إليهم كنتيجة طبيعية لهذا القطع ، بل نتيجة للظروف الداخلية التى أحاطت بهم . فكان من الطبيعى أن يكون هذا الضعف والانهيار من نصيب الكنيسة الأتيوبية أيضاً . وكان هذا المورد أيضاً مصدرا لثقافتها ، منذ أخذ فى ترجمة كثير من الكتب القبطية واليونانية إلى

اللغة الحبشية فى القرن الرابع الميلادى وما بعده . وقد كانت كل من الدولة الرومانية الشرقية ومصر مقصداً لتجارتها ومصدراً لثروتها. فلا غرابة إذا أخذت أتيوبيا تدخل بعد القرن السابع الميلادى، فى مرحلة من الضعف المادى والروحى والثقافى . ظهر أثره فى ضعف ملوكها وتناقص الساحة التى يفرضون عليها سلطانهم . ولم يكن استيلاء المسلمين على فارس باقل أثرا على إتيوبيا من استيلائهم على أملاك الدولة الرومانية الشرقية . فقد قل إقبال التجار الفرس على أسواق إتيوبيا . يلتمسون فيها ما يريدون من عروض التجارة . وأخذت مدينة عدول نتيجه هذا كله تدخل فى دور من التقهقر إذ أخذ كثير من التجار اليونانين والفرس يهجرونها كما أخذ عدد السفن التى نتردد عليها حاملة أنواع السلع يقل . ولكن فريقا آخر من التجار أخذ عددهم يزداد بل يعظم . وهؤلاء هم التجار المسلمون ومن ثم اخذ الاسلام ينتشر فى إتيوبيا وجدير بنا أن نولى بعض العناية إلى الظروف التى أدت إلى انتشار الاسلام فى إتيوبيا وكيفية هذا الانتشار ، والنتائج التى ترتبت على هذا الانتشار ، لما لها من عظيم الأثر فى تاريخ البلاد .

لاشك أن مواجهة إتيوبيا للجزيرة العربية كان أثرها المباشر منذ أقدم الأزمنة فى قيام علاقات بينهما . ولذا سكن إتيوبيا كثير منذ عصور سحيقة فى القدم من العرب الذين هاجروا إليها على موجات متتابعة بعضها صغير لم يشعر به أحد، وبعضها كبير أثار انتباه المؤرخين فسجلوه لنا . كما سكن الجزيرة العربية كثير من أهل إتيوبيا ظهروا على شكل موالى لم يكن يخلو منهم بيت عربى . وكان منهم معظم جنود مكة المرتزقة، وقد عرفوا دائماً بالأمانة والاخلاص والتفانى فى الخدمة وكان تجار العرب يستعينون بهم بكثرة فى حراسة قوافلهم، وفى حروبهم القبلية . وكان يطلق عليهم اسم العسكر تمييزاً لهم عن العرب الوطنيين . وكان رئيسهم فى العادة عربياً يطلق عليه اسم « السيد » وإليه يرجع فخر الانتصار فى

المعارك التي يخوضونها . و كان سلاحهم العنزة وهى الحربة القصيرة إذهى السلاح المفضل لديهم. وقد اختلط هؤلاء الإتيوبيون بالعرب وتزوجوا منهم وأنتجوا نسلا عربياً عرف بسواد بشرته وشجاعته . وأطلق عليه العرب اسم (غربان العرب) واشتهر من هؤلاء قبيل الإسلام عنترة العبسى .

ولا بد أن أشير إلى شخصية من هؤلاء الموالى الإتيوبيين الذين عاشوا فى الجزيرة العربية كان لها أثر كبير فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم . تلك هى شخصية ام أيمن . التى كانت جارية لعبد الله بن عبد المطلب وشهدت زواجه كما شهدت ولادة النبى بعد وفاة أبيه . ثم أرادت أمه آمنة أن تزور إخوانها فى يثرب ،فصحبتها فى الطريق ،حتى إذا ماتت آمنة قبل أن تعود إلى مكة ، أصبحت أم أيمن أما للصبى بعد أمه . فصحبته إلى دار جده عبد المطلب ،ثم إلى دار عمه أبى طالب تخدمه وتعتنى به . وكان عبد المطلب كثير الأولاد فليس هناك من عناية خاصة بمحمد بن عبد الله إلا عناية أم أيمن . كما كان أبوطالب أيضاً كثير الأولاد ضيق الرزق فكانت ،أم أيمن هى التى تلازم الصبى وتعتنى به وتضفى عليه من حنانها وعنايتها حتى شب عن الطوق . ولا بد أنها كانت كثيرة الحدب على الصبى مما جعله يحبها ويركن إليها حتى إذا كبر وأدرك ما كانت توليه من عناية قال عنها لأصحابه (ام أيمن أمى بعد أمى) وكانت نتيجة هذا أن أحب النبى (الأحباش) ومال إليهم فقال فيهم (من أدخل فى بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله فى بيته بركة) .

فلا غرابة إذا وصلت الدعوة الإسلامية إلى أتيوبيا سريعا حتى إذا اشتد اضطهاد قريش للنبى وأنصاره نصح أنصاره بالهجرة إلى (الحبشة) قائلا : (لو خرجتم إلى أرض الحبشة ،فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) .

والمصادر كلها وإن كانت صامتة عن كيفية معيشة المهاجرين المسلمين إلى (الحبشة) ، إلا أن طول إقامتهم هناك إلى مدة استطالت إلى أكثر من ستة عشر عاما وتوالى هجراتهم ، تؤكد أنهم وجدوا هناك مقاما سهلا .

وقد سبق أن ذكرنا أن العلاقات الحسنة بين النبي والنجاشى دامت ووصلت إلى حد تبادل الهدايا . حتى إذا مات النجاشى سنة تسع من الهجرة علم النبي بالخبر فدعا أصحابه وصفهم خلفه وصلى بهم عليه صلاة الغائب .

وظلت العلاقات الحسنة بين الجزيرة العربية وإتيوبيا خلال العصر الإسلامى . غير أن العرب الذين كانوا يترددون عليها أصبحوا مسلمين . واستقر بعضهم هناك وأول مسلم سمع عنه مهاجراً ومستقراً فى هذه الأجزاء هو ود بن هشام المخزومى وكان ذلك أيام عمر بن الخطاب .

ومنذ هذا الوقت أخذ الإسلام يظهر فى إتيوبيا يحمله إليها هؤلاء التجار وينتشر هناك بمقدار ما ينتشر هؤلاء التجار ويتغلغل بمقدار مايتغلغلون .

وكانت الظروف تساعد على زيادة الهجرة إلى إتيوبيا وعلى انتشار الإسلام ، لعل أهمها هذه السلسلة من الأحداث المتعاقبة التى حدثت فى الدولة الإسلامية سواء كانت أحداثا سياسية أو اقتصادية .

فالشيعيون الذين كانوا يمنون أنفسهم بارتقاء الخلافة ، رأوا فى تولى على ابن أبو طالب لها بوادر هذا الأمل ، ولكنهم ما كادوا يهنأون به حتى قام الأمويون يحولون بينهم وبين هذا الأمل الذى ينشدونه . فصبروا حتى يأتى يوم يشعر فيه المسلمون بحقهم ، ولكنهم رأوا آمالهم قد أنهارت إلى غير رجعة حين تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه . هنا طاشت أحلامهم ورأوا فى الانتظار هدما كاملا لا مالهم . فقاموا بزعامة الحسين بن على بن أبى طالب مطالبين بحقهم مناضلين دونه ، بينما رأى الأمويون فى قيام هذه الفئة إضعافا لهيبتهم

ومحاولة لإخراج الأمر من يدهم بعد أن تعبوا فى الحصول عليه ، وبذلوا فيه ما بذلوا. فقابلوا خروج العلويين بشدة ما بعدها شدة . وعنف ليس بعده عنف ولم يراعوا مكانة الحسين من المسلمين ولا قرابته للنبى .

وإذا كانت معركة كربلاء قد أسلمت الأمر للأمويين ، إلا أنها أشاعت فى أنحاء الدولة الإسلامية شعوراً بالفزع والهلع . فأيقنت القبائل العربية وخاصة المعارضة للأمويين منها ، أن لا سبيل إلى الحياة الحرة الأبية تحت ظل الدولة الأموية . كما أيقن الطالبيون أن أية محاولة جديدة لن تزيدهم إلا فناء ، فأخذوا يتفرقون فى البلاد ويمعنون فى الهرب والاختفاء ، وقصدت جماعات منهم إلى حيث لا تمتد أيدى الخلفاء (الظالمين) ، فقصدوا شواطىء أفريقيا الشرقية . تتبعهم جنود الدولة الأموية التى جعلت همها أن تراقبهم مراقبة دقيقة فاستولت على مجموعة جزر الدهلك المواجهة لثغر عدول لتتمكن من ذلك على أتم وجه .

ولم يكد يزيد بن معاوية يستريح من ثورة الشيعة تتابعه نقمة المسلمين عامة والشيعة خاصة ، حتى خرج عليه الحجاز . فلم يكن العنف الذى قابل به الثورة الجديدة ، بأقل من العنف الذى قابل به الثورة الأولى ، فأرسل إليهم مسلمة بن عقبة ففعل فى المدينة ما لا يفعله مسلم ، فقتل أغلب من بقى من المهاجرين والأنصار وانتهكت حرمة المدينة وانتهبت وافتضت فيها ألف عذراء على ما يقول الطبرى ، واصطبغت عداوة الحجاز بالدم ، كما اصطبغت عداوة العراق من قبل .

ولم ينم الحجاز على الضيم فخرج للمرة الثانية على الأمويين وبايع عبد الله بن الزبير . وظلت ثورته فى الحجاز تسع سنوات . يناضل فيها الأمويين ويتغلب ، عليهم حتى حصره بمكة الحجاج بن يوسف الثقفى وقتله سنة ٧٣ هـ فلا عجب أن فر أهل الحجاز لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية . ومنذ هذا اليوم

لم يلق الحجاز من الأمويين إلا كل إهمال فكانوا لا يرمونهم إلا بكل طاغية يمعن فى إذلال القوم والتنكيل بهم .

وفى سنة ١٣٢ هـ جاء دور الأمويين ليشربوا من الكأس التى طالما سقوا منها الآخرين . ففر مروان الثانى إلى مصر فدخلها لثمان بقين من شوال. فوجد أهل الحوف الشرقى قد سودوا (١) ،فعبر إلى الجيزة ومعه حاشيته من أمرائه وأقاربه فلقيه صالح بن على والى مصر من قبل العباسيين ببوصير ، فقاتله حتى هزمه ، وقتله فهرب ومن معه إلى الصعيد وأوغلوا فى الهرب جنوباً حتى وصلوا النوبة حيث استقر بعضهم وذهب آخرون إلى مصوع .

ولم يكد العباسيون يفرغون من بنى أمية ، حتى التفتوا إلى الشيعة الذين أفاقوا إلى ماوقع منهم من غفلة . فقاموا ينازعون العباسيين واستمر النزاع بين العلويين والعباسيين طوال العصر العباسى . فكلما قام عباسى بالأمر قام علوى ينازعه ويدعو لنفسه ويقاتل ويقتل . فكانت هذه الثورات المتعاقبة التى شغلت التاريخ الإسلامى حتى القرن الرابع الهجرى ، مورداً لا ينضب لأفراد مهزومين يهاجرون إلى البلاد البعيدة . وإتيوبيا بموقعها الجغرافى . وخصبها واعتدال مناخها ووفرة مواردها سواء للراغبين فى الزراعة أو الرعى أو التجارة فيها ولا شك إغراء كبير على أن تقصدها أعداد كبيرة من هؤلاء الفارين .

إلى جانب هذه الأحداث السياسية العنيفة، كانت هناك أحداث أخرى وإن كانت لاتمت إلى السياسة ولا إلى العنف بصلة إلا أنها لاتقل أثراً فى توجيه العرب والمسلمين وجهات معينة . فقد ظهر فى الدولة الإسلامية منذ أيام أبى بكر طبقة من الارستقراطية التى أثرت ، مما كان يصيب أفرادها من غنائم

(١) أي انضموا الى العباسيين . وكان السواد شعارهم .

وأسلاب فى الحروب الكثيرة التى قامت بها الدوله الإسلامية . كما أثروا من التجارة . كما كانت لهم مكانة عظيمة فى نفوس المسلمين لقربهم من النبى . ومن رجال السلطة بالمدينة . فأمسكهم عمر ولم يأذن لهم أن يتفرقوا فى الأرض خوفا على المسلمين أن يفتنوا بهم . وخوفا منهم أن يتدخلوا فيسيئون استعمال سلطتهم فيما يعود عليهم بالنفع وعلى غيرهم بالضرر . فلما تولى عثمان . أفسح لهم الطريق كما وصلهم بالصلات الضخمة من بيت مال المسلمين .فنقم على ذلك فريق من المسلمين منهم أبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر . ولكن مانزل بأبى ذر من نفى إلى الربذة ، أوقع الرعب فى قلوب أصحابه ومن يأخذون برأيه . فلم يكن أمامهم إلا أمران. إما أن يسكتوا على الضيم ،أو يهاجروا إلى حيث يحاولون ولوج باب الثروة، وكانت إتيوبيا إحدى ميادينها . ومن هؤلاء عمار بن ياسر الذى غضبت له مخزوم حينما أراد عثمان أن يلحقه بأبى ذر . ومخزوم ناقمة منذ أيام عمر ، وخرج منها فريق إلى (الحبشة) برئاسة ود بن هشام المخزومى كما ذكرنا .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى التاريخ الإسلامى فقد امتلأت الكتب بأخبار الهبات التى كان يسبغها الخلفاء والوزراء على أعوانهم مما كان يبعث الرضى إلى نفوس قلة من الناس، ويبعث السخط فى نفوس كثيرين . فكانت هذه الثروات الضخمة التى أصابت قلة من المسلمين فارضتهم ،وهذا الحرمان الذى أصاب كثيره فأسخطهم ، سبباً فى ولوج الآخرين باب المخاطرة طلباً للثروة من أصعب وجوهها وهو الهجرة إلى البلاد البعيدة طلبا للجاه والغنى .

وكان من الطبيعى أن يعمل هؤلاء النازحون فيما يدر عليهم الثروة، فكانت التجارة أكثر هذه الأعمال إدراراً للربح . فقد احتكروا تجارة المياه الجنوبية . فكانت سفنهم تجوب هذه البحار لتنقل مواد البلاد التى تحيط بها . فكانت المراكب الهندية الضخمة تحمل منتجات شرق أفريقيا والهند وسيلان وفارس إلى عدن . وتتولى سفن هؤلاء العرب نقلها إلى بلاد البحر الأحمر فما لبثوا أن

أصبحو ثراة ، بما يملكون من السفن والمال والرجال والسلاح ما مكنهم من فرض قوتهم أينما ساروا . على أن أكثر أنواع التجارة إدراراً للربح كانت تجارة الرقيق يتصيدونه من إتيوبيا والسودان ليحملوه إلى حيث الأسواق التى تتطلبه فى الحجاز وبغداد والقاهرة بل والصين أيضاً وغيرها من عواصم الدول من أجل تكوين الجيوش المحاربة ، كما اشتغل منهم كثيرون بالقرصنة يغيرون على السفن يسلبونها ما تحمل . وكان التجار غالباً ما يتفقون معهم على مكوس سنوية معينة يدفعونها لهم فى أوقات معلومة ، نظير أن يكفلوا لهم السلامة فى الحل والترحال. وقد سهلت لهم وحدة العقيدة بينهم وبين التجار أمر الاتفاق على هذا الجعل المعلوم .

فهذه المناسبات المختلفة كانت سبباً فى كثرة هجرة المسلمين إلى إتيوبيا واستقرارهم فيها .

إذا أضفنا إلى هذا العامل، عاملا آخر هو ضعف ملوك أكسوم عن أن يفرضوا قوتهم على الأجزاء المختلفة لدولتهم ، وعن أن يهبوا حمايتهم على رعاياهم إزاء هجمات تجار الرقيق الذين أكثروا من الإغارة عليهم ، أمكننا أن نتصور كيف لجأ الإتيوبيون إلى التجار المسلمين يطلبون منهم الحماية ، وكيف قدموا إليهم بناتهم ليصهروا إليهم ليستمدوا من هذه المصاهرة وسيلة لأمنهم .

وإذا أضفنا إلى هـــذه العوامل عاملا ثالثاً أيضاً ، هو ضعف الكنيسة المصرية فى ذلك الوقت مما أدى إلى ضعف الكنيسة الإتيوبية وعجزها عن رعاية الشعب حق الرعاية ، وعجزها من مباشرة شؤون رعاياها الدينية ، أمكننا أن نتصور الفراغ الذى عاش فيه الشعب الإتيوبى والذى أتاح للاسلام أن ينتشر هناك . وخاصة سكان المناطق الشرقية وقد أهلت القوة التى أتيحت للمسلمين أن يقيموا هناك دولة إسلامية فى القرن الثـــالث الهجرى أو التاسع الميلادى هى دولة شوا الإسلامية .

وتنسب المصادر ملوك هذه الدولة لىإ ود بن هشام المخزومى الذى ذكرنا أنه خرج من الحجاز مع قبيلته أيام عمر بن الخطاب .

ونحن لا نعرف لماذا خرجت مخزوم من الحجاز. ولكننا نعرف فى نفس الوقت أن عمر بن الخطاب كان يكره خالد بن الوليد المخزومى ، ويحقد عليه لمعارضته فى انتخاب أبى بكر حتى لقد تردد فى مبايعته شهرين لأنه نظر إلى الخلافة على أنها صراع بين القبائل المختلفة من أجل السلطة ، فازت بها قريش دون وجه حق . مما جعل عمر يسرع إلى عزل خالد من رئاسة الجيش فى الساعة التى تولى فيها الخلافة ، كما حاسبه على ما معه من الأموال بمجرد انتهائه من غزو فارس . وكانت مخزوم تفخر بخالد ، فهو سيف الله المسلول والقائد الذى لم يقهر .

كل ذلك يعلل معارضة مخزوم لحكم عمر، وإسراعها بالهجرة من الجزيرة العربية إلى إتيوبيا .

ولا ندرى كيف قامت هـــذه الدولة ولكننا لا نستبعد أن يلتف أفراد القبيلة حول زعيمهم ليقيموا منه رئيسا يرجعون اليه فى حل مشاكلهم كما كانوا يفعلون فى شبه الجزيرة ، حتى إذا أتيحت لهم الثروة والعزة ، انقلبت هذه الرئاسة الى ملك على نحو مافعل الأمويون . وكان بعد مقامهم فى شوا عن أكسوم وسلطة ملوكها، هو الذى أتاح لهم هذه الفرصة. ولا يلبث هذا الأمير أو السلطان أن يصبح كالمغناطيس الذى يجـــذب اليه المسلمين من جميع أنحاء إتيوبيا يلتمسون عنده الأمان والحماية . بل أن يلجـــأ اليه المسيحيون أيضاً يلتمسون لديه ما يلتمس المسلمون .

وقد حكمت هذه الدولة شوا فى الفترة التى تقع بين سنتى (٢٨٣—٢٨٨ هـ) (٨٨٤ — ٢٨٨ م) ولابد أن طول هذه المدة كان دليلا على قوتها مما يدعونا إلى اعتقاد استقلالها عن سلطة ملوك أكسوم . وإن كان هـذا لا يمنع من قيام صداقة بينهما . على أن المصادر تحدثنا أن ملوك هذه الدولة الإسلامية كثيراً ما كانوا يلجأون إلى ملوك أكسوم طلبا لحمايتهم فى حالة حدوث صراع بين

أكثر من منافس على العرش، وكانت هذه الحماية تنتهى إلى مساعدة ملوك أكسوم للملوك المسلمين فى العودة إلى العرش، مما يجعلنا نعتقد أن ملوك هذه الدولة الإسلامية ربما كانوا يرتبطون مع ملوك أكسوم بنوع من الولاء وإن كان إسمياً أكثر منه فعليا.

ولكن قيام هذه الدولة لا يمنع من أن ينزل مسلمون آخرون فى أجزاء أخرى من إتيوبيا خاضعين لأمراء إتيوبيين تابعين لملك إتيوبيا وهو الذى يتولى تعيينهم وعزلهم. فقد حدثنا المؤرخون وأولهم ابن فضل الله العمرى عن وجود سبع سلطنات اسلامية أخرى فى شرق إتيوبيا يحكمها من قبل ملك أكسوم حكام مسيحيون، هى إيفات ودوارو وارابنى وهديه وشرخا وبالى وداره وكان أهل الأولى شافعية المذهب يشتغلون بالتجارة ومن بلادها زيلع وكان (ملكها) يجلس على كرسى ويركب بالطبل والزمر، كما كانت هدية أكثر الجميع عسكرا ويقدر عددهم بأربعين الف فارس سوى المشاة الذين يبلغون ضعف هذا العدد، وسكانها أنشط سكان الساحل فى تجارة الرقيق، وكان ملك أكسوم يحاول دائما منع هذه التجارة بالتضييق على التجار ومنعهم من خصيهم فكانوا يقصدون قرية اسمها وشلو أهلها من الهمج الذين لا دين لهم، حيث يخصون العبيد ثم يحملونهم إلى هديه.

وكانت هذه الولايات تدفع الضرائب السنوية المفروضة عليهم وبذلك إلى ملوك إتيوبيا تمتعت بنوع من الاستقلال الادارى، وأخذ هذا الاستقلال يؤتى ثماره وكانت عوامله متاحة لهم. أما الثروة فكانت ملك أيديهم بعد أن أصبحوا سادة البحار الجنوبية والبحر الأحمر، وتدفقت الأموال إلى خزائنهم، كما كان لهم التفوق الحربى حتى لقد كانوا يتدخلون فى كثير من الأحيان فى سياسة اليمن الداخلية ويكونون سببا فى إسقاط حكم وإقامة آخر. أما الثقافة فكانت أيضا تذخر بالمساجد والمدارس، كما كان أهل هذه الولايات بحكم اشتغالهم بالتجارة كثيرى السفر إلى مصر واليمن والهند وكانت هذه كلها مراكز لثقافات نامية مزدهرة.

وكان أثر هذه الدولة الإسلامية التى قامت فى شوا ، والتى شغلت مساحة كبيرة فى شرق البلاد ،وكذلك هذه السلطنات الإسلامية التى شغلت مساحة كبيرة أخرىأن كوّن للسلمون شريطاً ساحليا وقف بين الإتيوبيين والساحل الشرقى فحرمهم الاتصال بالخارج إلاعن طريق العرب وبواسطتهم ،ولم يكن هذا الانقطاع عن العالم الخارجى عارضاً أو موقتاً بل استمر باستمرار هذه الدولة الاسلامية والسلطنات الإسلامية الأخرى .

وإذا تذكرنا ماقلناه من قبل من أن الاتصال بالعالم الخارجى هو سبيل القوة والمنعة لإتيوبيا وأن الانقطاع هو سبيل الضعف ، أدركنا مقدار الضعف الذى أصاب السلطة المركزية فى إتيوبيا والذى بدأ ضئيلا فى أول أمره . ولكنه أخذ يزداد حتى أتى على كل قوتها .

وقد انتهى بها هذا الضعف إلى نتيجته الطبيعية فقد قامت أسرة من مقاطعة لاستا التى تقع شرقى بحيرة طانا ، واستطاعت بعد مجهود حربى لا نستطيع أن نحكم على مقداره لضآلة ماوصلنا من أخباره ،أن تسقط البيت الأكسومى وتستولى على مقاليد السلطة فى منتصف القرن العاشر الميلادى.وعلى هذا النحو قامت أسرة أجوا .

ولم تكن دعوى هذه الأسرة فى حقها فى العرش الإتيوبى تقل وجاهة عن دعوى الأسرة السابقة فى حقها فى هذا العرش . فاذا كانت الأسرة السابقة تستند فى أحقيتها عن غيرها فى العرش الإتيوبى على تسلسل ملوكها من منليك الأول بن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس ، فان الأسرة الثانية استندت على نفس الحق . وهو أن سليمان قد أنجب ولدين أحدهما من الملكة والآخر من وصيفتها ورئيسة حرسها . وهم نسل هذا الأخير ، ولذا استطاعت هذه الأسرة الجديدة أن تحتفظ بالعرش قرابة ثلاثة قرون ونصف ، تداول العرش فى أثنائها اثنان وثلاثون ملكا(١).

---

(١) انظر (قصة ملكة سبأ) للمؤلف

وكان أول من جلس على العرش من ملوك هذه الأسرة هى الملكة جوديت ، وتقول الأساطير أنها كانت يهودية الديانة . قطعت علاقتها الدينية بمصر . وأرادت أن تبسط ديانتها فخربت الكنائس واضطهدت رجال الدين المسيحيين وقتلت كثيرين منهم ، ففر الباقون وخلعوا ملابسهم الكهنوتية واختفوا ، فخربت الأديرة ونهب ما كان فيها من مخطوطات ثمينة تعب الرهبان فى كتابتها ونقلها من القبطية واليونانية . وهناك تعليل لهذا الاتجاه . وهو أن هذه الأسرة الجديدة لم تكن يهودية الديانة ، بل أنها استعانت فى سبيل نجاح دعوتها بفريق كبير من قبائل الاجوا الحامية الأصل والتى كانت لاتزال تحتفظ بديانتها اليهودية القديمة ، فانضموا اليها انتقاما لعقيدتهم القديمة ، وانتقاما لسلطتهم التى ولت والتى غلبهم عليها القادمون الساميون على نحو ما أنضم الفارسيون إلى الدولة العباسية انتقاما لديانتهم القديمة ولدولتهم التى قضت الدولة الإسلامية عليها. فاذا ما نجحت فى القضاء على الدولة السليمانية أمعنت فى تخريب الكنائس والأديرة والقضاء على الكهنة والرهبان . ونهب الكتب وحرقها وإتلافها .ولم تكن هذه سياسة الأسرة ،لأن الملكة الأولى لم تكد تودع هذه الدنيا، بعد أن حكمت أربعين سنة (٩٤٠ ـ ٩٨٠) حتى عمل خليفتها تكلاهيمانوت (٩٨٠ـ٩٩٥) على إعادة الحال، إلى ما كان عليه ، فرد إلى الكنائس والأديرة حريتها وأرسل إلى مصر يطلب عودة العلاقات الدينية بين الكنيستين إلى ما كانت عليه، ويسأل إعادة تعيين المطران المصرى كى يكون رأساً للكنيسة الإتيوبية. وكانت هذه الوفادة عن طريق ملك النوبة المسيحى المسمى زكريا . فقدم الأنبا دانيال واستقبل حين وصل إلى لاستا استقبالا وديا بل حماسيا [1] .

وإذا كان كبرانجست قد احتفظ بأسماء ملوك هذه الأسرة ، فإنه لم يحفظ لأحد منهم ذكراً سوى سابعهم المسمى لاليبالا الذى اتخذ لنفسه حين اعتلى العرش اسم جبراما سقال (معناها خاتم الصليب) وكان معاصراً للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

(١) انظر (كنيسة الاسكندرية فى أفريقا) للمؤلف

وأثر عنه حبه للسلام ورغبته فى تقدم شعبه، كما أثر عنه اهتمامه برجال الدين وتعمير الأديرة والكنائس، حتى لقد أمر ببناء عشر كنائس فى أنحاء مختلفة من البلاد، مازال بعضها باقياً حتى الآن . فلا غرابة إذا أحبه الإتيوبيون وأطلقوا عليه اسم سليمان الثانى ورفعوه بعد موته إلى مرتبة القديسين ، وألفوا حوله كثيراً من القصص والمعجزات التى أنها قيل حدثت له ،سواء قبل ولادته أو أثناء حياته أو بعد موته .

وكان ما لقيه المسيحيون فى مصر أيام الحاكم من اضطهاد وسوء معاملة، مشجعاً للكثيرين منهم على الهجرة من البلاد لاسيما وقد سمح لهم الحاكم بأمر الله بها، فقصد كثيرون منهم إلى أقصى الصعيد حيث استقروا فى إقليم أسوان ، وأمعن بعضهم فى السير جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة . واستقروا هناك أيضا . وازداد بعضهم إمعانا فى الهجرة فقصدوا إتيوبيا . وكان بينهم كثيرون من العمال المهرة وبذلك كان هذا الاضطهاد سببا فى خراب البلاد الاقتصادى وفقدها كثيراً من الأيدى العاملة التى استعان بها لاليبالا فى إقامة كثير من مبانيه ومنشآته . فكانوا سببا فى ازدهار الصناعات والحرف والفنون لاسيا فن البناء . وما زالت بعض كنائس لاليبالا باقية حتى الآن فى أكسوم وهى محفورة فى صخور الهضبة (انظر شكل ٨) تشهد ببراعة المصريين فى هذا الفن الذى ورثوه عن أجدادهم، يوم كانوا يحفرون معابدهم ومقابرهم فى الصخور ، ومن الطبيعى أن يتصاهر هؤلاء القادمون مع الإتيوبيين فتزوجوا منهم وما زال سكان الهضبة الوسطى فى إتيوبيا يحتفظون بدمائهم المصرية التى تظهر على ملامحهم .

ولم تكن قوة أسرة الأجويين ، رغم استمرار حكمها لمدة ثلاثة قرون ونصف، لتزيد كثيراً عن قوة المتأخرين من ملوك الأسرة السابقة فلم تمتد سلطتهم إلى أكثر من هضبة لاستا وما حولها . ولكن رغم ذلك تسلل نفوذ هذه الأسرة شرقا عبر الصحراء الشرقية وعبر مملكة شوا الإسلامية فامتد إلى الممالك

الإسلامية التى تقع فى الركن الجنوبى الشرقى من الهضبة والتى قلنا أنها كانت سبع سلطنات تولى عليها الدولة سلاطين من المسيحيين ولكن هذه السلطة لم يكن لها من مظهر سوى تعيين هؤلاء السلاطين دون نفوذ حقيقى عليهم .

هذا فى الوقت الذى ظلت فية هضبة جودچام والركن الجنوبى الغربى من الهضبة خارجتين تماما عن سلطتها وهى الأجزاء التى يدعى ملوك الأسرة السليمانية السابقة والتى قامت بعد ذلك فى القرن الثالث عشر، أنهم كانوا يحكمونها بعيدين عن سلطة ملوك لاستا . إذ يقولون أن أحد أمرائهم قد تمكن أن يفر من المذبحة التى شنها عليهم ملوك لاستا وفر إلى هناك (جودچام) حيث استقبله الأهالى واعترفوا به ومكنوه هو ونسله من بعده أن يحكم مدة الثلاثة قرون التى عاشتها الأسرة الأجوية فى لاستا حتى أتيحت له الظروف التى تمكن فيها من أن يظهر ويقضى على أسرة لاستا .

الفصل الرابع

الأسرة السليمانية

كان ضعف الأسرة الأجوية وعجز ملوكها عن نشر نفوذهم لأكثر من الهضبة الشرقية حيث عاصمتهم لاستا ، والولايات الإسلامية الشرقية ، التى كانت تعترف لهم بالسلطة لقاء ما يدفعونه من جزية فرصة للطامعين . فظهر فى شوا من يدعى يكونو أملاك مدعيا نسبا إلى الأسرة القديمة ليحاول استرداد العرش. ويقول أنصار هذه الأسرة أن الأسرة السليمانية القديمة قد هربت أمام الأسرة الأجوية واستقرت فى شوا. لا تحاول أن تلفت اليها النظر وإن كان رؤساء الأسرة يتداولون رئاستها، محافظين على تسلسلها حتى إذا سنحت الفرصة الملائمة انتهزها أحدهم وهو يكونو أملاك ليعلن نفسه ملكا مستعيد بذلك السلطة القديمة

وكان يكونو أملاك قد استعد لهذا اليوم وأعد له عدته وكانت هذه العدة تنحصر فى : —

أولاً : تقربه إلى رجال الدين بعد أن أظهر لهم مافعله الملوك المتأخرون من الأسرة الأجوبة من إهمالها الصلة بين الكنيسة الإتيوبية والكنيسة المصرية حتى انقطعت منذ أكثر من أربعين سنة . فإعادة الأسرة القديمة إلى مكانها من العرش الاتيوبى هو الوسيلة لإعادة هذه الصلة . فكانت نتيجة هذا التقرب أن عقد يكونو أملاك مع تكلا هيمانوت رئيس رهبان دير دبرا ليبانوس اتفاقا يتلخص فى وعد يكونو أملاك باعادة العلاقات الدينية مع كنيسة مصر ، والعمل على استدعاء مطران مصرى يقوم بتتويجه اعترافا منه بسلطة الكنيسة عليه . وأن يقدم هبة للكنيسة هى ثلث أراضى الدولة لتتمكن بدخلها من اداء رسالتها على أتم وجه وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيساً للرهبان الإتيوبيين ويطلق عليه لقب (اتشيجى) على أن يكون هذا المنصب وقفا على

رئيس دير دبراليبانوس . ويكون مرة وصل بين المطران المصرى والا كليروس الإتيوبى . كل ذلك لقاء أن يقوم تكلا هيمانتو ببث الدعاية لهذه القضية بين رجال الدين ، فينصرونه . وإذا اقتضى الأمر يساعدونه على تهيئة الرأى العام الإتيوبى لقبول دعوته والوقوف فى صفه . وتقول سيرة القديس تكلاهيمانوت أنه تمكن من أن يتصل بآخر ملوك الاجويين المسمى نكويتا لأب فى لاستا ، ويقنعه بالتنازل عن العرش لأصحابه الأصليين ، ويبدو أن هذا الاقناع لم يتم إلا بعد أن اتخذ طابع التهديد ، لأنه استطاع أن يجند من أهالى ست ولايات فى شمال إتيوبيا جيشا وقف إلى جانبه حتى حصل على هذا التنازل .

وتقول شروط هذا التنازل أن يحتفظ ملوك الاجويين بولاية لاستا ، وأن يكون لهم عرش ذهبى كعرش الامبراطور ، وأن تكون لهم طبول محلاة بالفضة . وأن تكون لهم شارات ملكية مصنوعة من الفضة أيضاً .

ثانيا : ويبدو أن هذه الوسيلة السلمية لم تكن كافية ، لأن يكونو أملاك اتفق مع من يدعى عمر لسمع الذى هو أحد كبار التجار المسلمين فى ايفات ، على أن يمده هذا الأخير بجيوش مسلحة كاملة العدة ، لقاء أن يطلق لعمر ولسمع حريه الاغارة على شوا الاسلامية ليسقط بيتها المالك ويضم شوا إلى ايفات . وينصب نفسه سلطانا عليها ، على أن يكون تابعا للامبراطور ويملك حرية التصرف فى الولايات الاسلامية كلها فيكون بذلك أول وال مسلم يلى هذه السلطنات الشرقية .

وبدأ عمر ولسمع العمل فعلا ، بان قدم الجيوش الإسلامية المدربة ليستعين بها يكونو أملاك . وعمل هو من ناحية أخرى على القضاء على مملكة شوا . التى كان قد تسرب إليها الضعف والوهن ، وأخذ أمراؤها يتنافسون على عرشها ، ويتداوله كل واحد منهم لفترة من الزمن . فبدأ عمر ولسمع بأن قدم إحدى بناته زوجة لدلماره أحد الأمراء المتنافسين على العرش . ونصره بالجيوش حتى جلس على

العرش ،ولـكن لم يلبث هذا أن قتل . فلم يكن ذلك ليثنيه عن أن يدفع بغيره إلى الثورة ، وكثر الثائرون وتقاتلوا وكانت الظروف تساعد على ذلك .

وتداول عرش هذه المملـكة خلال المدة البسيطة التى وصلتنا أخبارها أربع أسرات ، ما كانت واحدة منها تهنأ به وتنصرف إلى ما فيه مصلحتها أو مصلحة الشعب، إلا لتقوم عليها إحدى الأسرات الأخرى. هذا فى الوقت الذى كان يهددها فيه من الخارج سلطان ايفات ويغزوها المرة تلو الأخرى . حتى استطاع أخيرا أن يقضى على استقلالها ويضمها إلى بلاده .

كان على عرشها سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤) عبد الله المخزومى حين ثار عليه من يدعى عبد الله بن محمد بن حسين ،وقبض عليه وسجنه واغتصب منه العرش ثمانية عشر عاماً. وأورثه لابنه مالزره سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) فثار عليه السلطان جنبه واستولى على العرش، ولم يمض على جلوسه عام واحد ، وقد استطاع هذا الأخير أن يقبض على ناصية الحـال ويورث العرش للسلطان جيرام غازى . ولـكن يبدو أن هذا الأخير كان ضعيفاً إذ ثار عليه كثيرون منهم أخوه دجامس ونجحت ثورته إلى حد ما . ولـكن لم يهنأ بثورته ، إذ ثار عليه صاحب موره الذى بلغت ثورته حدا اضطر الأمراء والوزراء معها إلى الهرب من العاصمة . كما ثار عليه صاحب جداية وصاحب دجين وهى كلها أقاليم تقع فى الشرق من دولة شوا وتجاور إقليم ايفات .

وما كاد السلطان جيرام غازى يفرغ من ثورتهم حتى كانت قوته قد انهكت، واستطاع دلماره ابن مالزرة السلطان السابق الذى ورث العرش من عبدالله بن محمد ابن حسين، الذى ذكرنا من قبل أنه كان زوجا لابنة عمر ولسمع ،أن يستولى على العرش فى صفر سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) فهرب دجامس وأثار البلاد على هذا السلطان، فاستعان ابن دلماره بجده عمر ولسمع سلطان ايفات فقدم إلى شوا وحرق

العاصمة فى صفر سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م)، ثم أخذ بعد ذلك يبذل المال يساعد به الناقمين أو الطامعين ، وامتدت هذه المساعدة المالية إلى المساعدة الحربية ، حتى إذا وجد أن الكثرى قد نضجت، لم يتردد فى الدخول إلى الميدان صراحة . فأرسل الجيوش بقيادة ولديه على ثم صبر الدين ، بحجة مساعدة صهره دلارة ، فدخلها وأحرق عاصمتها . ولكن منافساً جديداً هو دجامس نجح فى عزل دلارة وجلس على العرش للمرة الثانية فى شوال سنة ٦٧٧ هـ وهرب دلاره إلى صديقه إمبراطور أتيوبيا يطلب مساعدته ، فأمر هذا تابعه عمر ولسمع أن يسير لذلك فسار إلى شوا واقتطع أجزاءها الشرقية . ولم يمنعه موت دلارة صهره وصاحب الحق الشرعى فى سنة ٦٨٢ هـ من إتمام الفتح الذى استغرق ست سنوات وانتهى بعزل دجامس وانتهاء حكم أسرته فى شوا وضمها نهائياً إلى ايفات سنة ٦٨٨ هـ .

وقبل أن يجلس عمر ولسمع على عرش شوا كان يكونو أملاك قد نجح فى القضاء على أسرة أجوا بالوسائل السلمية حينا والحربية حينا آخر حتى جلس على عرش إتيوبيا ونقل عاصمته إلى تاجيلاط فى وسط إقليم شوا حيث عشيرته وكان ذلك سنة ١٢٧٠ م . وتصر المصادر الأتيوبية على أن تطلق على يكونو أملاك اسم مجدد الأسرة السليمانية .

وإذا كان عمر ولسمع قد كوفىء بعرش ايفات بعد أن ضم إليها شوا، فقد كوفىء تكلاهيما فوت بلقب اتشيجى وثلث اراضى الدولة . بل رفعته الأسرة السليمانية إلى مرتبة القديسين وألفت فى حياته كتابا ضخما ذكر فيه أنه من نسل صادوق الكاهن الذى أرسله سليمان ملك بيت المقدس مع ابنه منليك الأول ليكون كاهن مملكته الجديدة . والقديس تكلا هيمانوت هو القديس الوحيد الذى وافقت الكنيسة المصرية على أن تضع اسمه ضمن القديسين الذين تعترف بهم الكنيسه المصرية .

وصرف يكونو أملاك ما تبقى له من العمر فى تثبيت قواعد دولته. بالقضاء على المنافسين، وبذل المساعدة لعمر ولسمع للقضاء عل شوا الإسلامية ولذا طارت شهرته إلى العالم الإسلامى وخاصة مصر بأنه (حارب المسلمين) كما عمل على إعادة العلاقات الدينية مع مصر ، وإذا كان قد نجح فى غرضيه الأولين تثبيت قواعد دولته والقضاء على دولة شوا الإسلامية إلا أنه فشل فى الوصول إلى غرضه الثالث وهو إعادة العلاقات الدينية مع مصر. فكاد الأمر أن ينقلب عليه بسبب هذا الفشل لولا أن توفى وأسرع ابنه يجبيا صيون ليكمل هذا السعى حتى نجح فيه . وتفصيل ذلك أن يكونو أملاك أرسل إلى مصر يطلب تنصيب مطران مصرى .

ويبدو أن يكونو أملاك حين أرسل إلى مصر يطلب مطراناً ، لم يكن واثقا من إجابة طلبه فقد اكتفى الوفد بالسفر إلى اليمن وأرسل ما كان معه من كتب كانت مكتوبة باللغة العربية إلى كل من البطريرك والسلطان الظاهر بيبرس، مع رسول خاص إلى القاهرة .وكانت غزوات عمر ولسمع لشوا مستعينا بالجيوش الإمبراطوريه قد وصلت إلى القاهرة وفسروها ـ تحت تأثير من قدموا من شوا إلى مصر يطلبون معونتها ـ على أنها هجوم من يكونو أملاك على المسلمين. كما أن الوفد لم يحمل معه الهدايا المعتادة بل وعد بارسالها فى حالة إجابته إلى طلبه، فرفض السلطان بيبرس السماح للبطريرك بتنصيب المطران. وكان هذا الفشل سببا فى تعقد الأمور فى أثيوبيا. ويبدو أن التعقيد وصل إلى حد التهديد بالخروج من طاعة الإمبراطور وربما اشترك رجال الدين الوطنيون فى هذا التهديد بعد أن رأوا يكونوا أملاك يخل بوعده الذى أعطاه للقديس تكلا هيمانوت، فلم يجد يكونو أملاك بداً من البحث عن مخرج له من هذه الأزمة .فوجده فى اللجوء إلى بطريرك انطاكية السريانى يسأله تعيين مطران .وقد لجأ يكونو أملاك إلى هذا البطريرك بالذات لأن كنيسة

انطاكية تتفق مع كنيسة مصر فى العقيدة . منذ أن اختلفت مع غـيرها من الـكنائس فى القرن الخامس .

وكانت الجفوة قد حدثت فى هذا الوقت بين كل من بطريرك الاسكندرية الأنبا كيرلس الثالث وبين بطريرك السريان. إذ كان الأول قد عين مطرانا مصرياً لرعاية المصريين الذين يقطنون بيت المقدس، وكان تنصيب المطران على هذه المدينة من اختصاص بطريرك أنطاكية . فإذا ما لجأ يكونو أملاك إلى بطريرك أنطاكية السريانى يسأله تعيين مطران لأنيوبيا بادر بإجابة الطلب حيث وجدها فرصة يرد بها اعتداء بطريرك الاسكندرية عليه . وما أن وصل المطران الجديد حتى أسرع يكونو أملاك يطلب منه تتويجه . وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى اختلفت فيها بطريركية الإسكندرية مع بطريركية أنطاكية .

ولـكن سير الأمور على هذا النحو لم يرض الأتيوبيين المتمسكين بأبيهم بطريرك الإسكندرية . ولا الأكليروس الذى كان يكونو أملاك قد اتفق معه على إعادة العلاقات الدينية مع مصر، كشرط من شروط نصرتهم له. كما يبدو أيضاً أن هذا المطران السريانى لم يرع الأمانة حق الرعاية إذ أسرع بجمع المـال ويختزنه لنفسه ، مما زد فى غضب الأتيوبيين . فما أن مات يكونو أملاك حتى أسرع ولده يجبيا صيون يرسل وفداً جديداً إلى القاهرة برئاسة رجل مسلم . هو عبد الله بن يوسف ، كى يكون ذلك أدعى إلى سهولة تفاهمه مع ولاة الأمور فيها، وحمله خطابين وهدايا كثيرة . وكان أحد الخطابين موجهاً إلى السلطان قلاوون يسأله أن يسمح للبطريرك بتنصيب مطران ، وكان الثانى موجهاً إلى البطريرك المصرى يؤنس الثامن يسأله الصفح عن الهفوة التى ارتـكبها أبوه . ويتذلل إليه كى يرضى بإرسال المطران فيـكتب إليه قائلا « نرجو أن لا تسمحوا بخراب مملكتنا وترسلوا لنا مطراناً ـ كعهدنا بكم ـ لا يقتنى ذهباً ولا فضة » فأرسل

إليه الأنبا سلامة الثانى ففرح به الأتيوبيون فرحاً لا يوصف . واستقبلوه استقبالا حافلا . ونثروا على رأسه فى الكنيسة الذهب الكثير . ومات يجبيا صيون سنة ١٢٩٤ والبلاد رافلة فى حلل السلام والرفاهية . فقد رضى رجال الدين ورضى المسيحيون معهم وانصرفوا إلى شئونهم يصرفونها فى أمن وطمأنينة ورضى المسلمون تحت إمرة سلاطينهم المسلمين ، بعد أن حرصت الأسرة السليمانية الجديدة على أن يكون حكام الولايات الإسلامية مسلمين . طالما يعترفون بسلطة الأمبراطور عليهم . وانصرفوا أيضاً إلى تجارتهم يصرفونها كما يشاءون . كما انصرفت تطارد القرصان وتبعدهم عن البحر الأحمر والمحيط الهندى لتجعل التجارة آمنة إلى مكة وسواكن وعيذاب فى الشمال . وإلى شرق أفريقيا وزنجبار فى الجنوب . وجلس عمرو لسمع على عرش إيفات بعد أن أكمل القضاء على دولة شوا وأورث هذا الملك لبنيه من بعده . وتقول المصادر الإسلامية أنه أنجب من البنين ثلاثمائة ومن البنات ثلاثمائة وستين . وانتخت من هؤلاء جميعاً أربعين ولداً . ثم انتخب من بين هؤلاء الأربعين أربعة فقط هم الذين جلسوا متعاقبين على العرش من بعده . ثم من بعدهم إلى أبنائهم .

وكانت التجارة مع البلاد الأجنبية أهم ما يحترف هؤلاء المسلمون، ولم تكن هذه التجارة التى تنقلها سفنهم رغم صغر حجمها يسيرة ولا قليلة ، فقد اشتملت على التوابل القادمة من الهند، والجواهر من سيلان. والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية ، والفلفل من ملبار،والنحاس من كلبانا وبالقرب من بمباى ، والمسك والكشمير من السند ، والحرير الخام والصينى من الصين ، واللبان والبخور وسن الفيل من أتيوبيا.وأقبل،أهل جنوا وكذلك أهل البندقية إلى أسواق القاهرة يستقبلونها ، ويحملونها على سفنهم إلى أوروبا ، ويدفعون فيها ما يطلبه التجار المسلمون . والحق أن هذه التجارة كانت في ذلك الوقت مصدر ثروة

ليست بالهينة للقاهرة ودولة المماليك فى مصر . إذ كان قيام الحروب الصليبيــة وإنشاء الولايات الصليبية فى الشام قد قضى على سير هـذه التجارة إلى أسواق الشام ، فانصبت كلها إلى أسواق القاهرة فازدحمت بها إلى حد التخمة .

وتتابع ملوك الأسرة السليمانية بعد يجبياصيون ومن أشهر ملوك هذه الأسرة عمداصيون (١٣١٢ — ١٣٤٢) وداود (١٣٨٠ — ١٤١١) وزرء يعقوب (١٤٢٤ — ١٤٥٨) ولبنـــا دنجل (١٤٦٤ — ١٥٤٠) وسوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر هؤلاء الملوك يجب أن ننبه إلى حقيقة جديرة بالتنويه وهى أن نظام الحكم فى اتيوبيا كان فى ذلك الوقت ملكيا استبداديا، لأن الإمبراطور كان يستند فى حكمه على حق الهى ورثه عن تسلسل من منليك الأول بن سليمان . ولذا أصبح لقبه التقليدى (الأسد المنتصر . الخارج من سبط يهوذا المختار من الله . ملك ملوك اتيوبيا) ولـكن ليس معنى هـذا أن يتدلى نظام الوراثة إلى الابن الأكبر فالأكبر ، بل إلى الأقوى . وإذا نجح أحدهم فى الوصول إلى العرش ، فلن يمكث عليه إلا بمقـدار ما يستطيع المحافظة عليه من الطامعين ، ولذا كان أول عمل لـكل إمبراطور يرقى العرش ، أن يعمد إلى اخوته جميعا فيقبض عليهم ويسجنهم كما يسجن جميع أعمامه وكل من يرى فيه علامة ثورة من اقربائه . ولم تـكن إتيوبيا فريدة فى هذه الحال . فقد عانت مصر تلك الحالة أيام دولتى المماليك وكذلك الدولة الرومانيـــة الشرقية حين كان القائد القوى يحتال لغرض الوصول إلى العرش بالزواج من أخت الإمبراطور الضعيف أو أرملته. كى تكون له حجة شرعية لا تقل عن حجة خصومة . وكذلك كان الحال فى دولة الأتراك العثمانيين التى قامت على القوة وعاشت على القوة . وكذلك كان الحال فى اليمن خلال حكم دولة بنى نجاح والدولة الرسولية .

وكان الإمبراطور يحاط بحاشية كبيرة غالبا ما تكون مزدوجة . كما يقوم إلى جانبه مجلس القضاة . ويتكون من اثنى عشر قاضيا يستشيرهم الملك فى الهام من الأمور ٠ لاسيما عند إعلان الحرب . وإن كان رأيهم استشاريا بحتا . إذ يملك الإمبراطور حق مخالفته، وكانت مناقشات مجاس الحرب تدور دون حضور الإمبراطور ، بل يظل كرسيه خاليا على رأس المائدة المستديرة التى يجلس حولها القضاة . ولكن يحمل قرارات المجلس إلى الإمبراطور موظف خاص يسمى (افانجوس) أى فم الملك ٠

وقد حكم الإمبراطور عمداصيون ثلاثين سنة (١٣١٢ — ١٣٤٢) قضى نصفها الأول لا يعرف لملذاته حدا يقف عنده مهما كانت منافية للعرف أو الأخلاق . فلم يحجم عن معاشرة خليلات ابيه ولم يتعفف عن إغتصاب أخته مما اثار عليه سخط رجال دولة . وعلى رأسهم رجال الدين ٠ فهددوه بتوقيع الحرمان عايه وتوقيع الحرمان على الإمبراطورية يؤدى إلى خلع الناس واجب طاعته فكان أن قامت الحرب بينه وبين رجال الدين ولكنه لم يكد يسمع بازدياد سلطة (الشفتا) أى قطاع الطرق واجتياحهم الأجزاء الشرقية من البلاد وهجومهم على القرى لنهبها واختطاف رجالها من أجل تقديمهم إلى تجار الرقيق [1] حتى أفاق لنفسه ومضى إلى محاربتهم حربا لاهوادة فيها ولالين . امتدت إثنى عشر عاما . لا يهدأ ولا يلين ٠ مما اضطرهم إلى الهرب من البلاد .

ونشأ داود — كاغلب أسلافه متمرسا على الحرب محبالها . ولكنه جمع إلى ذلك أفقا متسعا دفعه إلى إقامة علاقات ودية مع من يجب أن يرتبط بهم من الملوك من أجل صالح بلاده ، فأرسل إلى السلطان برقوق كتابا مملوءا بعبارات الود والصداقة . مشفوعا بهدية كبيرة حملها إلى مصر عشرون جملا . فقوبلت الهدية كما قوبل الوفد الذى سافر بها إلى مصر بما يليق بمرسلها من التجلة والاإحترام . ورد السلطان عليه ردا جميلا وكان من أثر هذه الصداقة أن أحسن

(١) أنظر مقال (الشفتانى إثيوبيا منذ العصور الوسطى) للمؤلف بمجلة كلية الآداب .

السلطان برقوق معاملة المسيحيين فى مصر بعد أن أساءها من قبله. وخاصة محمد بن قلاوون . ثم جهز هدية ما خف وزنه وغلا ثمنه وأرسلها إلى اتيوبيا ردا على هديته . وكان من أثر ذلك أن تحسنت العلاقات بين الدولتين . وإزداد عدد الأتيوبيين الذين يقصدون بيت المقدس كل عام وكانوا دائما يجتازون مصر فى طريقهم إليها . كما إرسل أيضا إلى البندقية وفادة ممن يدعى انطوان بروشيلى يطلب إقامة علاقات بينهما . فقد كان تجارهام الذين يتولون نقل التجارة الهندية فى أوروبا بعد أن يتسلموها من الاسكندرية كما كانت لهم بضع مصانع فى بعض مدن سوريا كحلب لصنع المصنوعات من نتاج بلاد فارس .

وكانت تجارة الرقيق مجزية إلى حد كبيرا إذ الحت فى طلبه فارس ومصر والشام وجزيرة العرب واليمن والعراق وأوربا بل والصين . وكانت البيوت المالكة فى اليمن وخاصة ملوك الدولة الرسولية تكثر من تجنيد الجند من الرقيق الأتيوبيين . لحسن بلائهم فى الحرب . وكانت جزر الدهلك وصنعاء من أهم اسواقهم وكانوا يدفعون فيهم أثمان تعوض على تجاره جميع ما يصرفونه . ويتكبدونه بل أ كثر مما يصرفون ويتكبدون . فسرعان ما أغرى سلاطين اليمن تجار الرقيق على زيادة نشاطهم . بل لم يترددوا عن مدهم بالسلاح . وانضم إليهم سلاطين الولايات الإسلامية فى أتيوبيا وأخذوا على عاتقهم قيادة حملات الجلابين .

ويذكر لنا المؤرخون الذين ارخوا لحركة الرقيق وتجارته ، أن تجار الرقيق كثيراً ما كانوا يثيرون السلاطين على بعضهم ، من أجل أغراضهم الخاصة ، بل كانوا لا يترددون عن أن ينتقلوا بقوتهم من سلطان إلى أخر ، ما دام ذلك فى مصلحتهم ، وكان تجار الرقيق خلال هذه المدة من تجار اليمن الذين يجمعون الرقيق فى مراكز على الشاطئ ، حتى تقدم سفنهم فتحمله إلى حيث تشتد الحاجة إليه ، فكان هؤلاء التجار هم الذين يدفعون تكاليف هذه الحملات ، كما يدفعون بالاتاوات السنوية السخية إلى

السلاطين ، حتى يشتط هؤلاء فى الإغارة على اعدائهم ، أو فى تحدى سلطة الحكومة المركزية .

وأول من تحدى سلطة الحكومة من سلاطين الولايات الشرقية الاسلامية هو سلطان عدل (بفتح العين والدال) ، وهى سلطنة حديثة قامت حول أوسا فى أوائل القرن الرابع عشر ، وكان يسمى صبر الدين ، إذ قام وقتل موظفا أتيوبيا فى زيلع ، كان يشرف على تدبير المصالح التجارية وتيسير أمور التجار ، ويبدو أنه كان النجادى راس أى الراس الذى يشرف على التجارة والتجار ، ويحصل الرسوم ويمنع سفر الرقيق . ويبدو أن سلطان عدل وجد نفسه ضعيفا إزاء تحدى الحكومة المركزية، فكتب إلى سلطان هديه، الذى كان أقوى إخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا كما ذكرنا واشدهم بأسا نخرج معه ، فلم تكد هذه الأخبار تصل إلى الامبراطور حتى أسرع وسار إلى هديه ، وقبض على سلطانها وأرسله مخفورا إلى تاجيلاط بينما تابع هو سيره إلى صبر الدين ، ففر هذا أمامه فدخلت الجيوش الامبراطورية عاصمته أوسا فقبضت عليه وأرسلت به إلى العاصمة ولكن الامبراطور لم يلبث أن عفا عنه وأعاده إلى مكانه .

وكأن هذا العفو قد أغرى أخاه السلطان الجديد جمال الدين على الثورة ، كما أغرى آخرين إذ كاتب سلطان عدل ــ مرة أخرى ــ سلطان إيفات يغريه بالثورة على سيده الإمبراطور واستجاب هذا الأخير لإغراء زميله سلطان عدل ، ولكن الإمبراطور نجح مرة أخرى فى القبض على ناصية الحال .وعزل جمال الدين سلطان عدل وولى مكانه أخاه نصر الدين ، كما عزل على ابن صبر الدين سلطان إيفات وولى مكانه أبنه أحمد حرب أرعد وأقام على عند الإمبراطور ثمان سنين رضى عنه فى نهايتها وأعاده إلى ولايته بعد أن عفى عنه ، وأرسل يطلب ابنه أحمد حرب ارعد ليقيم فى العاصمة ، هذا فى الوقت الذى

اعترف جمال الدين ، أنه لم يثر ولم يقم ضد سيده ، إلا تحت تأثير من يأتونهم من تجار جزيرة العرب يغرونهم بالمال .

وتولى على بن صبر الدين ولايته الثانية فى إيفات وطالت مدته حتى اعتلت صحته ، فأشرك معه فى السلطة ولده أصفح الملقب بالملا وكان أصغر أبنائه واحبهم إليه ، فأغضب ذلك حق الدين الابن الأكبر لابنه الأكبر أحمد حرب ارعد ، وكان أبوه قد تركه فى إيفات حين سار إلى الامبراطور ، فلم يلبث أن أظهر العداء لجده ، وكان ملا أصفح يكرهه . ويمقته مقتا شديداً وكان سبب هذا المقت أنه كان يجتمع بالناقمين على عمه وجده وبتجار الرقيق الذين أضرت الحكومة بمصالحهم وبتجارة اليمن الذين كانوا بها جرون إلى أتيوبيا فيحرضون أهلها وحكامها على الخروج على طاعة الملوك (الكفرة) .

ولم يلبث حق الدين أن رفع راية الثورة على عمه وجده ، فأرسل هذا إلى الامبراطور يخبره الخبر ويطلب النجدة ،وسار حق الدين إلى إيفات وخرج عمه لملاقاته ، فهزمه حق الدين وقتله ، وواصل سيره إلى إيفات وفيها جده على ، وقد كبر واشتد حزنه على ولده ملا أصفح فحنق على حفيده وأمر بطرده ، فسار إلى شوا وأقام فى مدينة تدعى وحج وانزل بها من تبعه من أهل إيفات .

وكان انتصار حق الدين بن أحمد حرب يعنى انتصار الشفتا وقطاع الطرق وتجار الرقيق ، ومات الامبراطور نوايا كرستوس . ثم ابنه نوايا مريم ومازال حق الدين واتباعه فى أقصى سلطتهم . وعمل الامبراطور داود على القضاء عليهم والحد من نشاطهم حتى استطاع أخيراً أن يظفر به ويقتله .

ولكن موت هذا الثائر لم يكن يكفى لأن تعود البلاد إلى هدوئها . فقد ورثه فى قيادة جماعته أخوه سعد الدين ، الذى كان يلقب بأبى البركات فظل

يقود الثائرين مدة ثلاثين سنة، اعطت إسمه لشرق الهضبة الاتيوبية المتاخم للساحل فاصبح يعرف ببرسعد الدين . ولكنه قتل أخيراً فى سنة ١٤٠٣م بعد أن حوصر فى زيلع ثلاثة أيام . وكان سعد الدين خلال هذه الثلاثين سنة مثالا للناهب السالب ، الذى لا يتردد عن نهب كل ما يقع فى طريقه .

وعاد الهدوء يخيم على أتيوبيا بعض الوقت ولكنه كان هدوءاً موقتاً ، إذ كان سعد الدين قد ترك عشرة أبناء خرجوا جميعاً إلى اليمن، بعد موت أبيهم وهناك عاشوا فى كنف الملك الناصر أحمد بن اسماعيل الأشرف ، الذى أخذ يدبر لهم أمرهم ويهيئهم للعودة إلى اتيوبيا ، ليأخذوا بثأر أبيهم . فعادوا والحكومة تتلقفهم واحداً بعد الآخر وتعمل على سحقهم . وظلت ثورتهم أو ثوراتهم المتعاقبة ثمان سنين أخر . تمكنوا فى خلالها من قتل الملك اسحق سنة ١٤٢٧ م ولكن تمكن الإمبراطور زرء يعقوب أخيراً من القضاء عليهم بقتل آخر اثنين منهما. وهما جمال الدين ثم شهاب الدين سنة ١٤٣٠ م . وكان قد انضم إليهما بدلاى حاكم دوارو ويامو حاكم هدية .

وكان الإمبراطور اسحق أول من دون إيرادات الدولة ومصروفاتها فى أبواب منتظمة . بعد أن أشار عليه بذلك قبطى يدعى فخر الدين ، قدم إلى اتيوبيا من مصر ضمن أقباط كثيرين وفدوا إليها للعمل فى التجارة بعد أن ساءت معاملة سلاطين المماليك لهم فى مصر .

وكان الأمبراطور زرء يعقوب الإبن الرابع لداود(١٤٥٤ ـ ١٤٦٨) هو الذى صمم على القضاء على عصابات قطاع الطرق ومعهم تجار الرقيق وكان معظمهم من سكان الولايات الشرقية . الذين استغلهم تجار اليمن لأجل إيقاع الإضطراب فى البلاد . ليمكنهم ذلك من ممارسة أعمالهم المنكرة من خطف الرقيق فى أعداد كبيرة من أجل تصديرهم إلى أسواق الرقيق كما كانت البيوت المالكة

فى اليمن وخاصة الدولة الرسولية تكثر من تكوين الجند من الرقيق الأتيوبيين لحسن بلائهم فى الحرب . فكانت جزر الدهلك وصنعاء من أهم أسواقهم كما ذكرنا ،فوجد أن خير وسيلة لذلك هى الاتصال بالخارج لطلب النصرة . فأرسل إلى البابا يصور له مايضمره هؤلاء الأعداء من نية القضاء على المسيحية بسبي الأهالى المسيحيين بغرض بيعهم فى الأسوق . وكانت الدولة الرومانية الشرقية فى ظروف لا تقل عن ظروف أتيوبيا سوءا من حيث إحاطة الاتراك العثمانين بها . يحاولون الاستيلاء على أملاكها جزءا جزءاً . بل يهددون العاصمة ويثيرون القضاء على الدولة . فلم يجد امبراطورها بدا من أن يذل بنفسه كبرياء الكنيسة الشرقية . بأن يرسل إلى البابا تطلب معونته لقاء خضوع الكنيسة الشرقية لسلطة البابا . ودعا الإمبراطور جون الثامن لهذا الغرض مؤتمرا عقد مدينة فلورنسا لغرض اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . لقاء أن يدعو البابا ملوك أوروبا إلى حملة (صليبية) لانقاذ القسطنطينية من خطر الوقوع فى يد الأتراك المسلمين . فأنتهز زرء يعقوب فرصة هذا المؤتمر وأرسل إليه سفارتين خرجت أولاهما من مصر يمثلها الأب اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس فى الوجه القبلى وخرجت الثانية من القدس يمثلها الآب نيكوديم أحد رهبان دير السلطان . وتقابل المبعوثان فى الطريق واتجها معاً إلى المؤتمر . بعد أن مثلا فى حضرة البابا أوجين الرابع فى الواحدوالثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٤٤١م. وفى أثناء مناقشة المؤتمر تكلم المندوبان الاتيوبيان فشرحا للمجتمعين ان لاخلاف مطلقاً فى العقيدة بين الكنيستين الشرقية والغربية سوى مسألة طبيعة المسيح وقد علمنا خبر وصول هذين المندوبين الاتيوبيين إلى هذا المؤتمر عن طريق صورة تمثلهما فى حضرة البابا وهى محفوظة الآن بمكتبة الفاتيكان فى روما ، وشفع زرء يعقوب هذه السفارة بتأسيس دير أتيوبى فى سان ستيفانو بجوار روما .ولكن قرارات المؤتمر بشأن اتيوبيا لم تتعد حد الكلام ، وفى نفس الوقت تمكن زرء يعقوب

بقوة جيشه ومعاونة قواده المسلمين المختلفين من أمثال الجرد محمد حاكم هـديه وكذلك ولاء السلاطين المسلمين من أن يحطم قوة الثائرين وتجار الرقيق وقطاع الطريق ومن استعانوا بهم من تجار اليمن بل ويقضى عليهم نهائياً .

وقد تصور زرء يعقوب أن الوسيلة الوحيدة لخلق اتيوبيا المتحدة ، هو إرغام جميع السكان على اعتناق المسيحية ، ولم يعتنق سياسة الإرغام الدينى هذه أحد من ملوك اتيوبيا أو أباطرتها قبل زرء يعقوب، فقد كانوا جميعاً يتركون لرعاياهم الحرية فى اعتناق ما يشاءون من الديانات والمذاهب . ولم تقتصر سياسة الشدة للسيحية على غير المسيحين ، بل أمتدب أيضاً إلى المسيحيين أنفسهم بتعقب كل من رأى أنه يخالف عقيدة المذهب السكندرى ، وعين لأجل ذلك عـدداً من الموظفين وعلى رأسهم (أكابى ساعات) أى حافظ الساعات وجعل عمله تتبع الخارجين ، والقبض عليهم ومحـاكمتهم ثم الحكم عليهم وتنفيذ الحكم . وهو نوع من محـاكم التفتيش ، ومن الطبيعى أن يلجأ هذا الرجل إلى كثيرين من العيون والارصاد يبثهم فى كل جماعة . ليحملوا إليه ما يعتقده الناس . وهذا العمل وإن كنا نراه بعقليتنا الحاضرة اعتداءا صارخاً على حرية الرأى والعقيدة . إلا أنه كان بحسب عقلية العصر الذى عاش فيه ، نوعاً من أعمال البطولة . وقد ارتفعت مكانة (أ كابى ساعات) حتى أصبح الرجل الأول بين حاشية الإمبراطور الدينية حتى ليعادل (البتودد) الذى كان الرجل الأول بين حاشيته المدنية .

وفى رحاب هذا الملك الواسع الأفق وجد الفنانون الاجانب كل رعاية وتشجيع على الانتاج ، فقد عاش فى أتيوبيا فى ذلك الوقت، فنان إيطالى هو فرانكا ليونى الذى أسبغ عليه الإمبراطور كل رعاية وتشجيع، فسمح له أن يرسم عدة صور لكثير من الكنائس التى اهتم زرء يعقوب إما بتشيدها أو تزيينها . ومن أشهر

صوره هناك صورة العذراء وهى تحمل الطفل يسوع ، وهى الصورة التى أثارت ضجة كبيرة فى البلاد وعرضت الفنان بل الإمبراطور لكثير من النقد بل التهديد بالقتل لولا حماية الإمبراطور له ، لأنه تجرأ ورسم السيدة العذراء وهى تحمل الطفل يسوع على ذراعها الأيسر الأمر الذى يثير سخط الاتيوبيين لأنهم يعتقدون أن اليد اليسرى أقل منزلة من اليد اليمنى .

وأمر زرء يعقوب أن يزاد الاهتمام بتعليم الشعب العقائد الصحيحة . فأمر الكهنة أن يجعلوا من كنائسهم عصر كل يوم أحد، مدارس لهذا الغرض، فكان التنظيم الأول فى التاريخ لما نستطيع أن نسميه « مدارس الأحد » كما نظم الضرائب وحدد قيمتها وجعل على رأس كل مقاطعة حاكما (اداك شطنفاط) يتلقى أوامر الإمبراطور ويعمل على تنفيذها . وبذلك أصبح قصر الإمبراطور مصدر السلطة كلها فخضع له جميع رعاياه . ومات زرء يعقوب فى سنة ١٤٦٨ بعد أن ترك دولة موطدة الأركان كافية الموارد منظمة المصارف . كما ترك سيرة حسنة حتى لقد لقبه مواطنوه بسليمان الثانى .

وإذا كان زرء يعقوب قد تمكن من كسر شوكة الشفتا وثوار الولايات الشرقية دون معونة من أحد ، فقد فشل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى صد الأتراك العثمانيين فقضوا على دولته سنة ١٤٥٣م وتولى بعد ذلك السلطان سليم الأول ليهاجم فارس ويطل على البحار الجنوبية ويشهد البرتغاليين يحاولون بناء امبراطوريتهم الهندية . كما استولى على مصر سنة ١٥١٧ وأطل على البحر الأحمر ، فبدا له أن ينازل البرتغاليين أينما كانوا ، وورث عنه ابنه سليمان الملقب بالقانونى أحلامه ، فوصلت فتوحه إلى اليمن وحينئذ بدا له أنه يستطيع منازلة البرتغاليين واحتكار التجارة الهندية ولن يتاح له ذلك إلا إذا جعل البحر الأحمر بحيرة تركية . فنزلت جنوده فى سواكن واستولت على مصوع وزيلع

وبذلك أصبح وصول الإتيوبيين إلى البحر الأحمر أمراً من الصعوبة بمكان بل متعذراً .

ومن زيلع اتصل الأتراك بحاكم هرر المسمى أحمد ابن ابراهيم الملقب بالأشول ووضعا معاً أساس امبراطورية إسلامية يكون (الإمام) أحمد بن ابراهيم ممثلاً لها فى البحر الأحمر . بعد أن يضم اليه الأجزاء الإسلامية من أتيوبيا ، بل إنه يستطيع أيضاً القضاء على دولة اتيوبيا بفضل ما وعـــده به الأتراك من أسلحة حديثة العهد هى البنادق والمدافع التى كانت فى ذلك الوقت اختراعاً حديثاً لم يعرفه الاتيوبيون .

وكان الامبراطور المعاصر فى ذلك الوقت هو لبنا دنجل الذى ورث عن زرء يعقوب دولة موطدة وثروة دافقة ، فاستطاع أن يرعاها رعاية جعلت من عصره العصر الـذهبى لاتيوبيا فى العصور الوسطى ، وسنحاول هنا أن نأتى بشىء من التفصيل على مظاهر الحضارة التى تمتعت بها اتيوبيا فى هذا العصر لنرى إلى أى حد وصلت الرفاهية بهذه البلاد فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تبدأ نهضتها الحديثة ، وهذه الحضارة التى سنحاول رسم بعض صورها وإن كانت دينية فى أغلب مظاهرها إلا إنها لا تعدو مظهراً من مظاهر التقدم الذى أصابته اتيوبيا فى هذا العصر .

لم يكن سنه يزيد عن الحادية عشر حين ارتقى لبنا دنجل العرش الإمبراطورى ولم يكن هو أكبر أبناء أبيه ، ولـكنه كان أكبر أبناء الأمبراطورة ولذا لم ينازعه أحد من أخوته الذين كانوا أكبر منه سناً

وكان عهد لبنا دنجل (ومعنى اسمه وعاء العذراء) أكثر العهود تعقيداً لأنه شهد العظمة فى أول عهده . والهدوء السلام يرفرفان ، والثروة سابغة ولـكنه شهد أيضاً انهيار هذا كله بسبب الحروب الـكثيرة التى شنها الامام احمد بن

ابراهيم كما شهد التشريد والفقر ، أيده الكهنوت والشعب والبيت المالك وكأنما أراد هو أن يبرهن على جدارته بهذه الثقة ، فأكثر من بناء الكنائس كى يكون (لا ليبالا الثانى) .

وقد مكنتنا الوثائق التى ورثناها عن عهد هذا الإمبراطور أن نكون فكرة صحيحة صادقة عن عهده . فإذا كان غيره من الأباطرة قد اعتمد فى شهرته أو اعتمد المؤرخون فى شهرته على الأساطير والقصص الوطنية التى كان نصيب الخيال منها أكثر من نصيب الحقيقة فعهد لبنا دنجل على العكس من ذلك يعتمد على كثير من الوثائق التى تجعل أكثر ما يروى عنه حقيقة ، وهذه الوثائق الموجودة وفيرة وأكثرها يتصل بعلاقاته بالبرتغاليين ، وكلنا نعرف أنه منذ قيام الأسرة السليمانية أيام يكونو أملاك أصبحت هناك وظيفة كبيرة فى القصر (تصحاف تزاز) مهمة صاحبها تدوين كل ما يتصل بحياة الملك من وقائع ، وهى مدونة على شكل حوليات تبدأ بالسنة الأولى من حياة الملك وتنتهى بانتهاء عهده . ومن ثم أصبح هذا العهد أى منذ القرن الثالث عشر يرتكز على أساس علمى صحيح ، من حيث وجود الوثائق التى يعتمد عليها المؤرخون . ولكن مما يؤسف له أيضاً أن كثيراً من هذه الوثائق لم يصل إلينا بل أتت عليه الحروب الكثيرة التى قامت فى البلاد والتى خاضتها الجيوش الإمبراطورية والتى تعرضت فيها الأديرة والكنائس — وهى مكان حفظ هذه الوثائق — للنهب والسلب . ومن ثم كان ما وصل إلينا من وثائق الملوك لا يعدو نسبة ضئيلة مما دون حقيقة ، ولكنه ولا شك كان يعطينا فكرة أقرب إلى الصحيحة مما كانت عليه إتيوبيا من حضارة خلال هذا العصر .

وبفضل هذه المدونات تبدو لنا إتيوبيا فى عهد هذا الإمبراطور قوية تتمتع

بسلام وافر ، غنية تتمتع بثروة وافرة أيضاً حتى استحوذت على إعجاب الجميع حتى لقد أصبح عهد لبنا دنجل أشبه بأسطورة تروى ومبعث اللذة والإعجاب لدى كثير من المواطنين .

كان مركز النشاط للدولة أبان حكم هذا الإمبراطور منطقتى شوا وامهرة . فالأولى كانت مسرحاً لمعظم الحوادث والحروب التى دارت فى عهده ، والثانية مركز العاصمة الجديدة (جوندار) منذ أن انتقل إليها الإمبراطور عمداصيون .

ولقد أصبحت القاطعة الأولى قبل أن تكتسحها الحروب ، مكتظة بالقصور والكنائس التى تلتف حولها المدن ، وتقوم على جوانبها أسواق مليئة بالحركة والنشاط ، جلبت إليها السلع التجارية من تجرى والصومال وزيلع والسودان ، وتشهد الأطلال الباقية المنتثرة لهذه القصور والكنائس فى شوا وخاصة بالقرب من منابع نهرى أكاكى وعلى قمم جبال انتوتو وبالقرب من امبو ، أو ناحية بانتولين ، بكثرة ما قام بها من مدن ومنشئات بذت فى مظاهر بذخها وثرائها مثيلاتها فى أى عصر آخر . وبالرغم من اختفاء معظم هذه البلاد . أو قيامها فى عصور لاحقة تحمل اسماء جديدة إلا أنه امكننا الوقوف على تاريخها بصورة واضحة ، بفضل الوثائق العربية التى عثر عليها فيما بعد .

ففى وسط منطقة شمبرى كورى — حيث قامت أهم معارك الامام أحمد — كما سيأتى فيما بعد — قامت مدن كثيرة نخص بالذكر منها برار وباديكية . وكانت الأولى هى التى أقامتها ما جوسا زوجة زرء يعقوب وأقامت فى وسطها قصورا ملكية لها ، ويوجد بالقرب منها دير قديم دفن فيه عدد من الكهنة وقامت فى وسطها سوق كبيرة .

ولكن الرغد لم يقتصر على هذه الناحية ، بل امتد إلى قرى شو الشمالية

التى تدعى فاتاحار . فاذا صعد المسافر إلى قمة زا كوالا الهائلة الارتفاع التى تتوسطها وألقى بنظره إلى مايحيط بها من غابات واسعة ، لالفى فى وسطها بحيرة واسعة ذات ضفاف جميلة حالمة ،وهى محاطة بمجوعات كثيرةمن الخضرة الداكنة وعلى شاطئها قامت كنيسة القديس اباو ، وبالقرب منها توجد الكهوف والمغارات التى لجأ إليها الكهنة ليكونوا بعيدين عن الاضطهاد الشامل الذى لحقهم فى بدء عهد الأجويين . وحول شواطىء البحيرة امتدت بيوت صغيرة كثيرة كان الرهبان يتخذونها مساكن لهم . وفى أوائل القرن السادس عشر . وفى عصر لبنا دنجل على وجه التحديد انتشرت فى هذهالمنطقة قرى عديدة ذات معسكرات و كنائس وفى وسط كل منها سوقها الكبير ، الذى لا نغالى كثيراً إذا قلنا انها كانت أهم أسواق إتيوبيا آنذاك . وإذا كان التعامل يجرى فى غيره من الأسواق بالتبادل أو بقطع الملح أو بقطع الحديد فإنه كان يجرى فى هذا السوق بقطع من الذهب .

ومن هذه المنطقة تتفرع عدة طرق تتجه إلى جميع اجزاء اتيوبيا ، تقوم على بداياتها بوابات جبلية . وكانت أهم هذه البوابات البوابة الشمالية التى تقود إلى الجبال الموازية للنيل الأزرق ، والتى تقود إلى سهول الداموت وكذلك باب الغرب الذى يقود إلى الجبال الغربية (المظلمة) لتشابك اغصانها مما جعل أشعة الشمس لاتنفذ إلى وسطها ، ثم الطريق الجنوبى الذى يقود إلى بحيرة زوى ، التى انشأ عندها با إيدا مريم بن زرء يعقوب قصرا فريدا فى غرابته ، ليكون قريبا من منطقة الجوراجى ، حيث تقوم مدن أخرى لاتقل عن الأولى فى أهميتها . هى مدن ايفار وعالا ، وعلى ضفاف بحيرة اباى اقيم هيكل ضخم خبأ فيه لبنا دنجل مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية .

وإلى الشمال من هذهالمنطقة توجد منطقةهامة أخرىهى منطقةدبرا برهان،التى

أجمع كل من المسلمين والمسيحيين على أنها كانت جنة اتيوبيا بالرغم من عـدم خصوبة أرضها ، إذا قورنت بسهول دمبيا التى تحيط ببحيرة طانا .

وكأنما اراد لبنا دنجل أن يجعل من منطقة انتوتو قلبا لإتيوبيا ، فبدأ فى بناء مجموعة هائلة من الـكنائس صرف عليها أموالا كثيرة إلا أن الأقدارجاءت على عكس ما يشتهى، ونشبت حروب الإمام أحمد فخربت كل هذه الـكنائس تخريبا شاملا ، وترك أمر تعميرها إلى منليك الثانى ، الذى اتى بعد لبنا دنجل بثلاثة قرون ونصف ليشيد فيها عاصمته الجديدة اديس ابابا .

وإلى الشمال توجد المنطقة الجبلية التى يتوسطها نهر موجر وهى المسماة با كيلا ، وفى المـكان الذى يدعى انارای اقيم دير تكلا هواريات المقدس ، وكانت جموع الحجاج تتوافد عليه للتبرك بمياهه المقـدسة الموجودة فى دير دبراليبانوس ، ويهدون إليه شموعا بلغت فى ضخامتها جذوع الأشجـار ، وبالقرب منها أقيمت بلدة زارارا التى سكنها كثير من التجار المسيحيين القادمين من سوريا ومصر .

وأن الطريق المؤدى إلى اباى هو الذى مهد السبيل لاكتشاف جودچام ، التى امتلأت بالـكنائس الفخمة، ففى دبرا اوروك اقيمت كنيسة مرتولا مريم المشيدة على الطراز الأوربى ، وفى أوارايا المقابلة لها اقيمت كنائس كثيرة كان أهمها ما أقامهزره يعقوب فىدبرا برهان . وفيما بين هذه المنطقة ومنطقة شوا على السفوح الجنوبية للجبـال الشرقية ، امتدت مساحات واسعة حفلت بالمزارع الغنية ، وفى وسطها ظهرت مدينة جان زلن التى اشتهرت بمحصولاتها الوفيرة وكانتحقولها تروى عنطريق الترع والأمطار ممايفسر اهتمام الإمام أحمدخلال حروبه بالاستيلاء عليها .

وقد ازدحمت منطقة دبرا برهان خاصة بالرهبان ، الذين حملوا اسم الدفترا

وهو اسم مشتق عن الدفتر ومعناها الدارسون للعلم، وهم أكثر طوائف الرهبان الإتيوبيين تعمقاً فى العلوم اللاهوتية ، وكان الأمراء والملوك يقصدونهم لتلقى العلم على أيديهم ، حتى ليقال انه مامن امبراطور ارتقى العرش إلا وقد أمضى مدة من الزمن دارساً على يد واحد أو أكثر من هؤلاء الدفترا ، ومنطقة دبرا برهان . (جبل النور) مازالت حتى الآن تعتبر المركز الأكبر للرهبنة الإتيوبية . وبها العديد من الكنائس والأديرة كما تحتوى على الكثير من قبور الأباطرة الراحلين ، ومازالت بعض كنائسها تحتفظ بأسماء مؤسيسها مثل كنائس اترونسا مريم وجناتا جورجيس اللتين أقامهما زرء يعقوب . أما الأولى فكانت غاية فى الأبهة فهيا كلها مصنوعة من الذهب الخالص ، بينما كان بناء جناتا جورجيس الخشبى يرتكز على ٣٦ عمودا ضخما مربعاً ، تتصل بعقود عاتية لتحمل سقف الكنيسة ، وكانت هذه الأعمدة محلاة بأشكال فنية رائعة قام على تصميمها وعملها فنانون اجانب منهم برانكاليونى الذى ذكرنا انه لقى من زرء يعقوب كل رعاية ، ورسمت على حوائطها الداخلية مشاهد العهد القديم ، وقصص مريم العذراء والكثير من القديسين ، أما أروع هذه الهيا كل قاطبة فهو هيكل مكناسلاسى أى مركز الثالوث ، التى بناها والد لبنا دنجل ، ولكنه لم يتمها فقضى ابنه أحد عشر عاماً فى تجميلها ، وقد غطيت كثير من جوانبها بصفائح من الذهب الخالص ، مما بهر كثيرين من الرحالة البرتغاليين الذين شاهدوها. كما لم يملك المسلمون الذين هدموها انفسهم من الإعجاب بها . وقد وصفوها بعد ذلك بعبارات تحمل شديد اعجابهم بها ولعل أكبر اجزائها نصيباً من هذا الإعجاب هو مداخلها الفسيحة التى كانت أبوابها محلاة بجواهر وأحجار كريمة نادرة جلبت لها خصيصاً من الهند وفى أعلاه رسم الفنانون الإتيوبيون صورة العذراء مريم جالسة على عرش ذهبى تحيط بها الملائكة .

وعند الحدود المترامية لهذا الإقليم يوجد جبل جاشان ذو القمة الهائلة الإرتفاع

حيث جرت العادة أن يسجن الإمبراطور الجالس على العرش ، الأمراء المتمردين مع عائلاتهم ، وهى قمة صعبة المرتقى لا يصعد إليها إلا عن طريق درجات حفرت على جوانب الجبل لا يعرف طريقها إلا قليلون ، وتربض على سفوح هذا الجبل بحيرة حايك ذات الجزر المتعدده التى بنيت عليها مجموعة من الأديرة تفخر بأصلها الا كسومى ، ففى جزيرة سان انين يقوم دير جبرا اجزاهبهير (عبدالله) حيث حفظت مخطوطات الملك سيف ارعد ، وفى الجهة المقابلة لهذا الجبل يوجد دبرا تابور التى سكنها لبنا دنجل والتى اشتهرت فى ايامه بسوقها التى ازدهرت بتجارة الزبد (بفتح الزاى والياء) وهى مادة شحمية تؤخذ من حيوان متوحش ، واشتهرت بنكتهها العطرة التى تستعمل فى صناعة العطور . كما اشتهرت أديرة أخرى فى الجزائر الأخرى التى انتشرت على سطح هذه البحيرة . أما الطريق الرئيسى الذى يمتد من هذة البحيرة إلى إقليم تجرى فيمر بإقليم لاستا ، الغنى بهيا كل لا ليبالا ، التى لم تهملها عناية لبنا دنجل

وعند مسالك جبل سيناف فى اقليم تجرى ، توجد بعض قرى تسكنها قبائل الفلشا التى مازالت تحتفظ بديانتها اليهودية وكان عمداصيون قد كتب عليها الذلة والهوان ، فجاء لبنا دنجل وإصدر قانونا يخول لهؤلاء الناس كافة حقوق المساواة مع بقية رعاياه وبذلك أعاد إليهم كرامتهم وأقام منهم حكاماً على ولاياتهم كغيرهم من سكان الأقاليم الأخرى.

وكذلك اهتم لبنا دنجل بالأديرة القديمة الكائنة فى إقليم تجرى . فأجرى بها من الإصلاحات ما أعاد إليها جدتها ، فجدد دير دبرا ليبانوس المقام فى إقليم سيزان، ودير ابا جاريما المقام فى عدوة . ودير أبا صموئيل المقام فى أوول دابا ، ولم تنته عنايته عند حد الصيانة بل أمر فرسم على جدرانها كثير من الصور الدينية ،ففى دير دبرا دامو رسمت صورة للعذراء مريم جالسة على عرش ذهبى يحيط بها الملائكة

والقديسون ، وهى تعتبر غاية فى الجمال والإبداع حتى لتضاهى مارسمه الفنانون الإيطاليون فى الكنائس الإيطالية فى عصر النهضة ، وفى إقليم الشاطىء الذى يحكمه بهرنجش شقت الطرق إلى العاصمة دى باروا ، وكذلك إلى الموانى ، وعلى جانبى الطريق زرعت الآلاف من أشجار الزيتون ، وعلى الطريق الرئيسى يقع دير دبرا بيزان ، الذى كان من أكبر الأديرة ازدحاما بالرهبان . وحوله قامت عدة أديرة أخرى . أصغر منه مثل دير أبايوناس ودير دبرا تسيجبه ، اللذان كانا مقصد كثير من الإتيوبيين للتبرك بهما ، وعلى جدران كل دير كانت تتدلى قطعة كبيرة من الحجر البركانى كانت تستعمل كالأجراس أو يقرعها المسافرون من أجل طلب القوت من الداخل .

وعلى جانبى هذه الطرق حول الأديرة ، زرعت آلاف الأشجار من أجل الاستفادة بأخشابها ، وكان الرعاة يتخللون هذه الأشجار بقطعانهم يرعونها وقد صففوا شعورهم بعناية مما يدل على رفاهيتهم النسبية ، كما تدل عليها أيضاً ما كان يتحلى بها نساؤهم من حلى ، ومن حين إلى آخر يخرج من هذه الأديرة رهبان يرتدون ملابسهم التقليدية ، ويضعون جلود الشاة على اكتافهم ليقيهم الأمطار الغزيرة ، يغطون رءوسهم بعمامات بيضاء محكمة يحاولون التقرب إلى الرعاة من أجل أن ينصحوهم باتخاذ زوجة واحدة .

وفى المساء كانت تسمع التراتيل الدينية تتصاعد من داخل هذه الأديرة مصحوبة بضربات الطبول ورقصات الكهنة ، لتسجل ما كان عليه هؤلاء الرهبان من نشاط ، إذ كان فى كل دير مكتبة يقضى الرهبان وقتهم بنسخ كتبها ، أو تصوير مناظرها . . برسوم يغلب عليها اللون الذهبى أو اللون الأحمر الفاقع .

وكان من عادة لبنا دنجل أن يقوم خلال فصل الجفاف بجولات دورية من أجل رعاية شعبه ، ويقيم لذلك معسكرا كبيراً يمتلأ بآلاف الرجال والنساء

من أفراد الحاشية ، وإليها يحاول الأهالى الاقتراب كى يحظوا بشرف التقرب إلى الإمبراطور ، ولكن الحرس الإمبراطورى كان يحول بينهم وبين ذلك، ويبعدهم بأكثر من خمسمائة متر إلى أن يتكرم جلالته فيأذن لهم بالاقتراب فيقتربون ، تسبقهم دقات الطبول من أجل التعبير عن سرورهم ، أما من كانت له شكوى أو مظلمة فيرفعها على عصا طويلة ويهتف طالبا العدل ، فيركض إليه موظف خاص يتسلم منه مظلمته . ليرفعها إلى سيده ، الذى يجلس فى اليوم الثانى للنظر فى هذه الشكاوى وتقرير ما يراه بشأنها ، ومن ثم يأذن لرؤساء القرى (شوما) وحكامها بالمثول بين يديه ليصدر إليهم أوامره بشأن الاهتمام بالشعب ورعاية أفراده ، وكان هؤلاء الرؤساء يتميزون عن عامة الشعب لا بالحلى والعقود الثمينة التى تحلى صدورهم وأيديهم فحسب بل يتميزون أيضاً بأرديتهم الثقيلة المصنوعة من القطيفة المحلاة بالزراير المصنوعة من الذهب ، بل يرتدى بعضهم نوعا من الإردية المحلاة بخيوط الذهب ، ويعصبون رءوسهم بعصابات حريرية حمراء . بل أن بعضهم يتشح بأوشحة تتدلى منها حلى براقة تعكس على وجوههم الداكنة نوعا من الجمال ، وكان قليل منهم يرتدى الصدور الحريرية المحلاة بالأحجار الكريمة .

ويقة وقبل أن ينصرفوا من حضرة الإمبراطور يحيونه بامتطاء صهوات خيولهم ومون بألعاب الفروسية التى تدل على المهارة وطول المران .

وكان الفرسان منهم يلبسون خوذات لامعة تنسدل على وجوههم لا يرى من خلالها إلا العينان ، وتتدلى إلى جوانبهم حرابهم أو سيوفهم وتبدو أمامهم دروع كبيرة مستديرة الشكل مصنوعة من طبقات كثيرة من جلود الجاموس السميكة تثبتها ببعضها عوارض محكمة من الصلب[1] .

---

(١) أنظر مقال « الفرسان والفروسية فى إثيوبيا فى العصور الوسطى » للمؤلف . نشرت بمجلة كلية الآداب .

وتقوم خيمة الإمبراطور فى وسط المعسكر الإمبراطورى. وبداخلها الستائر الكثيرة مسدلة، كى لا تكون مشاهدة الإمبراطور ميسرة، ويقف على بابه البتودد وهو أكبر الرجال المدنيين مقاماً، وكذلك الاكابى ساعات وهو أكبر الرجال الدينيين مقاماً، وغير بعيد من الخيمة تقف الأسود الأربعة التى هى رمز الإمبراطور، والتى حرص الأباطرة على مصاحبتها لهم فى جميع رحلاتهم. ويحيط بهؤلاء جميعاً الحرس الإمبراطورى بملابسه الثمينة، وعلى رؤوسهم قبعات عالية مطرزة الجوانب بالذهب وفى وسطها قطع من لبد الأسد ويمسك بعضهم بالخيول وقد ارتدت كل لوازمها محلاة بالذهب والجواهر الثمينة.

وإذا ما صادف وقوع أحد الأعياد الدينية خلال الرحلة، احتفل به احتفالا بالغ الأبهة، ويقال أن لبنا دنجل كان أول من احتفل بعيد الصليب وإن كان هذا غير صحيح فقد أثر عمن قبله احتفالهم به، إذ هو عيد وثنى قديم يرتبط بتغير المواسم حتى إذا جاءت المسيحية صبغته بصبغتها وجعلت منه عيداً دينياً.

وكان سير الموكب الإمبراطورى تحف به دائماً المهابة والأبهة، يحيط به الفرسان ورجال الحاشية حتى كان سقوط أحدهم — نتيجة لخطوة خاطئة — إلى هوة سحيقة تمزقه إرباً، لا يعوق الموكب عن متابعة سيرة كأن شيئاً لم يحدث.

على أن النصف الثانى من عصر لبنا دنجل شهد انهيار هذا كله، نتيجة لحروب الإمام أحمد بن ابراهيم الذى تقـــدم منتصراً، ويكتسح الجيوش الإمبراطورية، ويبسط سلطته على معظم إثيوبيا. فأرسل الإمبراطور الوفادة إلى البابا وإلى ملك البرتغال يطلب النجدة والمساعدة لقـــاء تبعية الكنيسة الإثيوبية لكنيسة روما، ومات الإمبراطور قبل أن يرى لوفادته نتيجة. وخلفه ابنه الإمبراطور جلاوديوس الذى استطاع أن يهزم جيوش الإمام بفضل المساعدة البرتغالية التي أرسلها له ملك البرتغال.

وكان أحمد بن إبرهيم هذا فى أول أمره جنديا من جنود الإمبراطور يعمل تحت قيادة الجرد آبون ، الذى وجهه الإمبراطور لبنا دنجـل لمحاربة أبو بكر بن محمدبن ازر سلطان ايفات،حين جمع حوله جموعاً من الصوماليين وقطاع الطريق ، وعاث فى شرق البلاد فساداً ، ونجح الجيش الإمبراطورى فى القضاء على هؤلاء اللصوص . وسلم أبو بكر بن محمد بن ازر نفسه وندم على مافعل ولـكن بعد أن قتل الجردآبون ، قائد الجيوش الإمبراطورية . فنصب مكانه أحمد بن إبراهيم وكوفىء على ولائه بمنصب حاكم هرر .

وعرف أحمد بن ابراهيم دائماً بشدة تدينه وتقواه حتى لقد لقب بالإمام ، فاستغل الأتراك فيه هاتين الصفتين واتصلوا به فى هرر . وأقنعوه أن قيام دولة اسلامية فى اتيوبيا تجعل من البحر الأحمر بحيرة إسلامية ، تتسودها الأساطيل العثمانية ، فكان هذا العامل الأجنبى هو السبب الأول فى قيام الثورة الجامحة التى اتسمت بالعداوة الدينية للمرة الأولى فى تاريخ اتيوبيا .

فإتيوبيا فى تاريخها الدينى كله لم تعرف العداوة الدينية كما ذكرنا ، ولا التعصب لمذهب دون آخر ، فقد اختلفت دياناتها منذ القدم ، ودخلتها اليهودية فلم يرغم حكامها أصحاب الديانات القديمة على اعتناقها ، كما لم تقم الحروب بين قبائلها بسبب اختلافهم فى الدين ، وإذا ما جاء دور المسيحية ودخلت المسيحية فى القرن الرابع ، واعتنقها الملوك أولا واتخذوها ديانة رسمية للدولة ، لم يحاول الملوك مطلقاً إرغام أحد على اعتناقها ، بل انتشرت انتشاراً هادئاً بطيئاً على يد قسس من الأقباط والإتيوبيين، دون تدخل من الدولة . كما عاشت الوثنية بعاداتها القديمة المختلفة جنباً إلى جنب مع اليهودية حتى القرن الرابع ، وعاشت هذه الديانات ومعها المسيحية حتى الآن جنبا إلى جنب ، والناس أحرار فى اعتناق ما يشاءون وترك ما يشاءون .

ولقد أثر عن ملوك اتيوبيا منذ القدم هـذا الأفق المتسع ، حتى تسامع به الناس فى كافة الأقطار، وقال عنهم النبى صلى الله عليه وسلم أن (ملك الحبشة ملك لا يظلم عنده أحد) .

وإذا ما زارهم حسن بن أحمد الحيمى فى القرن السابع عشر ، بعد حروب الإمام أحمد بن ابراهيم المريرة القاسية ، التى فرقت بين أبناء البلاد تفريقا شديداً، ذكر عنهم أن أحد المسيحيين اعتنق الإسلام ، وغضب أهله لذلك وأرادوا أن يتقدموا إلى الحاكم ليرغمه على العودة إلى المسيحية ، فأجابهم أنه حر فى اعتناق ما يريد إذا أحب الدخول فى الإسلام لا يعترضه أحد .

كما ذكر أن ملوك (الحبشة) قد حاربوا الفلاشة (اليهود) وضايقوهم حتى غلبوهم وأخضعوهم . فدخل أغلبهم فى دين النصرانية ولم يبق منهم إلا اليسير غير أن الملوك لا يعترضونهم فى أمر الدين إنما يطلبون منهم الطاعة .

ولـكن شاء حظ الإتيوبيين العاثرأن يتصل الأتراك بأحمد بن إبراهيم التقى الورع ، فاستغلوافيه ورعه من أجل أغراضهم التوسعية ، والاتراك انفسهم لم يعرفوا الإسلام الحقيقى يوماً من الأيام ، إنما الذى عرفوه جيداً هو استغلال الإسلام من أجل أهدافهم ، ولعل الإشارة إلى إستغلال السلطان عبد الحميد الثانى ، فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرون للجامعة الإسلامية، من أجل أهدافه ، بينما كان هو وحكومته أفسد ما تـكون الحـكومات والسلاطين ما فيه الـكفاية.

كان الإمبراطور لبنا دنجل بن زرء يعقوب يمنى نفسه بحكم هادىء طويل، بعد أن سحق أبوه ثورات الثائرين ، فقتل أولاد سعد الدين أبى البركات وقضى على أنصارهم ، كما قضى هو على ثورة ابى بكر بن آزر سلطان ايفات . ولـكن الأتراك كانوا قد نزلوا بالشواطىء الشرقية كما ذكرنا واتصلوا بأحمد بن ابراهيم ومنوه بملك (الحبشة) المسلمة التى تدخل فى حلف مع الأتراك ، حتى إذا ما اقتنع

بهذه الفكرة ، أمدوه بالمدافع والبنادق كما أمدوه ببعض الجنود من الانكشارية يدربون جنده على هذا السلاح الجديد .

وإذا كان الإمام أحمد بن إبراهيم قد بدأ (جهاده) قبل أن يتصل به الأتراك كما تذكر بعض الروايات، فإن هذا الجهاد لم يكن موجها ضد الحكومة المركزية ، أو إمبراطوره . بل كان موجها فى أول أمره إلى مناهضة السلطان أبى بكر بن محمد بن آزر حين خرج على الإمبراطور ، وقد ذكر أن الإمبراطور وجه إليه جيشاً على رأسه القائد (الجرد) أبون ، كان الإمام أحمد يده اليمنى ، ولكن الأول مات فى الحرب . وإذا ما عرض السلطان أبو بكر ولاءه على الإمبراطور عين الإمام أحمد على هرر . فلم ترض هذه الخطوة الإمام أحمد الذى كان موضع التقدير من كثيرين من المسلمين . وكان السلطان محفوظ صاحب هرر الأول أحد المعجبين به والمقدرين لتقواه ، فزوجه ابنته دل ومبرا . وبلغ من حب النـاس له أن لقبوه بالإمام . فلم يملك الإمام أن يعبر عن سخطه على السلطان إلا بالخروج عليه وسار إلى مدينة أبت ومعه أكثر من مائة فارس أمروا عليهم القائد عمر دين سلطاناً إعلاناً لولائهم للامبراطور .

وكان طبيعياً أن يحرض السلطان أبو بكر الإمبراطور على محاربته ، فانتصر الأمام أحمد على جيوشهما ، ومات نسيبه محفوظ فى الحرب ، فاستقر هو فى هرر سلطاناً ، وإذا ما سعى الساعون للصلح بين السلطان والإمام ، اقر على سلطنة هرر ، ولكن اتصال الأتراك العثمانيين به ، ثم تقديمهم الأسلحة النارية وخاصة المدافع ، أغراه بالثورة لينصر الملة ويقيم الدين .

وبدأ الإمام أحمد حركته بضم الولايات الشرقية . وهى كلها متقاربة حتى إذا وثق من إخلاص سلاطينهما ، أعلن ثورته على الإمبراطور ، وتقـدم بجيوشه يكتسح الأجزاء الشرقية ، رافعا علمه الأصفر المطرز بالآيات والشعر

الحماسى ، فكان لهذا فعل السحر فى النفوس ، فانضم إليه الناس فى حماس بالغ . وفى أقل من عامين وصل إلى شاطىء النيـــل الأزرق بعد أن هزم الجيش الإمبراطورى فى معركة ساحقة هى معركة شمبرى كورى ، وتقدم يعبر الاباى إلى جودچام ، وظهر تفوقه الساحق لا فى انضمام الأهالى والسلاطين إليه فحسب ، بل حين سارع المسيحيون إلى اعتناق الإسلام ، ليتفادوا القتل والسبى ، ولم تمض خمسة أعوام (١٥٢١ — ١٥٣١) حتى كانت جيوشه قد اكتسحت جودچام كلها ، ووصل إلى سهل دمبيا مهددا العاصمة جوندار ، فهرب الإمبراطور وحكومته باحثين عن ملجأ يلجأون إليه ، ومن هناك ارسل الإمام جيوشه ـ بعد أن لقب بالغازى — لفتح بقيه اجزاء (الحبشة) ليتصل بسلاطين الفنج الذين أقاموا دولتهم الإسلامية حول سنار فى السودان قبل ذلك بأقل من نصف قرن .

ولم يجد الإمبراطور لبنـا دنجل إزاء هذا الخطر الساحق ، وإزاء هـذا السلاح الجديد ، سوى أن يلجأ إلى دولة قوية تملك هذا السلاح الجديد ، الذى لم يكن يعرفه ، ولم تـكن هذه الدولة سوى البرتغال ، كان المشجع له على هذا الاتجاه هو الملـكة هيلانه ، التى كانت قد شجعت اباه من قبل على أن يرسل رسله إلى مؤتمر فلورنسا ، كما شجعته أيضا على أن يلجأ إلى البابا كما فعل أبوه أيضا ، فأرسل لبنا دنجل الرسل إلى كليهما . وظل ينتظر هذه النجدة المرتقبة ، وهو يفر من بلد الى بلد يقاسى الجوع والمرض ، ومعه قلة من أنصاره على رأسهم الملـكة هيلانه زوجة ابيه ، هذا بينما كان الإمام أحمد قد أرسل رسله إلى أجزاء اتيوبيا المختلفة يحكمونها ويجمعون الضرائب منها . وأخيرا مات لبنـا دنجل وهو يرى بلاده ممزقة مهددة وخلفه جلاوديوس ، فظلت هيلانه تقف بجانبه وتقويه بمشورتها ورأيها الحصيف يبث فى نفس الإمبراطور وفى من بقى من أنصاره الشجاعة والقوة .

وظلت انيوبيا تعانى هذه الحالة السيئة عشر سنين كاملة ، وأخيرا جاءت النجدة ممثلة فى اربعمائةمن الفرسان البرتغالين ، ومعهم بعثة كاثوليكيةمن اليسوعين وتمكنت هذه الفرقة البرتغالية — بقيادة كرستوفر دى جاما — من أن تقضى على الإمام أحمد وحركته ، بفضل ما كان معها من مدافع وبنادق . وكان انصار الامام قد بدأوا ينفضون من حوله لما رأوه من تفوق النفوذ التركى ، وخطر ضياع استقلال بلادهم ، وكانوا يظنون أن الحركة دينية • وطنية ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الدين لم يكن إلا ستارا اتخذه الحليف وسيلة للقضاء على استقلال بلدهم ، فبدأوا يعودون إلى مواقفهم الطبيعية فى صف الإمبراطور ، الذى يدافع عن اتيوبيا الحرة المستقلة .

وقد حاول نور بن أخت الإمام أحمد ووارثه أن يخلفه فى قيادة ، الحركة ، ولكن ذهاب القائد الروحى أودى بالحماس الذى كان يدفع ببقية أنصاره، فهزم نور وفر ملتجئا إلى باشا مصوع التركى ، وإذا كان الاتيوبيون قد انتصروا ونجحوا فى المحافظة على استقلال بلدهم إلا أنهم فقدوا امبراطورهم الشجاع الذى سقط فى المعركة .

وحاول نور أن يعود إلى هرر مستعينا بالأتراك ، ولكن سبقته إليها جموع الجالا ، بعد أن خرجوا من طورهم السلمى وبدأوا يدخلون مرحلة الحرب والصراع من أجل الاستقرار،وكان هؤلاء الجالا قد قدموا من الغرب ،واستقرت منهم جماعات فى سهول كافا ، كما استقرت جماعات أخرى فى بورانا وتقدم الباقون نحو الشرق فدخلوا هرر أكثر من مرة، ونهبوها وخربوا أكثر منازلها، وهرب السكان أمامهم ، فكانت هذه المعارك بدء انهيار هرر وسقوطها،وجاء إليها نور بن مجاهد ليجدها أنقاضاً ففر من جديد إلى الشرق وانتهت أخباره وأخبار من معه .

وإذا كان دور الإمام أحمد بن ابراهيم قد انتهى بقتله سنة ١٥٤٢ وخيل لكل أحد أن الهدوء قد عاد إلى البلاد لتستعيد أنفاسها ، وتبنى ماهدمته أربعة عشرة سنة من الحروب المتواصلة المتلاحقة ، إلا أن حروبا أخرى كانت تنتظرها لتقضى على البقية الباقية من قوتها وهى الحروب التى شنها البرتغاليون الحلفاء ، ومن أجل محاولة تحويل اتيوبيا إلى المذهب الكاثوليكى . وإلى مستعمرة برتغالية .

فما كاد الإمبراطور جلاوديوس — قبل موته فى المعركة — يعود إلى قصره فى جوندار حتى وجد فى انتظاره ، بعثة يسوعية برئاسة الأب رودريجز Rodregez ينحصر طلبها فى أن يعترف جلاوديوس بحماية البرتغال له كما يعترف بتبعية الكنيسة الاتيوبية إلى الكنيسة الغربية ، بعد أن يقطع علاقته بالكنيسة المصرية ، فرفض جلاوديوس هـــذا العرض وناقش الأسقف الكاثوليكى فى الدين عدة مرات ، انتهت به إلى أن يضع كتابه المشهور (الاعتراف بالايمان) من أجل الدفاع عن عقيدته .

إزاء هذه المقاومة غير المنتظرة لم يتعفف البرتغاليون، تعضدهم الكنيسة الغربية، عن خلق ثوار جدد، تشجعهم وتمدهم بالمؤونة والسلاح ، إذا ما اطمأنوا الى أن هؤلاء الحلفاء سوف يكونون عونا لهم على تنفيذ مأربهم ، بل لم يترددوا فى أن يمدوا بأيديهم إلى الأتراك أعداء الأمس من أجل محاولة غزو اتيوبيا من جديد .

وكانت مساعدتهم للثوار واضحة إلى حد أن دعا الإمبراطور الجديد ميناس ابن جلاوديوس المطران البرتغالى إلى مقابلته وأمره فى لهجة قاسـيـة أن يوقف نشاطه وأن يترك البلاد .

وإذا كان البرتغاليون والكاثوليك قد طردوا هذه المرة من إتيوبيا وأخذ

الهدوء يعود إلى البلاد إلا أنهم لم ييأسوا فقد أخذوا يحاولون العودة مرة بل مرات وتحالفوا من أجل ذلك مع زيمور باشا حاكم مصوع ، الذى سهل لهم سبيل الدخول إلى البلاد نظير رسوم معينة ، ونجحوا أخيرا فى أيام الإمبراطور سوسنيوس Susenios لا فى ان يدخلوا البلاد فحسب ، بل فى ان يجدوا من الإمبراطور أكبر عون فى تنفيذ ما خيل اليهم انه السياسة البرتغالية الكاثوليكية، ولم يتعففوا من أن يتصلوا بالأمير نور بن مجاهد قبل موته ويمنوه بفرق جديدة تأتى من الهند لنصرته ، وبذلك أصبح واضحاً ان هناك تيارات كثيرة تتقاذف العرش ، وعلى الإمبراطور الماهر ان يسايرها وإلا تعرض للخطر ، ورأى سوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) ان الكاثوليك والبرتغاليين هم القادرون على أن يخرجوا ببلاده من عزلتها ، ويصلوها بالعالم الخارجى اتصالا لن يكون إلا ذا منفعة له ، فهذا الاتصال وإن بدأ دينياً إلا أنه لن يقف عند حد الدين فسوف يجر وراءه اتصالا ثقافياً واجتماعياً واقتصاديا ، وساعده على اعتناق هذا الرأى ما رآه فى الأب بايز Paez البطريرك الكاثوليكى الذى قدم فى سنة ١٦٠٣ أيام الإمبراطور ملك سجد الثانى من تفوق ذهنى ظاهر ، فما لبث الإمبراطور ان اعتنق المذهب الكاثوليكى سراً سنة ١٦١٩ . وجاهر بايز بهذا الاعتناق سنة ١٦٢١ ، واعلن نيته بفصم الرابطة التى تربط اتيوبيا بالكنيسة المصرية ، فما ان انتصر على ثورة أحد الثائرين وهو ملكيا كرستوس سنة ١٦٢٢ فى بيجامدر ، حتى عد ذلك ايذانا من الله بالجهر بمذهبه ، فذهب إلى اكسوم مع ابنيه وأخيه ورجال دولته ، واعلن انفصاله عن المذهب السكندرى واصدر مرسوماً بذلك .

ومن الطبيعى ان يثير ذلك حنق رجال الدين الوطنيين ، فتلفتوا يبحثون عن اعداء الإمبراطور يدفعونهم إلى الثورة ، ومن الطبيعى ايضاً ان يتخذ هؤلاء من رجال الدين الوطنيين ، تكأة ليبرروا بهم ثوراتهم أمام الاهالى

المتمسكين بعقيدتهم، والذين رأوا فى البابا ملكا أجنبياً وامبراطورهم تابعاً له ، فاعتبروا انفسهم غير مقيدين بيمين الولاء الذى اقسموه له ، بعد ان كرهوه . واتخذت هذه الكراهية شكل ثورات اشتعلت فى طول البلاد وعرضها فقاد اخواه يمانا كرستوس وملكيا كرستوس ثم زوج ابنته يوليوس ، ثم غبريال بن ملك سجد ملك شوا ثورات متلاحقة متتابعة وانقسم الشعب بين هؤلاء جميعاً وبين الملك ينصرون فريقا على فريق وزاد هذه الحالة سواءاً ثورة جوريون زعيم الفلاشا.

وفى وسط هذه الاضطراب الشامل والثورات المتعاقبة ، فقد الإمبراطور أهم مستشاريه وهو المطران بايز مرشده ومعلمه الروحى ، ورغم ذلك عمد الامبراطور إلى منازلة هؤلاء الخصوم جميعاً ، مما كان له اسوأ الأثر على البلاد ولكن الجنود لم يلبثوا أن أعلنوا أنهم لن يسيروا معه بعد ذلك . إلا إذا رد إليهم ايمانهم ، فأيقن الإمبراطور بفشل محاولته ، فاعتزل الدنيا كما اعتزل العرش ، وتركه لابنه فاسيلاداس (أنظر شكل ١٢) ، الذى عمل جاهدا على رأب الصدع ، وإعادة الاستقرار إلى البلاد بعد أن حرمته مدة ليست بالقصيرة ، فكتب إلى البطريرك الكاثوليكى يأمره بجمع رجاله فى مدينة فريمونا بالقرب من اكسوم ، تمهيدا للخروج من البلاد ، ليخلى مكانه للمطران المصرى الذى أرسل فى طلبه ، فصدع للأمر ، ولكن بعد ان اتصل بالبهرنجش يوحنا يقربه بالثورة ، ويمنيه بالمساعدة ، ولكن فشلت هذه المحاولة واضطر إلى ترك البلاد تحوطه اللعنة والمقت ، وخيل لكل احد أن البلاد قد وصلت إلى بر الأمان لتنعم بالراحة والطمأنينة .

وهناك من المؤرخين من يقف فى صف البرتغاليين ، ويوجه أشد اللوم إلى الإمبراطور ، الذى أغلق فى وجه إتيوبيا باب المدنية الأوربية ، فقد كانت

هذه المناسبة الفرصة الفذة ، التى قدمت نفسها لهذه البلاد الإفريقية لتخرج من ظلمات الجهل إلى نور المدنية والحضارة .

وهذا الكلام وإن بدا وجيها وصحيحاً فى ظاهره ، إلا أنه لم يكن يحمل من الحقيقة ظلها ، ففى هذا الوقت بالذات نزل البرتغاليون فى أماكن أخرى فى قارة أفريقيا ، نزلوا عند مصب الكونغو وتوغلوا إلى الداخل ولم تكن هذه البلاد والممالك المجاورة لها ، مكونة عن المتوحشين المتعطشين للدم كما وصفهم الأوروبيون ، بل كانت بلاد سلام ، عاش فيها الناس فى رغد وكانت ديانتهم مستقرة مصوغة فى قالب واضح بالنسبة للمجتمع القبلى الذى يعيشون فى نظامه ، وكانت قوانينهم متعددة وكاملة من الناحية الاجتماعية ، وكان ملك الكونغو على رأس هذا النظام وهو نصف كاهن نصف ملك ، ولكنه رأى فى قدوم الأوروبيين فرصة حين حملوا إليه نوعا جديداً من المعرفة ، فرحب بهم وتحالف معهم ، ولكن لم يمض وقت طويل على وصول هؤلاء (المتمدينين) حتى نشبت الحرب بين المتنافسين من أبناء الأسرة المالكة ، واستفاد البرتغاليون من ذلك حين ظنوا أن هذه الشعوب قد خلقت للرق ، فركزوا همهم فى جمع العبيد وظلت تجارتهم فيه مجزية لهم كل الجزاء ، فقد كان الطلب على الرقيق لا ينتهى من أجل العمل فى مزارع القطن وقصب السكر فى جزر الهند الغربية وأمريكا .

وقد سجلت خطابات الملك الذى عمد باسم الفونسو الأول ، خيبة الأمل التى لاقاها من هؤلاء القادمين فقد ظل يناضل (١٥٠٧ — ١٥٤١) ليضمن تحقيق الوعود التى اخذها من هؤلاء الذين وثق بهم ، فقد رأى البرتغاليين ومعهم رجال الكنيسه، لا يفكرون إلا فى الثروة التى يجمعونها ، كما رأى التجار ينهبون ويقتلون ، والنخاسة تزداد ، وملك البرتغال بل والبابا يصمان إذنيهما عن كل

نداء، وفى سنة ١٥٣٩ أرسل يلتمس للمرة الأخيرة العون من البابا ضد البرتغاليين، فأرسل بعثة إلى روما ولكن لم يكن هذا الرجاء لينير له بصيص نور.

وبعد وفاة الفونسو بدأ البرتغاليون استغلال احتكارهم على نطاق واسع، حتى تمكنوا فى الجزء الأخير من القرن السابع عشر من أن يفرضوا سيادتهم كاملة على الكونغو فتمكنوا من فرض الحكام الذين يختارونهم ليحكموا عن طريقهم.

وفى خلال هذا الزمن تحول الرجال إلى عملة نقدية وزالت آدميتهم وخلع عليهم الذل، حتى صاروا بضاعة تحمل اختامها، وتقسم إلى طبقات طبقا لأحجامهم وأوزانهم وطباعهم، ويباعون بالطرق المتبعة فى بيع الخيول والكلاب.

وكانت الكنيسة راضية عن هذه الفظائع ما دامت تأخذ نصيبها من هذه الأسلاب فقنعت بأن تطالب بتعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا. حتى يتيسر (انقاذ أرواحهم)، وفيما عدا ذلك لم تر الكنيسة أن هناك أية مخالفة. وراح الأسقف يجلس على مقعده الرخامى تجاه الشاطىء فيعمد العبيد ويأخذ نصيبه من رسوم التصدير، التى اضحت مورداً هاماً من الموارد المالية لحكومة أنجولا، وقد وجد الأب جاوان أن ضريبة التعميد فى القرن السابع عشر كانت تبلغ ثلاثمائة رايس يدفعها تجار الرقيق عن كل رأس، وكانت تذهب بأكملها إلى أسقف أبرشية بنجويلا، ولكن مما قد يذكر له بالخير أنه رفض أن يأخذ رسوماً على تعميد الأطفال الرضع، ولم يكن عددهم يزيد عن الخمسين. مقابل خمسة عشر أو عشرين ألفاً من الرجال والنساء كل عام.

فكانت هذه هى المدنية التى حملها البرتغاليون إلى الكونغو، هى نفسها التى كانوا سيحملونها إلى اتيوبيا. فإذا كان فاسيلاداس قد طردهم فهو لم يدافع

عن عقيدته وكنيسته ، بقدر ما دافع عن بلاده وشعبه من ذل الرق والعبودية ، بل من الفناء الكامل . الذى كان ينتظرها فى رفقة هؤلاء الأوروبيين المتمدينين.

ولم يلبث الملك أن دخل ميدانا جديداً من ميادين الحرب حيث وجد عدوا لا يقل مراساً إن لم يفق البرتغاليين ، ألا وهم قبائل الجالا والاجوا بعد أن تخلوا عن حياتهم السلمية . وكذلك الأتراك .

أما الجالا فقد دخلو اتيوبيا من الجنوب والغرب ، واتجهوا نحو الشرق يخربون البلاد التى يمرون بها ، وتستقر بعض قبائلهم أينما أرادت ، وتوالى بقيتها السير شرقا ، حتى وصلوا إلى هرر ، وقد اضنتها الحروب السابقة فخربوها ثم صعدوا إلى الشمال واستقر بعضهم فى الشرق بين النيل والطرف الشرقى للهضبة ، حيث تركزت قوتهم حين استقروا هناك وظلوا يناوشون الدولة ، والدولة تحاول القضاء عليهم مرة أو التقرب إليهم مرات ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التى أدت إلى ضعف البلاد .

أما الأجوا وهى القبائل الحامية التى احتفظت بيهوديتها ، والتى استعانت بهم الأسرة الأجوية فقد عادوا إلى ثورتهم ، أكثر من مرة والأباطرة يعملون متوالين على سحقهم .

أما الأتراك العثمانيون فقد استقروا فى الموانى الشرقية ومنعوا الأتيوبيين من الوصول إلى البحر ، واتصلوا أيضاً فى مرات كثيرة بالثوار الأتيوبيين يمدونهم بالسلاح ، ويحرضونهم على الثورة ، وكان من أكبر الثائرين البهر نجش (أى حاكم الولاية التى تطل على البحر) وحاربوا معه فى أكثر من حملة ، استطاعت فى بعض الأوقات أن تتوغل إلى مسافات كبيرة ، إلا أن القوة الامبراطورية استطاعت أن تضربهم وتتغلب عليهم ، فاكتفى الأتراك أخيراً بالاستقرار فى الشواطىء يمنعون أعداءهم من الوصول إلى البحر والعالم الخارجى .

وكان سوسنيوس قد صارع الأمراء الثائرين دون أن يستطيع التغلب عليهم وكان ابنه فاسيلاداس ينصره ويؤيده رغم مافعله أبوه ضد كنيسته ودينه وشعبه ، ولم يلبث الإبن أن اختلى بأبيه وأشعره بفداحة ما ارتكب ، وتبين الإمبراطور كبير جرمه ،وما جره على البلاد من إنقسام وخراب ، فأعلن إعادة المذهب الأرثوذكسى ، واعتزل العرش ليعيش فى دير ،وترك العرش لولى عهده فاسيلاداس (١٦٣٢ ــ ١٦٦٥) ليعيد إلى البلاد هدوءها وسكينتها . فطرد المبعوثين الكاثوليك واتفق مع حاكم مصوع التركى على أن يرقب السواحل الشرقية ليمنع دخول اليسوعيين ومن يماثلهم.

وقد كان هذا العمل من فاسيلاداس لطمة قاسية للبرتغاليين والنفوذ الأوروبى فى اتيوبيا ، فحاول الفرنسيون الولوج إلى البلد عن طريق آخر على أن تكون وسيلتهم طوائف أخرى من الرهبان غير اليسوعيين ، فاتجهوا إلى مصر وحاولوا الولوج إلى اتيوبيا عن طريق دولة الفنج التى قامت فى سنار ولكن قبض على هؤلاء الرسل وقتلوا وكتب على هذه المحاولة الفشل من جديد وعادت اتيوبيا من جديد إلى عزلتها السابقة بعد أن رأت ما جره الاتصال بأوروبا من خراب .

الفصل الخامس

عصر الفوضى

(١٦٦٥ ــ ١٨٨٩)

كان طرد فاسيلاداس للكاثوليك، ومن معه من الأجانب، نظيراً بإغلاق أبوات إتيوبيا فى وجه كل اتصال بالخارج ، من أجل الاطمئنان على سلامة الداخل . حقيقة أن فاسيلاداس حاول أن يقيم علاقات مع أحد جيرانه ، الذين لا يحس منهم خطراً على استقلال بلاده فأرسل إلى إمام اليمن المؤيد بالله بن القاسم ١٠٤٥ ـ ١٠٥٤هـ (١٦٣٤ـ١٦٤٥) ثم إلى أخيه المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم ١٠٥٤ـ١٠٨٧هـ (١٦٤٥ـ١٦٧٥م) يطلب رسولا (من أجل الإفضاء إليه بشىء لا يستطيع ذكره إلا لمن كان موضع الثقة من الإمام). ففهم الإمام ورجاله، أن فاسيلاداس لابد يريد اعتناق الإسلام ، الأمر الذى لا يستطيع الإفضاء به إلى أحد من شعبه مخافة الخروج عليه . فأرسل إليه الإمام المتوكل قاضياً كان موضع الثقة منه ، لأنه كان ينتدبه فى كثير من الأمور ، فيحسن التصرف فيها ، هو حسن بن أحمد الحيمى . فسافر إليه وقابله فى جوندار . ولكنه وجده يريد إقامة علاقات مستمرة وطيدة بعيدة عن رقابة الأتراك العثمانيين الذين استولوا على جزء كبير من الشاطىء المطل على البحر الأحمر ، فكانت خيبة مرة للرسول ولسيده فلم يوجهوا إلى الأمر عناية ما . فاليمنيون يفوقون الإتيوبيين حباً فى العزلة وزهداً فى الاتصال بالعالم الخارجى. ومن ثم ضاعت فرصة أمام إتيوبيا من أجل الخروج إلى العالم . فلم تملك إلا أن تعيش فى عزلتها. وهذه العزلة إذا كانت مدعاة للضعف عند كثير من الأمم فهى عند الإتيوبيين مدعاة إلى الموت ، فهى

تعتمد أكثر ما يكون من حيث الثقافة والدين والثروة على هذه العلاقات الخارجية .

ولم تكن هذه العزلة السبب الوحيد الذى أدى بالبلاد إلى ما سميناه بعصر الفوضى بل كانت هناك عدة عوامل تضافرت كلها على أن تدفع بالبلاد إلى هذا الطريق .

ولعل أحد هذه العوامل القوية هذه الحروب الطويلة التى قاستها البلاد خلال ثلاثة قرون كاملة . فمنذ أن قام صبر الدين سلطان عدل بثورته فى سنة ١٣٤٢م يسانده سلطان إيفات ، حتى نهاية عصر سوسينيوس فى سنة ١٦٥٥ ، لم تهدأ الحروب قط على نحو ما بينا فى الفصل السابق ، فكان أن أنهكت قوة البلاد إنهاكاً تاماً . علاوة على ما أصاب البلاد من خراب اقتصادى شامل ، سواء فى إنتاجها الزراعى أو الحيوانى ، فلا غرابة إذا اجتاحت البلاد كثير من الأوبئة والمجاعات التى جاءت ضغثاً على ابالة .

وعامل آخر من عوامل الضعف هو هذه القبائل التى غزت البلاد منذ نهاية القرن الخامس عشر ، والتى عاثت فى البلاد نهباً وسلباً ، وهى قبائل الجلا وهى قبائل عاشت أولا فى الأجزاء المنخفضة السهلة عيشة سلمية ، ولكنها لم تلبث أن أغريت على التحول عن حياتها السلمية إلى حياة الحرب والقتال . أغرتها على ذلك ظروف الخراب الاقتصادى والضعف الذى انتاب القبائل السامية القوية ، ومن حالفها من القبائل الأخرى فكأن هذه الظروف قد دفعت بها إلى أن تتحرك من مواطنها التى كانت قد استقرت بها ، واجتاحت جنوب البلاد وشرقه دون أن تجد قوة تعارضها، بل ربما كانت المقاومة الضعيفة التى لاقتها فى بعض تنقلاتها ، دفعت بها إلى أن تركب مركب العناد والتخريب والسلب والنهب ولقد وصفهم حسن بن أحمد الحيمي حين رآهم فقال إنهم

(أهل قوة فى أبدانهم وصبر على احتمال المضار وهم مسلطون على نصارى جهة الحبشة من جميع جهاتهم وأطراف بلادهم . وأكثر السبى إنمـــا يكون بأيدى هذه القالة) .

ولا ننسى أن النتيجة الطبيعية لطرد الـكاثوليك والأجانب من البلاد ، إنما هى تسلط رجال الدين على مظاهر الحياة الإتيوبية كلها لا سيما بعد أن نجحوا فى إرغام سوسنيوس على التنازل عن العرش . وكانت مصر هى مصدر القوة والثقافة لرجال الدين الإتيوبيين وذلك منذ أن أقيمت هذه العلاقة الدينية فى القرن الرابع ، وكانت الـكنيسة المصرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تعانى حالة من الضعف لا مثيل لهـا . بل لا نبالغ إذا قلنـا حالة من الانحلال لا تستطيع معها أن تقيم لها عوداً فى مصر نفسها ، فـكان من الطبيعى أن ينعكس كل ذلك على البلاد التى تستمد منها قوتها وثقافتها وحضارتها .

فإذا تضافرت كل هذه العوامل مجتمعة كانت النتيجة هذه الفوضى التى ظلت البلاد تعانيها أكثر من قرنين من الزمان . وبدت مظاهر هذه الفوضى فى أكثر من ناحية من نواحى الحياة الإتيوبية ، ولعل أجلها شأناً قوة الأباطرة عن أن يفرضوا سلطتهم على البلاد وقصر مدتهم وقيام الثورات المتعاقبة عليهم كذلك اضطراب الأمن وانتشار عصابات الشفتا وقطاع الطريق .

تولى العرش بعد الإمبراطور فاسيلاداس ابنه ياسو الأول سنة ١٦٨٢ ، وكان محبوباً من رعيته عطوفاً كريماً . راغباً فى خير أمته ولـكن ذلك لم يمنع ابنه تـكلاهيمانوت — تحت تأثير الطامعين من حاشيته — من أن يثور على أبيه . بل أفلح فى قتله فى سنة ١٧٠٦ واعتلى العرش بدلا منه ، ولـكنه لم يجلس عليه إلا سنتين حاول فى خلالها لويس الرابع عشر أن يتصل به .

وكانت هذه المحاولة من لويس الرابع عشر دينية بحتة ، إذعاود الـكاثوليك

معاودة الاتصال بإتيوبيا عن طريق غير طريق البرتغاليين وعن طريق غير طريق اليسوعيين، فكانت هذه المرة عن طريق فرنسى مدنى. إذ أرسل لويس إلى قنصله فى دمياط أن يجد فرصة ملائمة ليفتح علاقات سياسية مع إتيوبيا، فانتهز القنصل فرصة وجود مندوب إتيوبى فى مصر، يبحث عن طريق البطريركية القبطية فى مصر، عن طبيب يعالج الإمبراطور من مرض أصابه، فأرسل الطبيب الفرنسى بونسيه Poncet. ونجح الطبيب فى مهمته وعاد إلى الملك لويس الرابع عشر يحمل هدية من الإمبراطور إلى سيده فى فرساى.

وكان هذا مشجعاً للويس على أن يعاود الاتصال من أجل استمرار العلاقات. الأمر الذى يطمع الكاثوليك فيه، فأرسل إلى قنصله فى دمياط للمرة الثانية وهو جاك لنوادى رول أن يذهب بنفسه فاتجه نحو الجنوب يقصد إتيوبيا عن طريق سنار، وهناك قبض عليه وقتل، فاحتج الإمبراطور تكلاهيمانوت عند سلطان الفنج وتوترت العلاقات بين إتيوبيا وملوك الفنج مما أدى إلى تعطل التجارة السائرة إلى مصر عن طريق سنار لفترة طويلة من الزمن. وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة لأوروبا للاتصال باتيوبيا حتى بداية القرن التاسع عشر.

وخلف تكلاهيمانوت على العرش تيوفيلس، ولم تطل مدته أكثر من ثلاث سنوات خلفه بعدها يوسنيوس الذى كان مغتصباً وليس من أفرادالأسرة السليمانية، وكان من الطبيعى أن تقوم عليه الثورات من كل جانب فلم يستطع أن يحتفظ بالعرش طويلا. واعتلى العرش بكافا بن ياسو فعمل على سحق قوة الأشراف والرءوس. وهذا وإن كان غرضاً نبيلا يرمى إلى تركيز السلطة فى يده والقضاء على الفتن من أجل إعادة السلام والطمأنينة، إلا أن وسيلته كانت حروباً متواصلة قضت على الأخضر واليابس وقعت مغبتها على رأس الشعب.

ولم تطل مدته هو الآخر ، فمات بعد تسع سنوات ليخلفه ياسو الثانى سنة ١٧٣٠ فكانت الحرب بينه وبين الرءوس والزعماء سجالا ، كما قاد حملة إلى سنار خلال حكم الملك بادى الرابع الملقب بأبى شلوخ فى أبريل سنة ١٧٤٤ وأعطى قيادتها إلى أحد أمراء الفنج المغضوب عليهم والهاربين إلى إثيوبيا ، مما يدل على استمرار التوتر بين الدولتين منذ أن قتل القنصل الفرنسى أيام تكلاهيمانوت إلا أن الحملة فشلت وغنمت سنار غنائم كثيرة ذات أهمية .

ومات ياسو فى سنة ١٧٥٥ وترك البلاد مسرحاً لكثير من الفتن المتواصلة أقام فيها الرءوس سلسلة من الملوك وعدداً من الأباطرة ، لم يزيدوا عن كونهم دمياً فى أيديهم يحركونهم كيف يشاءون ، وكثيراً ما كانوا يختلفون معهم فتمتد أيديهم إليهم يقتلونهم بعد أن تعبوا فى تنصيبهم ، وحاربوا دونهم ، كما كان الحال أيام بكافا الثالث (١٧٦٩) وأخوه يؤنس الأول فى نفس العام . ثم تكلاهيمانوت الثانى فى سنة ١٧٧٧ ثم تكلاجورجيس فى سنة ١٧٨٠ .

وفى خلال هذه الفترة زار اتيوبيا المستكشف الأسكتلندى جيمس بروس James Bruce للبحث عن منابع النيل[1] ، وترك لنا وصفاً شيقاً لرحلته فى خمسة مجلدات نستطيع أن نستشف منه وصفا لحالة اتيوبيا الداخلية ، حين كان الإمبراطور لا يملك من الأمر شيئاً . يغلبه على كل الأمور بعض الزعماء الذين أحاطوا به ، وكانت هذه الحاشية منقسمة على نفسها وتكون فى داخلها أحزاباً يحاول كل منها التسلط على الإمبراطور الضعيف وقد أقام جيمس بروس فى اتيوبيا سبع سنين ، كان فيها موضع الاحترام ، بل لقد عين حاكما لإحدى مقاطعات اتيوبيا هى مقاطعة رأس الفيل بسبب نجاحه فى معالجة الإمبراطور الصغير من مرض كان قد ألم به مما جعل والدته تميل إليه ، وتترك له حرية التصرف

(١) أنظر كتاب « كشف أفريقيا » إشراف المؤلف .

فى كل أمر يريده . وقد تمكن خلال هذه المدة من إكتشاف بحيرة طاناو مخرج النيل من طرفها الجنوبى ثم نهر أباى الصغير وأخيراً اتجه إلى الغرب حتى وصل القاهرة عن طريق النيل .

وفى خلال المدة التى انقضت من ١٧٨٠ إلى ١٨٥٥ لم يستطيع أمبراطور واحد أن يجلس على العرش مدعياً إنه (نجوس نجست) ملك الملوك بل تقاسم البلاد أكثر من أمير يحاول أن ينشر نفوذه فى مقاطعة أو أكثر ولذا استحقت هذه الفترة من التاريخ بالذات أكثر من غيرها إسم (عصر الفوضى الكبير) وكان أظهر الرءوس فى نهاية هـذه المدة أى خلال النصف الأولى من القرن التاسع عشر ثلاثة هم الملك سهلا سلاسى فى شوا ، وهو الذى ينتمى إلى الأسرة السليمانية ، ثم الرأس عالى فى أمهرا ، ثم الرأس ووبى فى تجرى ، واجتهد كل من الأخيرين فى اختراع الوثائق التى تثبت أنه الوارث الحقيقى للعرش السليمانى وأعترفت فرنسا بالرأس ووبى وأرسلت إليه بعثة رسمية تعقد معه معاهدة صداقة، بينما اعترفت انجلترا بالملك سهلاسلاسى وأرسلت إليه بعثة أخرى، ولكن الذى ظفر بالعرش أخيراً فى جوندار كانت شخصية رابعة استطاعت أن تتغلب على جميع الأمراء المتنافسين فجلس على العرش باسم تيودور الثانى .

ولم يكن الفتى كاساً فى أول أمره سوى فرداً عاديا ، ابناً لامرأة فقيرة تبيع الدواء فى شوارع جوندار . انضم إلى عصابات الشفتا وقطاع الطريق . وكان يؤجر نفسه لمن يرغب وينضم إلى قوات هذا الراس أو ذاك ، وكانت النتيجة أن مهر فى الفروسية والقتال . وإذا ما حاولت القبائل السودانية الضاربة على الحدود الإغارة على الحدود الاتيوبية ، انضم كاسا إلى صفوف المدافعين ، واكتسب بشجاعته إعجاب الناس فالتفوا حوله ورضوا برئاسته . فخورين بالعمل تحت قيادة شاب شجاع مثله .

وفى سنة ١٨٥٣ هجم الراس عالى على الراس وو بى فى جوندار وتغلب عليه وملك المدينة، بل بعث إلى مصر يستقدم مطراناً يتوجه. ولكنه لم يهنأ بانتصاره إذ هاجم كاسا المدينة وهزمه وشتت قواته فى سنة ١٨٥٤ ، وأعلن نفسه نجوس نجست، بإسم تيودور الثانى، وطلب من المطران سلامة الثالث الذى كان قد قدم بناء على استدعاء الراس عالى[1] تتويجه ، واعترفت به انجلترا وأرسلت إليه المستكشف البريطانى سولت قنصل انجلترا فى مصر ، كما اعترف به سهلاسلاسى ملك شوا رغم انتمائه إلى الأسرة السليمانية الشرعية وعدم انتماء تيودور إليها .

وأرسل تيودور إلى كل من انجلترا وفرنسا يطلب الإعتراف به أمبراطوراً ولكنه لم يتلق رداً فكان ذلك سبباً فى انتهاجه سياسة عدائية صارمة نحو رعايا هاتين الدولتين ، بل أيضاً سياسة وحشية نحو أعدائه فاندفع يقتلهم دون رحمة أو شفقة ، حتى لقبه الناس (بمصاص الدماء) وكانت الحملة البريطانية فى سنة ١٨٦٨ بقيادة الجنرال نابيير Napier هى التى وضعت حداً لحكمه حين انتحر قبيل المعركة فى أبريل من نفس العام

وعادت البلاد إلى الفوضى السابقة ، واقتسم البلاد من جديد ثلاثة من الزعماء هم جوباز راس أمهرا ،وكاسا راس تجرى ، ومنليك ابن بنت سهلاسلاسى ملك شوا وكان الأخير أسرعهم إلى العمل حين أعلن نفسه نجوس نجست بينما أخذ الأولان يستعدان للحرب ، ولم تكن هذه الحرب التى دارت بينهما سهلة

(١) لم يلبث الخلاف أن نشب بين الأنبا سلامة المطران المصرى والإكليروس الأتيوبى ، بشأن مسألة دينية ، وساءت العلاقة بين الكنيستين إلى حد كبير فندب البطريرك المصرى فى القاهرة أحد الرهبان المصريين ليحسم هذا الخلاف، وحمله خطاباً إلى الإمبراطور بوجهة نظر الكنيسة المصرية فى هذه المسألة ، إلا أن الراهب المصرى فشل فى حل أسباب الخصام، وعاد إلى القاهرة، ولكن قدر لهذا الراهب بعد ذلك أن يرقى منصب البطريركية ، ويزور أتيوبيا لحسم خلاف جديد نشأ بين الحكومتين الأتيوبية والمصرية ، بشأن الحدود ، ونجح فى مهمته، وهذا هو البابا كيرلس الرابع الذى كان أول من زار أتيوبيا من البطاركة المصريين .

ولا هينة ، فقد استمرت عشر سنوات كاملة بينما كان منليك يرقبهما عن بعد حتى إذا انتصر كاسا وأخذ جوباز أسيراً أعلن نفسه نجوس نجست باسم يوحنا الرابع .

وكان من الطبيعى أن تدور الحرب بينه وبين منليك إلا أنه لم يستطع أن يتغلب عليه كما تغلب على جوباز ، فتهادنا على أن يتنازل منليك عن لقب نجوس نجست مكتفياً بلقب ملك شوا ، وأن تتزوج زاوديتو ابنة منليك من سهلاسلاسى ابن يوحنا ، ونص فى عقد الزواج على أن يخلف منليك الإمبراطور يوحنا على العرش .

وكان من الطبيعى أن تنتج هذه الفوضى أثاراً سيئة على البلاد لعل أولاها طمع الدول الأجنبية فيها ، وكان هذا الطمع هيناً فى أول أمره اتخذ مظهر البعثات التبشيرية التى أرسلتها هذه الدول الإستعمارية .

وكانت أول بعثة تصل إلى أتيوبيا هى بعثة الأب كرستيان كوجلر البروتستانتية Christian Kogler ثم بعثة الأب صمويل جوبات الأنجلو كنية Ssmuel Gobat إذ وصلا إلى ميناء مصوع فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٢٩ ومات كوجلر بعد عام من جرح فى زراعه أصيب به من جراء انفجار بندقية حاول اطلاقها ، بينما ظل جوبات فى البلاد حتى سنة ١٨٣٣ ،وعاد جوبات إلى إتيوبيا فى العام التالى يصحبه الأب أيزنبرج Isenberg ولكنه اضطر إلى العودة إلى أوروبا عام ١٨٣٦ ،بسبب سوء صحته، ثم جاءت بعد ذلك بعثة لودفيج كراب Ludwig krapf وحاولوا الاتصال برجال الدين الوطنيين متظاهرين أنهم لا يريدون سوى مساعدتهم على قراءة الانجيل باللغة الأمهرية ، ولكن الأتيوبيين نظروا إليهم — كما يقول كراب — كلصوص (يحاولون سرقة الخراف من الحظيرة) ولكنهم رغم ذلك لم يسيئوا إليهم . ولم يجد المبشرون أرضاً سهلة فى أتيوبيا كما كانوا يظنون ، فقد اعترف الأب جوبات فى تقاريره التى

أرسلها إلى جمعيته، أنه وجد جميع كبار الأتيوبيين يرسلون بأولادهم إلى الأديرة لتعلم القراءة والكتابة وبعض أوساط الناس يذهبون من تلقاء أنفسهم إلى الأديرة، بل قبل بعضهم أن يخدم في منازل الكهنة دون أجر لأجل أن تتاح له فرصة التعلم منهم. كما اكتشف الرءوس أن هذه البعثات لم تكن إلا مقدمة للنفوذ الأجنبي الذي يحاول أن يودى باستقلالهم، فطردوهم. فلم تجد البعثات البروتستانتية من تلقى عليه مسؤلية هذا الطرد سوى البعثات الكاثوليكية التي كانت تنافسهم فلم يسعهم سوى أن يخرجوا معترفين بفشلهم معزين أنفسهم عن هذا الفشل بأنهم وجدوا الاتيوبيين معترفين ببعض الحقائق التي يؤمنون بها مثل التثليث وقدرة الله الخالق، وسقوط الإنسان فى الخطيئة، وفدائه بواسطة السيد المسيح كما يعتقدون فى الروح القدس والملائكة، والكنيسة والأسرار والتجسد والآخرة ثم الجزاء والثواب.

وكان الفشل الذي أصاب هذه البعثات التبشيرية هو الذي دفع بالدول الإستعمارية لأن تتقدم خطوة أخرى نحو غايتها. فكانت الدسائس التي احتضنتها كل من انجلترا وفرنسا المتنافستين على الميدان الأفريقي وكانت انجلترا تحقد على فرنسا نجاحها فى مصر وظفرها بمشروع حفر قناة السويس كما كانت فرنسا تحقد على انجلترا نجاحها فى إتيوبيا، وتنصيبها الإمبراطور تيودور وأفلحت هذه الدسائس حين تسمم الجو بين إتيوبيا ومصر من جراء غارات القبائل التي تعيش على الحدود بين أتيوبيا والسودان الشرقى، وكادت الحرب أن تقع بينهما، ومال كل من تيودور وسعيد باشا إلى الحرب لولا أن تدخل الباب العالى لدى تابعه سعيد، وطلب منه أن يستبدل بسياسة القوة سياسة اللين فاتجه سعيد إلى الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط يسأله السفر إلى أتيوبيا من أجل إعادة للودة إلى ما كانت عليه ونجح البطريرك فى ذلك وعاد محملا بالهدايا (١).

---

(١) أنظر مقال « كيرلس الرابع وأتيوبيا » للمؤلف ضمن مجموعة مقالات كتاب « البابا كيرلس الرابع ».

وكأن وصول هاتين الجارتين إلى هذه النتيجه ، كان أمراً مؤسفاً لكل من انجلترا وفرنسا فكان لابد من التقدم نحو أغراضهما الاستعمارية خطوات أكثر إيجابية ، وكانت الحملة البريطانية على أتيوبيا فى سنة ١٨٦٨ من أجل القضاء على حكم تيودور بعد أن انقلب من الصداقة إلى العداء وانقلبت انجلترا إلى الرأس كاسا تنشد صداقته فاتفقت معه على هذه الحملة التى تضع حداً لحكم تيودور وتسلم العرش إلى صديقها ، وكانت انجلترا تميل فى هذا الوقت إلى سياسة اتساع النفوذ البريطانى عن طريق التجارة والسلم أكثر مما تميل إلى تأسيس امبراطورية قائمة على القوة . وكانت مصر قد اتجهت من جديد إلى معارضة تيودور وذلك منذ أن دخلت مصوع فى سلطتها فى سنة ١٨٦٦ أيام اسماعيل وأخذت فى تأمين المواصلات بينها وبين كسلا وفكرت فى مد خط حديدى بينهما يمر بسنهيت التى اعتبرها اسماعيل داخلة فى حدود (الامبراطورية) وعارضه فى ذلك تيودور .

فاذا ما فكرت انجلترا فى إرسال حملة نابيير Napier طلبت من اسماعيل أن يأذن لها باجتياز بعض الأراضى المصرية على البحر الأحمر ، فلم يكتف اسماعيل باجابتهم إلى ذلك ، بل وضع الأسطول المصرى الذى كان فى هذا البحر تحت تصرفهم، وأرسل إلى مصوع زهاء ثلاثة آلاف جندى ، وكلف حاكم مصوع بمساعدة الانجليز ، وكان أن نجحت الحملة البريطانية فى غرضها كما بينا ، وجلس على العرش الأتيوبى الإمبراطور يوحنا الرابع وكانت الهدية التى تركها البريطانيون ليوحنا هذا،وهى اثنا عشر مدفعاًوألفاً بندقية عدا كثير من المؤن إلى جانب المستشار الحربى جون تشارلز كركهام ، هى التى كتبت النصر له .

وقد اشتركت مصر فى هذه الحملات الحربية ، فقد أراد اسماعيل أن يؤمن

ميناء مصوع فيستولى على ظهير لها . فأرسل منزنجر حاكما لها وخوله سلطة العمل على استمالة المشايخ الرءوس تمهيداً للغزو .

حتى إذا كانت سنة ١٨٧٢ وشغل يوحنا فى حروب الجلا فى الشرق احتلت الجيوش المصريه سنهيت .

وفى سنة ١٨٧٥ تنازل الباب العالى لاسماعيل عن مينائى زيلع وبربرة ، فأراد أن يكون لهما ظهير يحميهما ، وتطلعت أنظاره إلى منطقة هرر ، لا سيما وقد كتب اليه أهلها يستنجدون به من سلطانهم الذى استبد بهم ، فأرسل اليهم حملة بقيادة رؤوف باشا احتلت هرر فى أكتوبر من نفس السنة ، وقبضت على السلطان محمد شحيم وقتلته [١] .

وكان هذا النجاح داعياً لإسماعيل لأن تزيد أطماعه فى هذا الركن، فعول على أن يستولى على كل إقليم سمى ، وكان يوحنا غير غافل عن الأطماع المصرية فأرسل بجيشه ليستقر فى حماسين يحافظ عليها ويرقب مجرى الأمور هناك .

ولم تلبث الحملة المصرية أن خرجت من مصوع فى نوفمبر تقصد أسمرة حتى إذا استولت عليها بعد مقاومة يسيرة ، أطمعها ذلك فاتجهت إلى عدوة ، وكان يوحنا يراقب هذا التقدم ويتظاهر بالضعف والتراجع ، ولكنه لم يلبث أن تبين الساعة الحاسمة فهجم على المصريين بقوة بلغت أضعاف القوة المصرية ، فما هى إلا نصف ساعة حتى أبيدت القوة الرئيسية المصرية عن آخرها ، وكانت هذه الهزيمة الساحقة هى التى دفعت بالقائد العام للحملة وهو أراكيل نوبار إلى الانتحار فراراً من عار الهزيمة ، وانسحب يوحنا من المعركة بعد أن ترك للراس هايلو ، أمر القضاء على بقية القوة المصرية ، فلما رأت القوة المصرية ذلك انتهزت الفرصة وأخذت فى الانسحاب ونجحت فيه رغم صعوبته .

وحاول منزنجر أن يخفف من هول هذه الهزيمة بحملة أخرى صغيرة

(١) كان السلطان شحيم قد انضم إلى القوات المصرية إلا أنه عاد وقاد ثورة على الحكم المصرى فشلت وقتل فيها

يكسب فيها بعض النصر ، ولكنه هوجم فى الليل وأبيدت قوته كلها وذبح هو وأسرته .

ووصلت أخبار هذه الهزيمة إلى القاهرة فاندفعت الحكومة إلى فكرة وجوب الانتقام لهذه الحملة الفاشلة ، فجهزت حملة جديدة بقيادة راتب باشا ، ومعه الجنرال لورنج الأمريكى رئيساً لهيئة أركان الحرب . وكان التفكير فى هذه الحملة وإعدادها سريعاً بحيث لم تتعد المدة شهراً واحداً .

واتخذت هذه الحملة الجديدة مصوع قاعدة لها . وبدأت بالزحف فى يناير سنة ١٨٧٦ وجعلت ترسل الرسل إلى الزعماء الأتيوبين محاولة استمالتهم إلى صفها . بينما تقدم يوحنا بجيوشه نحو الشمال . وفى مارس التقي الجيشان ودارت المعركة ، وكان هجوم الأتيوبيين دافقاً كأمواج البحر ، رغم اشتداد المدفعية المصرية . وكان الأمير حسين بن إسماعيل يشهد المعركة فلم تلبث الحرب أن اقتربت منه وأراد هو ومن معه أن يتفاداها فانسحب وشاهد الجند انسحابه فتابعوه ، فكانت فرصة العمر للأتيوبيين فانتهزوها ، فكانت هزيمة ثانية أشنع من الهزيمة الأولى . ولكن هذا النصر الذى حازه يوحنا لم يكن هيناً ولا رخيصاً فقد بلغ عدد قتلاه أكثر من خمسة آلاف عدا الجرحى الذين لم تتناولهم الإحصاءات ،

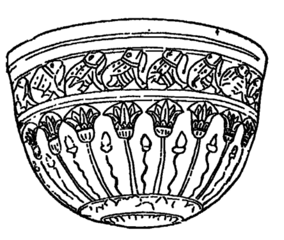
وإذا كانت هذه الحملات قد انتهت بالفوز بالنسبة للأتيوبيين ، إلا أن مؤامرات جوردون وقد عين حكمداراً للسودان لم تقف عند حد فأخذ يحرض كل غاضب على الأمبراطور ويبذل له العون .

ولم تلبث الثورة المهدية أن قامت فى السودان ونجحت فى إقامة حكم وطنى فيه ، ولكن علاقة يوحنا بهذا الحكم الجديد لم تكن أقل سوءاً مما كانت مع الحكم المصرى ، ورغم العرض الذى عرضه يوحنا على عبد الله التعايشى





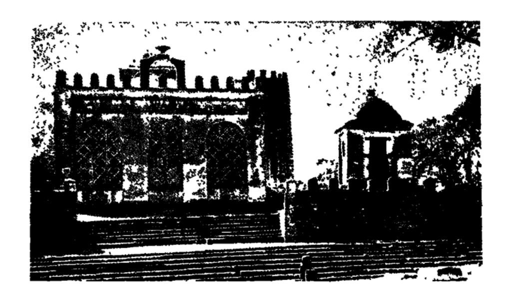
وجها عملة ذهبية للملك افيلاس (القطر ١٨ سم)



جفنة من البرونز عثر عليها فى ازبى ديرار وعليها زخارف من زهرة اللوتس
وهى دليل العلاقة بين مصر واتيوبيا فى العصور القديمة



عملة ذهبية للملك عيزانا
ويرى عليها الصليب مكررا ثلاث مرات وهى دليل اعتناقه المسيحية



كنيسة صهيون ــ وهى أقدم كنائس اكسوم

أن تتحد القوى الأفريقية للوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية فإن هذا الأخير لم يكن ليتصور مطلقاً أن يقوم تعاون بين قوة إسلامية وأخرى مسيحية مهما كان مظهر هذا التعاون وهدفه . ولذا استمرت الحرب بين الجارتين رغم عدم وجود مشاكل جدية بينهما ، سوى غارات القبائل المتنقلة التى تعيش على الحدود والتى دأبت على التنقل بين الدولتين لا تعرف ولا تعترف بالحدود السياسية بينهما ، وكان عبد الله قد أرسل إلى الملك يوحنا خطاباً يدعوه فيه إلى اعتناق الإسلام والدخول فى طاعته ، حتى إذا لم يتلق رداً عليه أرسل إلى يونس الدكيم عامله على القلابات بالإغارة على البلاد (الحبشية) فأغار عليها مرتين حيث خرب وقتل وغنم وسبى ، فلم يملك الملك يوحنا إلا أن يستعد للحرب لا سيما وقد رفض التعايشى عرضه الخاص بالحلف الأفريقى ضد الخطر الأوربى ، لأن الايطاليين كانوا قد نزلوا بمصوع منذ أخلتها مصر فى سنة ١٨٨٥ وأخذوا فى التوغل غرباً .

وفى مارس سنة ١٨٨٩ دارت الموقعة وانتصر الأتيوبيون على قوات التعايشى لولا رصاصة أصابت الإمبراطور يوحنا فانقلب الانتصار هزيمة ، وقتل من الأتيوبيين عدد هائل وغنم السودانيون جثة اعتقدوا أنها جثة الإمبراطور بينما يقول الأتيوبيون أنها جثة هيلامريم أحد قوادهم .

على أن هناك مظهر آخر من مظاهر هذه الفوضى، كان أبلغ أثراً فى أتيوبيا من غيره من العوامل . ذلك هو تكالب الدول الأوروبية على استعمار أجزاء من أفريقيا .

وكانت إيطاليا قد حققت وحدتها أو بعض وحدتها فى سنة ١٨٦٦ روغبت أن تجعل من نفسها — رغم قصور إمكانياتها — دولة عظمى كغيرها من الدول العظمى التى تملك مستعمرات فيما وراء البحار ، وطافت بأذهان حكامها

أحلام الدولة الرومانية القديمة واستعادة المجد القديم ، وبعد كثير من التردد اتجهت أنظارهم إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر حيث اشترت شركة تجارية إيطالية هى شركة راباتينو للملاحة البحرية من أحد الزعماء المحليين أرضاً حول ميناء عصب وبدأت فى اتخاذها مركز تموين لسفنها . فرأت الحكومة أن تحل محل الشركة فى هذه الأراضى ، فأرسلت اليها بعثة حررت عقد التنازل نظير ٢٥ الف جنيه ، ثم صدر مرسوم باعتبار هذه المنطقة مستعمرة إيطالية . وأرسلت اليها أعداداً من المسجونين الذين بدأوا باستغلال ملاحاتها وتموين السفن التجارية التى تقصد الهند .

وغنى عن الذكر أنه لولا ضعف سلطة الحكومة المركزية الأتيوبية على الزعماء ، وعدم شعور هؤلاء الزعماء ، وخاصة فى الأماكن المنخفضة من البلاد ، بسلطة الحكومة عليهم ، لما تجرأ زعيم هذه المنطقة عن بيع منطقته .

وفى سنة ١٨٨٥ انتهى حكم المصريين فى السودان كما مر بنا واعتبر أرض خلاء ودعيت إيطاليا لاحتلال ثغر مصوع ففعلت ، وأنتج هذا الاحتلال شبه حمى استعمارية وخاصة بين أعضاء مجلس النواب ، وأراد كل إيطالى أن يكون جديراً بشرف الانتساب إلى البنادقة والجنوبيين وأهل بيزا الذين كانوا سادة التجارة فى العصور الوسطى . بل نادى بعضهم بفكرة إيطاليا العظمى تشبهاً ببريطانيا العظمى ، واتجهت أنظارهم إلى ضرورة إحياء هذه المستعمرة ، لاسيما وقد احتلت أيضاً موانى بيلول وأركيكو وزولا ، وفكرت فى وصل مستعمرة عصب بمستعمرة مصوع وخلق مستعمرة واحدة منهما . بنت على امتلاكها آمالا عظاما ، لا سيما وانجلترا تعضدها ، فعقدت معها بروتوكلات ٢٤ مارس و ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ التى حددت النفوذ لكل منهما فى شرق أفريقيا ، فأكدت لإيطاليا حقها فى السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على شرق أفريقيا

الذى يطل على البحر الأحمر وخليج عدن لقاء منح بريطانيا طريقا يشق أتيوبيا على أن لا تتعرض إيطاليا لمجرى نهر العطبرة بأى مشروع للرى يؤثر على سير مائه إلى النيل .

وبدأت أيطاليا مشروعات التوسع نحو الأرض الأتيوبية ولكنها هزمت أمام الراس ألولا فى دوجالى ، وما كانت هذه الهزيمة لتوقفها عند حدها ، بل ألهبت حماسها إذ تحول أغلب المعارضين للاستعمار إلى ناحيـــة المحافظة على ما بأيديهم إبقاءً على الشرف الإيطالى ، فأرسلت حملة تتقرب إلى منليك وقد اعتلى العرش الأتيوبى[1] على أثر وفاة الإمبراطور يوحنا فى موقعة القلابات أمام الدراويش فحصلت منه على وعد بالمساعدة لقاء هدية هى عشرة آلاف بندقية ونصف مليون طلقة ، فكان أن تقدمت إيطاليا واحتلت كيرين وأسمرة وكسلا وتسيناى ، بل احتلت جميع مقاطعة تجرى . بعد أن عقدوا مع الملك منليك معاهدة اوتشيالى التى نصت على أن يقدموا له هدية قدرها أربعة ملايين من الليرات وبعض الذخيرة والسلاح .

وكان منليك يشعر أنه فى احتياج إلى كل ذلك من أجل المشروع الذى كان يفكر فيه وهو الوصول بحدود دولته إلى النيل غربا وأعلنت إيطاليا للعالم أن (الحبشة) قد أصبحت محمية إيطالية .

---

(١) على أثر وفاة الإمبراطور يوحنا الرابع فى معركة القلابات ، أسرع منليك إلى الأسقف المصرى فى شواء ، وكان يدعى متاوس ، وسأله أن يتوجه إمبراطوراً على أتيوبيا ، وكان هذا الأسقف أحد أربعة أساقفة من المصريين ، أقيموا على أربعة مقاطعات أتيوبية لمساعدة المطران المصرى ، ولم يكن أحدهم يملك حق تتويج الإمبراطور ، إذ هــذا الحق محصور فى يد المطران ، فاعتذر متاوس عن هذا العمل ، فكتب منليك إلى البابا كيرلس الخامس فى القاهرة يسأله أن يأذن لمتاوس بتتويجه ، فرفع البطريرك درجة الأسقف إلى مطران ونصبه مطراناً على أتيوبيا ، واعتماداً على هذه الترقية ، قام متاوس بتتويج منليك إمبراطوراً ، فقطع بذلك الطريق أمام الرأس منجاشا بن يوحنا الرابع ، فاعتصم هذا الأخير فى إقليم تجرى ، يقاوم منليك ، حتى إذا تبين خطر الإيطاليين على بلاده ، انضم إلى الإمبراطور منليك ووقفا معاً أمام الخطر الإيطالى .

ولم يلبث كل من منليك والراس منجاشا ابن الإمبراطور يوحنا ومنافس منليك على العرش أن تبينا خطر الإيطاليين فاتحدا لمقاومتهم وأعلن منليك نقضه لمعاهدة أوتشيالى . وبدأ الاستعداد للحرب ودارت المعركة الأولى فى ديسمبر سنة ١٨٩٥ وهزمت فيها إيطاليا ، إذ قضى على الجيش الإيطالى ولم ينج منه إلا ثلاثمائة جندى .

وكانت هذه الهزيمة سببا فى تصميم الإيطاليين من جديد على كسب الحرب مهما كان الثمن ، لا سيما وقد صمم الإمبراطور منليك فى مفاوضات الصلح التى دارت على أن يتخلى الإيطاليون عن كل ما كسبوه من الأرض ، فتجدد القتال فى أول مارس سنة ١٨٩٦ فى موقعة عدوه الشهيرة التى استطاع فيها الاتيوبيون بهجومهم الساحق ، أن يقتلوا من الإيطاليين ستة آلاف ويأسروا مثلهم ويستولوا على جميع قطع المدفعية فكانت هزيمة من أشنع الهزائم التى منيت بها أمة فى القرن التاسع عشر (١) .

وكانت شناعة الهزيمة سببا فى أن تتردد إيطاليا فى الأخذ بالثأر لا سيما وقد تردد حلفاؤها (ألمانيا والنمسا) فى معونتها وذهبت صرخات الإيطاليين عبثا فى طلب النجدة . فسقطت الوزارة التى كان يرأسها كرسبى وخلفتها أخرى برئاسة رودينى ، قررت محاكمة القائد العام بحجة قيامه بعملية حربية دون الحصول على إذن من حكومته ، وأحيل على الاستيداع رغم براءته. وأسدلت إيطاليا الستار على المأساة بعد أن فضلت صداقة منليك على عداوته فعقدت معه فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ معاهدة أديس أبابا ، التى الغت معاهدة أوتشيالى ، واعترفت بالاستقلال التام لأتيوبيا ، وحددت الحدود النهائية بينه وبين أرتريا ودفعت له تعويضا ماليا قدره مليونان من الريالات .

---

(١) راجع كتاب « استعمار القارة الإفريقية واستقلالها » للمؤلف .

الفصل السادس

إتيوبيا في العصر الحديث

كان انتصار أتيوبيا فى موقعة عدوة ، بمثابة الناقوس الذى دق ليعلن للعالم ميلاد دولة جديدة ، آخذة بأسباب المنعة ، وتصميمها على أن تدخل ميدان الحضارة الأوروبية ، كما كان إنذاراً إلى الدول الأوروبية الاستعمارية بانتهاء أطماعها فى هــذا الركن من العالم . ولذا بادرت هــذه الدول إلى منليك تعلن إليه صداقتها وتصميمها على أن تكون علاقتها معه على قدم المساواة .

وكانت أول الدول سعياً إلى ذلك فرنسا ، التى عرضت عقد معاهدة صداقة نالت بمقتضاها امتياز مد خط حديدى بين جيبوتى (الميناء الفرنسى على ساحل البحر الأحمر) وأديس أبابا، وكان الجو بين فرنسا وإنجلترا قد تسمم حين انفردت إنجلترا باحتلال مصر ، فصممت فرنسا على أن تقف دائماً فى وجه إنجلترا فى كل مشروعاتها لا سيما فى قارة أفريقيا . فصممت فرنسا على أن ترسم من أجل هذا حزاماً فرنسياً أفريقياً يمتد عبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب .

ولذا بادرت فرنسا فزينت للامبراطور منليك مشروع مد حدوده الغربية إلى مجرى النيل ، وقدمت له الخبراء الفرنسيين والضباط الفرنسيين من أجل إخضاع المناطق الجنوبية الغربية من أتيوبيا ، وهى المناطق التى تسكنها قبائل الجالا الحامية والشنكلا الزنجية ، وبدأ العمل فعلا فى تنفيذ هذا المشروع بعد أن أمدته فرنسا بالأســلحة والذخائر . بينما سيرت فرنسا جيشاً فرنسياً من الكونغو الفرنسى بقيادة الجنرال مارشان ليقابل هــذا الجيش الأتيوبى عند أعالى النيل . ووصل الجيش الأتيوبى فعلا إلى منطقة السوباط ولكنه لم

يلبث أن انسحب عندما وجد نفســه وحيداً فى هــذه المنطقة ، إذ تأخر مارشان فى الوصول إلى نقطة الالتقاء أكثر من ثلاث سنوات حتى إذا وصل أخيراً على رأس مائتين من جنود السنغال إلى منطقـــة فاشودة، كان فى حالة يرثى لها من الإعياء ، ولم يمض عليه وقت حتى وصل الجنرال كتشنر قائد الجيش المصرى المتقدم من الشمال لاستعادة السودان ، فكان ذلك بدء مفاوضات بين الحــكومتين البريطانية والفرنسية انتهت بانسحاب الفرنسيين ، وقبر مشروع الحزام الأفريقى الفرنسى . ولــكن نجح الجيش الاتيوبى فى ضم منطقة فازوغلى السودانية إلى نفوذ حكومته ، كما نجح فى إخضاع سلطنة كافا المسلمة وإيصال الحدود الأتيوبية الجنوبية إلى حدود مستعمرة شرق إفريقية البريطانية وهى كينيا الحالية .

وكانت إنجلترا قد أرسلت إلى منليك الثانى بعثة تسأله الصداقة من أجل الاطمئنان على عملياتها الحربية ، التى كانت تنوى القيام بها من أجل استرداد السودان ، وكذلك فعلت الروسيا ، فأرسلت إليه كذلك بعثة عقدت معه معاهدة أعطت الروســيين حق بناء دير روسى فى أتيوبيا ، نظير مده بالذخيرة التى تلزمه فأعقبتها أيضاً معاهدة مع تركيا ، فكانت سلسلة المعاهدات هــذه بعد معاهدة أديس أبابا مع إيطاليا ، هى التى أعطت منليك الأمان الـكافى ليبدأ سلسلة المشروعات الضخمة التى انتوى القيام ، بها من أجل نقل بلاده من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

وجه منليك عنايته نحو الاهتمام بالأحوال الداخلية فابتنى عاصمة جديدة هى أديس أبابا فى الوادى الذى تطل عليه هضبة انطوطو وكان قد تردد طويلا بين أنطوطو وأديس علم . فابتنى على تل منخفض فى وسط البقعة التى اختارها قصراً على النظام الحديث وحمل منذ هذا الوقت كما هى العادة دائماً لقب (جبى)

وهى كلمــة تعنى التل لأنه كان من عادة الأتيوبيين أن يبنى الزعماء فى القرى بيوتهم عند قمة التل ، ليشرف على بقية القرية ، وعمل على تشجيع البناء فيها وغرس فيها آلافا من أشجار الـكافور ، التى استقدم بذورها من استراليا لتجعل مناخها صالحًا للأوربيين ، وهم الذين اعتمد عليهم منليك فى إقامة صرح دولته الجديدة ، فشجعهم على القدوم والاستقرار ، ومنحهم حق التقاضى أمام محاكمهم الخاصة ، وفقًا لقوانينهم الخاصة ، ورغم ما فى العمل من انتقاص من سيادة بلاده داخل أراضيهـا ، إلا أنه تحمل وزر هذا العمل مرتاحًا مادام فيه خير أمته .

وكان منشأ هــذا النظام المادة السابعة من معاهدة التجارة والصداقة الموقعة فى ١٠ يناير سنة ١٩٠٨ بين الإمبراطور ومسيو كلوبوكوفسكى بصفته وزيراً مفوضاً للحكومة الفرنسية وتنحصر هذه المادة فى أن يحاكم الفرنسيون المقيمون فى انبوبيا (عمم هــذا النص فيما بعد حتى شمل جميع الأجانب) أمام قناصلهم فى أحوالهم المدنية والاجتماعية والجنائية طبقاً لقوانين بلادهم ، إذا ما كان الخلاف محصوراً بينهم ، وأحكام هذه المحاكم غير نهائية بل هى أحكام ابتدائية قابلة للاستئناف أمام محاكم الاستئناف فى فرنسا ، ولا يعتبر قيد الأجنبى فى سجلات القنصلية شرطاً لهذا التقاضى بل مجرد الوجود فى أتيوبيا كاف لأن يكسبه هذا الحق .

أما القضايا التى بين أجانب وأتيوبيين أو بين أجانب مختلفى الجنسية ، فهى من اختصاص محكمة أخرى تسمى بالمحـكمة الخاصة ، Tribunal Special وهى تتـكون من قاضى أتيوبى ومن القنصل أو القنصلين التابع لهما المتقاضيان ، ولا يشترك الرئيس فى المناقشة ولـكن له حق الاعتراض على الحـكم ، وحينئذ لا يـكون للحكم قوة التنفيذ إلا إذا اســتؤنف أمام مجلس الإمبراطور وصودق عليه .

ووجه الإمبراطور منليك عنايته إلى حكام المقاطعات والرءوس فعمل على الحد من سلطتهم عن طريق غير طريق الحرب ، فعين موظفين يكونون له عيونًا فيها يحملون أوامره إلى هؤلاء الزعماء ، ويشرفون على تنفيذهـــا ، كما يراقبون تصرف هؤلاء الرؤوس كى تـكون كلها متفقة مع ما أراده من وحدة تامة فى الوسائل والأهداف ، وبذلك صارت العاصمة للمرة الأولى المركز الحقيقى للقوة فى اتيوبيا ، ولم يخـل الأمر من بعض القوة يرسلها ضـد من لا يخضع له ، وضد من نسى سلطة الإمبراطور عليه لطول عزلته ، فـكانت حملاته إلى أروسى وكافا وجما وغيرها من الولايات الجنوبية والغربية هى التى أعادت هـــذه البلاد إلى حظيرة الإمبراطورية ، بعد أن أقصتها عنها الحروب الأهلية الماضية . وفى كل هـذه الحروب كان الراس ما كونن ابن عمه وحاكم هرر ، اليد اليمنى للامبراطور ، والقائد الحقيقى للجيش الإمبراطورى ، بينما وضعت المهمة الفنيةعلى عاتق القائد الروسى الـكسندر بنلاتورتس Alexander Benlatouvitch الذى دخل فى خدمته وأخذ على عاتقه تدريب الجيش الحديث على النظم الأوربية الحديثة .

وفى سنة ١٩٠٠ عينت الوزارة الأولىفى تاريخ اتيوبيا ، ولم يكن أعضاءها وإن حملوا القاب الوزراء — ، الا رؤساء لمصالح قسمت إليها الحـكومة على نحو ما تفعل الحـكومات الأوروبية فى بلادهـــا ، ولـكن كان رأى منليك وفـكره هو المدبر الحقيقى لـكل هذه الشبكة المتفرعة ، وهو إجراء وإن كان لا يدل على تقييد لسلطة الإمـــبراطور إلا أنه يدل على الرغبة فى تغيير العقلية الأتيوبية ، التى تنادى دائمًا بتركيز السلطة كلها فى يد الإمبراطور ، ووجود أى شخص آخر إلى جانبه يحمل جانبًا من مسئولية الإضطـــلاع بشىء منها مضعف لسلطة الحاكم . وكانت هذه الوزارات فى أول أمرها تسعا هى العدل والحربية

والداخليةوالخارجية والتجارة والمالية والزراعة والتعليم والأشغال العامة . علاوة على وزارة عاشرة هى وزارة القلم أو القصر ، وهى التى كانت بمثابة حلقة اتصال بين منليك ووزرائه مادام ليس هناك رئيس للوزارة ، فكان هذا الوزير أقرب الوزراء إلى الإمبراطور ،وإليه يوكل حفظ الاختام الملكية وقيد الأوامر الإمبراطورية والمراسيم وحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة الهامة ، كما أنه هو الذى يقدم القوانين والمشروعات إلى الإمبراطور بعد دراستها ،ولذلك جعل له وحـــده حق توقيع القوانين والمراسيم والتعيينات إلى جانب توقيع الإمبراطور ، ثم تنشر فى الجريدة الرسمية لتدخل فى دور التنفيذ ، كما وكل إليه أمور العائلة المالكة من حيث قيد مواليدها ووفياتها وزواج أفرادها .

وفى سنة ١٩٠٣ أدخل التليفون إلى أديس أبابا ، كما وصل الخط الحديدى إلى ديردوا فى سنة ١٩٠٧ وأنير القصر الملكى بالكهرباء .

وقد أوكل مد الخط الحديدى إلى شركة فرنسية يتكون رأس مالها من ثلاثين ألف سهم . ومات منليك دون أن يصل الخط إلى أديس أبابا . وإن كانت القاطرة قد وصلت مسحوبة بالحبال بأذرع العمال ، فكان عملا جبار قل أن يكون له نظير فى التاريخ . وقد عانت الشركة فى أول أمرها صعوبات مالية كبيرة حتى كادت تيأس بعد أن مكثت سنين لا تدفـــع شيئاً من الأرباح لحاملى إسهمها حتى تدخلت الحكومة الفرنسية فتعهدت بسدالخسائر ودفع نسبة معينة من الأرباح .

وفى سنة ١٩٠٦ مات الرأس ماكونن الذى كان الجميع ينظرون إليه كوارث للعرش بسبب أن منليك لم ينجب ولداً ، فأخذت الأحوال تضطرب والأحزاب الطامعة فى العرش تظهر ،لا سيا وقد مرض الإمبراطور منليك فى سنة ١٩٠٧ وبدا مرضه مميتاً ، نخاف منليك أن يتهدم البناء الذى تعب فى إقامته ، فعين حفيده لدج ياسو ليكون وارثاً له ،وعقد إجتماعاً لرؤوس دولته والمطران المصرى والإ تشيجى وقدم لهم حفيده ، وكان فتى يافعاً لا يتجاوز الحادية عشر من عمره متزوجاً من رمانة

حفيدة الملك يوحنا ، ولم يكن سنها يزيد عن السبعة أعوام . وقال لهم (لقد اخترت لكم حفيدى لدج ياسو ليكون خليفنى وأعهد به إليكم ، وليكن محروماً ذلك الذى يرفض طاعته . ملعوناً ذلك الذى لا يخضع له ، فليرزقه الله بكلب أسود ولدا له. وليكن هو أيضاً أميناً لكم.أما إذا خانكم فلتحل عليه لعنة الله) وعين له الراس تساما معلماً ووصياً .

إزاء عدم الاستقرار الذى بدت بوادره فى اتيوبيا بعد موت الراس ماكونن أخذت الدول الكبرى المتنافسة تتحرك من جديد ، من أجل الظفر بما سمته مناطق النفوذ هناك ، ولم يكن أمامها إلا أن تخفى أغراضها الحقيقية أمام تعبيرات مطاطة من الرغبة فى المحافظة على الحالة الحاضرة .

ففى ديسمبر سنة ١٩٠٦ عقدت الاتفاقية الثلاثية بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا من أجل (المحافظة على سلامة اتيوبيا) ولذلك اتفقوا على التعاون بهدف المحافظة على الوضع القائم فيها من الناحيتين السياسية والأقليمية ، كما تحددها الظروف الراهنة طبقاً للاتفاقات المعقودة بين تلك الدول من قبل . وقد أشارت هذه الاتفاقية إلى البروتوكلات المعقودة فى سنتى ١٨٩١ و ١٨٩٤ وهى التى حددت مناطق النفوذ لكل من بريطانيا وايطاليا . كما نص فى المادة الأولى على أن هذه الاتفاقات المختلفة لا تمس بأى حال من الأحوال حقوق السياده التى يتمتع بها إمبراطور اتيوبيا فى أراضيه ، وإذا ما طرأ أى اخلال بالوضع القائم تتعهد الدول الموقعه ، بأن تبذل كل منها ما فى وسعها من أجل المحافظة على مصالح اتيوبيا ، وأن تتعاون معاً بهدف المحافظة على مصالح بريطانيا ومصر وفرنسا فى المناطق المحددة ، كذلك مصالح إيطاليا فيما يختص بارتريا والصومال .

وقد أبلغت هذه المعاهدة إلى الإمبراطور منليك يومذاك، ولعل أظهر ما فى هذه

المعاهدة هو الاعتراف بالحقوق التي كفلتها البروتوكولات السابقة لإيطاليا ، ومنها بروتوكول سنة ١٨٩١ الذى يعطى لإيطاليا نفوذاً فى كل اتيوبيا الحالية فى الوقت الذى اعترفت فيه إيطاليا بمقتضى معاهدة أديس أبابا فى سنة ١٨٩٦ بالاستقلال الكامل لاتيوبيا .

وهذا يدعونا إلى الاعتقاد أن هذا الاتفاق الثلاثى الأخير ، لم يوضع بغرض المحافظة على استقلال اتيوبيا ، بقدر ماوضع من أجل تلافى الخطر الذى قد ينجم من تصادم المصالح بين الدول الثلاث ، فى حالة إنهيار اتيوبيا ، وهى الحالة التى كانت منتظرة بعد وفاة الراس ما كونن ، وبعد مرض الإمبراطور منايك ، وعدم وجود الشخصية القوية التى يمكن أن تسيطر على الحالة هناك .

ومات الراس تساما فى سنة ١٩١١ فعين ولى العهد مجلس وصاية ترأسه الملكة تايتو زوجة منليك ، وكان الإمبراطور قد بدأ يدخل مرحلة اليأس ، الذى انتهت بوفاته فى سنة ١٩١٣ ، فأعلن لدج ياسو نفسه إمبراطوراً وتقبل هذا المنصب بدموع تمتزج بين دموع الحزن على جده الذى ترك كل شيء ، ودموع الفرح لتملكه كل شيء .

ولم يلبث أن انطلقت غرائز الإمبراطور الجديد دون قيد ، إذ انصرف إلى ملاهيه يرتشفها أيما كانت ، فقتل بيده ذات ليلة أحد الجنود فى أديس أباباحين تعرض له . بل تحول عن الديانة المسيحية وأعلن أنه ليس سليل سليمان ولا ملكة سبأ ، بل اخترع لنفسه نسباً يعود به إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وترك زوجته رمانة وتزوج بأخرى مسلمة ، وجعل من المسلمين حاشية له ، وصار يتردد على الجوامع ليصلى فيها وأمر المسلمين فى هرر أن يستولوا على مايشاءون من املاك المسيحيين وكنائسهم ، فكان من أثر ذلك أن قامت الفتنة بين المسلمين والمسيحين واعتدى على بعض المسيحيين ، وقبضت السلطات على بعض

المسلمين المعتدين لحاكمتهم وأرسلوا إلى أديس أبابا لهذا الغرض ، فعفا عنهم ومنحهم الألقاب ، وأصر على أن تكتب الشهادتان على العلم الأتيوبى بحروف حبشية ، وأهدى العلم إلى قنصل تركيا ، فأرسله هذا إلى استنبول وذكر أن اتيوبيا قد أصبحت تابعة لأمير المؤمنين ، مما سبب الارتباك للقناصل الآخرين وأبرقوا بالأمر إلى حكوماتهم . وكان ذلك فى بداية سنة ١٩١٤ . والأمور مضطربة فى أوروبا تنذر بقيام الحرب العالمية الأولى . فنظرت انجلترا وفرنسا إلى الامر على أنه رغبة فى الإنضمام إلى التحالف بين دول الوسط الأمر الذى يعرض البحر الأحمر وقناة السويس إلى خطر الوقوع فى يد الأعداء مما يهدد مركز الحلفاء فى الشرق ، فالتقت بذلك مخاوف كل من انجلترا وفرنسا بمخاوف الاتيوبيين الذين رأوا فيما اتاه الإمبراطور من الأفعال خروجا على العهد الذى اخذه منليك عليه ، مما يبرر لهم الخروج عليه ، وكذلك من مخاوف المطران ورجال الدين الذين رأوا فى هذه الأعمال خروجاً على البادىء المسيحية ، والأمبراطور بحكم منصبه يعد الحارس الأمين على تراثها فى اتيوبيا . وكان المطران هو الانبا متاوس الذى اشترك مع جده منليك فى توطيد أركان هذه الإمبراطورية ، وكان رجل الورع والتدين ولكنه فى نفس الوقت رجل القوة والحزم.

فلم تجد هذه القوى كلها بدا من أن تعمل لانقاذ البلاد ، لاسيما وقد قامت الحرب العالمية الأولى فى أوروبا ، وأصبح موقف الحلفاء ضعيفاً على أثر الانتصار الألمانى الأول فى كل من أوروبا الغربية والشرقية ، والتركى فى جاليبولى ، فتجمعت الجيوش الفرنسية فى جيبوتى . والبريطانية فى بربرة ، والإيطالية فى مصوع ، بينما اجتمع الزعماء برئاسة الراس تفرى ابن الرأس ما كونن ، واتجهوا إلى قصر المطران طالبين أن يحلهم من يمين الولاء للامبراطور ، الذى يقود بلادهم نحو الخراب ، وطلبوا منه أن يصدر قرارا بحرمان لدج ياسو ، وإقامة

الأميرة زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة عليهم ، على أن يـكون الرأس تفرى وصياً ووريثا للعرش ،ووجد هذا الأمر صدى فى نفس المطران الذى بدا منفـذا لرغبة الشعب ، التى هى نفس الوقت رغبته ، وفى ٢٧ سـبتمبر سنـة ١٩١٦ ، اصدر الانبا متاوس بصفته مطرانا لاتيوبيا وخادما للصليب ، وممثلا لبطريرك الاسكندرية ، خليفة القديس مرقس ، قرارا بحرمان لدج ياسو ، وآخر بتعيـين زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة لاتيوبيا ،وشفع هذين القرارين بخطـاب إلى أمراء هرر وجميع رجال الجيش والرؤساء وشعب اتيوبيا ، يحلهم فيه من يمين الولاء والطاعة للدج ياسو ، ويدعوهم إلى الاخـــلاص والولاء لامبراطورتهم الجديدة ، ولعقيدتهم الأرثوذكسية الصحيحة ، وهدد من لايخضع لهذا القرار بأن تنزل عليه لعنة الأب والابن والروح القدس ، وكذلك نقمة الرسل الاثنى عشر وآباء الـكنيسة الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين فى نيقيه (١) .

وكان من المنتظر أن يحدث عقب ذلك اضطرابات ،ولـكن الأمر مر على خلاف ذلك ، إذ قابله الشعب بالهدوء بل بالاغتباط لأنه رأى فيه صدى لما فى نفسه من نقمة على من كان يسعى الى الإضرار بمستقبل بلاده وعقيدته ، فلم يسع لدج ياسو سوى الهرب من اديس أبابا إلى إقليم والو ذى الأغلبية الإسلامية من الجالا حيث اتصل بالمسلمين فى الصومال يطلب نجدتهم . وجيوش الحـكومة تلاحقه، وهو إذا كان قد نجح فى تكتيل جيش أخذ يقاوم به مدة حتى قبض عليـه ، إلا أنه لم يحاول مطلقاً أن يطعن فى قرار حرمانه الذى صدر من جهـة تملك حق اصداره ، وانصرف الشعب إلى الالتفاف حول إمبراطورته الجديدة التى توجها المطران وفقاً للطقوس المعتادة فى ١١ فبراير سنة ١٩١٧ ، ووجهت الى الشعب نداء تبرر فيه إقدامها على هذه الخطوة ، بما بدر من لدج ياسو نحو جده العظيم

(١) يقصد بذلك مجمع نيقية الدينى الذى عقد فى سنة ٣٢٥م من أجل دحض بدعة أريوس وقد أجمعت جميع المذاهب المسيحية على احترام قرارات هذا المجمع وكذلك احترام جميع الآباء الذين حضروه وقد اعتبروهم وما زالوا يعتبرونهم قادة العالم المسيحى المقدسين .

وبلاده وكنيسته ، وعاهدت الشعب على المحافظة على الإيمان الأرثوذكسى طبقاً لعقيدة القديس مرقس السكندرى .

وكان موقفاً غريباً حقاً أن تجلس على العرش إمبراطورة رجعية غير متعلمة لا تؤمن بشىء من الأفكار الحديثة ولا بالاتصال بالعالم الخارجى ،ولا بالحضارة الحديثة ، بينما كان ولى عهدها متعلماً يجيد الفرنسية ، تلقى تعليمه فى مدارس الارساليات الأجنبية فى هرر حيث كان والده حاكما ، يتطلع إلى الخروج ببلاده من عزلتها والسماح للحضارة الأوروبية أن تجد طريقها اليها فى يسر ولين أحياناً وفى عنف أحياناً أخرى ، ولذا انقسمت البلاد إلى أكثر من حزب ، والتف الرجعيون منهم حول الإمبراطورة ، بينما التف أنصار الحضارة الأوروبية حول ولى العهد ، بينما التف آخرون حول زعيم آخر ينتهز الفرصة الملائمة لينقض ويجنى من هذا الخلاف مأرباً وإن كان لا يتبينه تماما .

ولم تحل هذه الأزمة المحدودة ، دون أن يسعى الراس تفرى لتنفيذ برنامجه الإصلاحى ، فعمل على إدخال إتيوبيا عضواً فى عصبة الأمم ، فسعى أولا إلى كسب جبهة تؤيده فى هذا السعى ، ثم إلى إصلاح الأحوال الداخلية بحيث لا تكون مانعة من هذا القبول . فأصدر القوانين بتحرير العبيد وإلغاء تجارة الرق ، وسعى إلى القضاء على الجلابين ، ولم يتردد فى استعمال الجيش من أجل تأمين الطرق والقضاء على الشفتا، وعصابات قطاع الطريق، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٣ تقدم بطلبه إلى عصبة الأمم تؤيده إيطاليا ، وعارضت الطلب كل من فرنسا وبريطانيا بحجة وجود تجارة الرقيق هناك ولكنه استطاع أخيراً أن يكسب هذه العضوية بتعضيد إيطاليا .

ولم يكن هذا التعضيد الإيطالى عبثاً .فقد كانت تسعى هذه الدولة لإحياء أطماعها القديمة فى إتيوبيا بعد أن فشلت فى الحصول على أى مستعمرات جديدة عن طريق القوة

رغم انضمامها إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى. فتقدمت فى نوفمبر سنة ١٩١٩ إلى بريطانيا بمذكرة خلاصتها أن تعملا معاً كجبهة واحدة فى مفاوضات أوسع نطاقاً وذات صبغة استعمارية ناجمة عن معاهدة لندن فى سنة ١٩١٥، لتحصل بريطانيا على امتياز بتنفيذ مشروع سد بحيرة طانا داخل منطقة النفوذ الإيطالى. وذلك إلى أن يتم تحديد المنطقة الإقليمية التى تضم إلى بريطانيا بالنسبة لمصالحها المائية، كما تحصل أيضاً على امتياز بإنشاء طريق للسيارات يمتد من شاطىء البحيرة حتى السودان، بينما تحصل إيطاليا على امتياز بإنشاء خط حديدى يصل أرتريا بالصومال (الإيطالى) ويسير إلى الغرب من أديس أبابا، واعتراف صريح من بريطانيا بحق إيطاليا فى استغلال غرب أتيوبيا اقتصاديا لصالحها. ولكن بريطانيا رفضت هذا الاقتراح لأنها كانت ترفض السماح لدولة أجنبية بإقامة أى نوع من السيطرة على منابع الأنهار الحيوية لرخاء السودان، لا سيما وقد أثبتت التجارب التى أجريت هناك ـ منذ أن دخلت إنجلترا السودان فى سنة ١٨٩٩ إمكان زراعة القطن على نطاق واسع، فكان تعضيد إيطاليا لأتيوبيا للدخول إلى عصبة الأمم، محاولة لدفع الثمن مقدما من أجل الحصول على ما تتمناه فى أرضها من امتيازات، حتى إذا بدأت بريطانيا فى سنة ١٩٢٤ أن تفتح باب المفاوضات مع الحكومة الأتيوبية من أجل إنشاء خزان بحيرة طانا وجدت إيطاليا الفرصة ملائمة للتدخل وتبادلت مع الحكومة البريطانية المذكرات من جديد بشأن مناطق النفوذ فى غرب أتيوبيا.

وفى ديسمبر سنة ١٩٢٥ قبلت بريطانيا الاقتراح الذى سبق أن رفضته فى سنة ١٩١٩ واعتبرت هذا الإتفاق متفقا مع الاتفاق الثلاثى المبرم فى سنة ١٩٠٦.

وإذا ما أذيعت نصوص المذكرات المتبادلة أحدث ذلك دوياً كبيراً فى كل من أتيوبيا وفرنسا، التى كان يعنيها الأمر أكثر من غيرها، والتى

اعتبرت هذا الاتفاق الجديد خرقاً وتنافياً مع اتفاق سنة ١٩٠٦ ، كما احتجت أتيوبيا لدى عصبة الأمم فأرسلت فى ١٩ يونيو سنة ١٩٢٦ مذكرة إلى سكرتير عام العصبة لتوزيعها على جميع الدول الأعضاء بأن الغرض من هذا الاتفاق لم يكن سوى الضغط على حكومة إتيوبيا — العضو فى العصبة — بهدف الحصول على امتيازات اقتصادية ، الأمر الذى يتعارض تعارضاً صريحاً مع المبادىء الأساسية للعصبة ، التى تفرض المساواة التامة بين الأعضاء . كما أنها تتعارض تماما مع استقلال إتيوبيا ، إذ تنص على تبادل دولتين لمنافع وامتيازات فى أراضى لا يسيطر عليها أحد منهما ، فبادرت كل من إيطاليا وبريطانيا تردان بمذكرات أرسلت أيضاً إلى سكرتارية العصبة تنفيان فيها نية الاعتداء على استقلال إتيوبيا السياسى والاقتصادى .

على أن المذكرات المتبادلة بين إيطاليا وبريطانيا تكشف لنا عن حقيقة النوايا التى كانت تنويها إيطاليا تجاه إتيوبيا ، إذ أن انتهاء المحاولة الإيطالية بالتوسع فى أتيوبيا على أثر هزيمة عدوة فى سنة ١٨٩٦ لم تترك لها فى شرق أفريقيا سوى مستعمرتين فقيرتين[1] كانتا فى الواقع عبئاً ثقيلا على إيطاليا الفقيرة ، كما أنهما معزولتان إحداهما عن الأخرى ، فكان من الطبيعى أن تسعى إيطاليا إلى توحيدهما وما كانت هذه الوحدة ممكنة ، دون ضم الأراضى الأتيوبية التى تفصلهما ، ولذا كانت رغبة إيطاليا فى مد خط حديدى بينهما يمر غرب أديس أبابا ، تخفى وراءها أغراضاً استعمارية أكثر منها اقتصادية . ونظرت إيطاليا إلى اعتراف بريطانيا بحقها فى إنشاء هذا الخط على أنه تشجيع ضمنى بضم مناطق شاسعة من أتيوبيا .

ولما حال تنبه أتيوبيا وفرنسا إلى هذه المحاولة الحزبية من إيطاليا تمخضت العقلية الإيطالية عن مشروع جديد ورأت فيه بوادر أمل بتحقيق مشروعها

(١) هما ارتريا فى الشمال والصومال الايطالى فى الجنوب

فى إتيوبيا وإن كان ذلك عن طريق طويل نوعا ، وهو عقد معاهدة صداقة وتحكيم وتوفيق بينها وبين إتيوبيا، لمدة عشرين عاما، ننص على أن يسود السلام والصداقة الدائمة بين البلدين ، على أن يتعهد كل منهما ، بألا يتخذ أى إجراء من شأنه أن يمس استقلال الدولة الأخرى ، كما تنص على تنمية العلاقات التجارية بين الدولتين ، وفى حالة حدوث خلاف بينهما يصعب تسويته بالطرق الدبلوماسية العادية ، فإنه يعرض على هيئة دولية للتوفيق والتحكيم دون الالتجاء إلى القوة المسلحة ، ووقع هذا الاتفاق فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٢٨ ، ووقع فى نفس الوقت اتفاق جديد ينص على منح إيطاليا امتياز انشاء طريق للسيارات من ميناء عصب الى مدينة ديسى (عاصمة اقليم والو) لقاء منح إتيوبيا منطقة حرة فى هذه الميناء لمدة ١٣٠ عاما . وبالرغم من توقيع ذلك الاتفاق فإنه ظل حبراً على ورق ، فلم تسع ايطاليا الى البدء بإنشاء هذا الطريق ، كما لم تسع إتيوبيا الى الحصول على المنطقة الحرة وظلت تستغل ميناء جيبوتى الفرنسى الذى يقود اليها الخط الحديدى الوحيد لديها كمخرج لتجارتها .

ولم تحل سلطة الراس تفرى المحدودة أيضا من أن يعمل جاهداً على تنفيذ برنامجه الإصلاحى ، وهو وإن كان يحمل فى جنباته برنامجا ثوريا ، يؤدى الى انتقال بلاده الى مصاف الدول المتمدينة ، إلا أنه آثر أن يراعى الظروف التى تجتازها البلاد . كما يراعى هـؤلاء الذين يتربصون الفرص ،فآثر التروى بل آثر أن يكون برنامجه مدروسا دراسة كافية ، فقام بعدة زيارات لمصر والدول الأوروبية بغرض تعريف هذه الدول ببلاده، وبرغبته فى إقامة علاقات وطيدة من المودة تقوم على الاحترام المتبادل ، يتعاون فيها الطرفان من أجل الأغراض الثقافية والعلمية والاقتصادية ، كما أعقب ذلك بتعيين وزراء مفوضين لإتيوبيا فى البلاد التى لم تكن له بها علاقات من قبل ، حتى اذا عاد تابع سياسة الدفع ببلاده نحو الحضارة ففتتح أكثر من مدرسة ابتدائية فى أديس

أبابا ـ وغيرها من المدن ، بل جعل فيها التعليم مجانيا ، وهى خطوة كبيرة على بلاد لم تكن حتى الآن ذات موارد مالية معروفة ، بل كانت أكثر الضرائب عبارة عن حقوق عينية دورية . وكانت أكبر المدارس مدرسة تفرى ماكونن التى أسندت إدارتها إلى مدير فرنسى ، وجعل التعليم فيها فى الفصول الكبيرة باللغة الفرنسية، فضمت بين جدرانها منذ سنيها الأولى أكثر من ألف طالب يتمتع بعضهم بالإقامة الداخلية الكاملة[١] .

وأنشئت أيضاً محطة للكهرباء لأجل إنارة أديس أبابا ، ومدت أسلاك الكهرباء فى شوارع العاصمة ، وشقت الطرق الرئيسية من أجزاء البلاد المختلفة وقرنت بخطوط التليفون والبرق . فساعد هذا كله على زيادة سلطة الحكومة المركزية ، لا سيما وقد قرنت بجيش مدرب على النظم الأوروبية الحديثة وقوة بوليسية للاشراف على الأمن داخل المدن .

وفى أديس أبابا مهدت كثير من الشوارع ورصفت ، وزيدت قوة بوليسها وأنشئت لها بلدية من أجل تخطيط سياسة انشائية متواصلة ، كما شجع الأجانب على الإقامة وعلى إنشاء الشركات، ومنحت لهم التسهيلات وجعل عبء الضرائب عليهم خفيفاً .

وفى سنة ١٩٣١ توفيت الإمبراطورة زاوديتو فجأة . فارتقى الراس تفرى العرش وأطلق على نفسه اسم هيلاسلاسى الأول (ومعناها قوة الثالوث)فعول على الإسراع بتنفيذ برنامجه غير عابىء بمال أو مجهود .

ولعل أول ما يذكر له بالفخر هو منحه البلاد دستوراً أنشئت بمقتضاه هيئة تشريعية تتكون من مجلسين ، أحدهما للنواب والآخر للشيوخ . وكلاهما معين وبذلك أوضح تقسيم السلطات إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية الأمر الذى لم يكن واضحاً من قبل ومركزاً كله فى شخصه[٢] .

---

(١) كانت هذه ثانى مدارس إثيوبيا الحديثة . وكانت الأولى هى التى أنشأها منليك واستعان فيها بسبعة من الأساتذة المصريين يرأسهم الأستاذ حنا صليب

(٢) راجع كتاب « الدستور الإثيوبى » للمؤلف.

ومما هو جدير بالذكر أن جلالة الأمبراطور منح شعبه هذا الدستور دون أن توجد بالبلاد أحزاب أو هيئات سياسية أو يكتمل لها وعى سياسى ، تطور حتى أحس بحاجة البلاد إلى الحكم الدستورى . ولكنه أراد كما ذكر فى مذكرته التفسيرية ، أن يظهر شكره لله العظيم على ما حباه به من نعمة من جلوسه على عرش أبائه ، بأن يسابق الزمن ويدفع بشعبه إلى طريق التقدم ، ولذا كان هذا الدستور خطوة طيبة نحو تنبيه شعبه إلى ما له من حقوق لدى الإمبراطور، يستطيع أن يتمتع بها دون أن يكون فى ذلك حرج مطلقاً .

ويعتبر إصدار هذا الدستور نقطة تحول ظاهرة فى تاريخ إتيوبيا . رغم السلطة المحدودة التى أعطيت للهيئة التشريعية التى كانت لا تملك حق سؤال الوزراء عن أعمالهم ، ومعنى ذلك عدم مسؤولية الحكومة أمام (النواب) وان ملكوا حق مناقشة الوزراء والموافقة على الميزانية ، وتشريع القوانين ،والموافقة على القوانين التى تسنها الحكومة . إلا أنه اعتراف بحق الشعب فى التمتع ببعض الحقوق الأمر الذى كان ينكره عليه جميع الأباطرة السابقين . كما اعترف بحق الشعب فى أن يطلع على أعمال الحكومة سواء بسماعه خطاب العرش أو بحضور جلسات المجلسين . كما اعترف بوجود ميزانية ذات موارد ومصارف محددة ، من أجل الصرف على مافيه خير الشعب بعد أن كانت هذه الميزانية غير محددة الموارد ، ومعظم مصارفها بل كلها على الشؤون الإمبراطورية وحدها . وإذا كان هناك من مآخذ كثيرة تؤخذ على هذا الدستور إلا أننا نعلم أن أفضل الدساتير لا الذى يسرف فى منح الحقوق ولكن هو الذى يتمشى مع حالة البلاد الثقافية والاجتماعية ويتلاءم مع عادات الشعب وتقاليده .

وبدأ أيضاً بتنظيم الضرائب، وجعلها ذات مقادير ثابتة، وفى مواعيد ثابتة، ثم تحويلها من عينية إلى نقدية ، وبذلك أتيح له أن ينظم مواعيد الصرف . إذ

كان الاضطراب فى صرف الاستحقاقات والمرتبات أكبر ما يوجه إلى النظام السابق من نقد .

وفى سنة ١٩٣٢ توج جلالة الإمبراطور فى حفل كبير دعى لشهوده ممثلو الحكومات المختلفة والبيوت المالكة فكان ذلك فرصة لزيادة تعريف بلاده إلى الدول التى يعنيها الأمر، فى تعرف ما تحتاجه بلاده من خدمات . حتى إذا تم التتوج خرج ولى عهده إلى الدول التى أرسلت وفودها ليشكرها على اشتراكها ، ويوثق علاقات بلاده بها .

ولكن كل هذه الجهود المبذولة ، والتى كان ينتظر لها أن تأتى ثمارها سريعاً ، كتب لها أن تتوقف ، بل أن تتقهقر وتهدم لفترة ليست باليسيرة ، بسبب الاحتلال الايطالى إذ لم يمض على جلوسه على العرش أكثر من أربع سنوات حتى ابتليت البلاد بهذا الاعتداء ، من بلد كان يتوق إلى الأخذ بالثأر بعد أن هزمت جيوشه مرتين قبل انتهاء القرن الماضى .

الفصل السابع

الاعتداء الإيطالي (١)

كان استيلاء الفاشيين على السلطة فى إيطاليا سنة ١٩٢٢ ، نذيرا بتغيير الأحوال فيها وانتهاجها لسياسة جديدة ، طابعها ادعاء العظمة من أجل استعادة (مجد الامبراطورية الرومانية) . وكانت جميع المجهودات التى بذلت فى الداخل لم تنتج إلا القليل من الخير للشعب الايطالى ، ولكن كانت الدعاية فى الصحف وغير الصحف هى التى تحاول ابرازه عظيما جبارا ، إذ كان البؤس مازال مايستشرى فى السواد الأعظم من السكان سواء كانوا من العمال أو الزراع ، فكان من الضرورى تحويل الرأى العام من البؤس الداخلى الى البحث عن مجد سريع التحقيق فى الخارج ، ولم يكن هناك من مجال لهذا المجد سوى جيران المستعمرات الايطالية فى شرق افريقيا حيث الجيوش الضعيفة غير المستعدة ، وكان العملاء الايطاليون قد مهدوا السبيل . وكان هؤلاء العملاء من القناصل المزيفين الذين انبثوا فى أجزاء إتيوبيا ، يمسحون أجزاءها ويتصلون بمن خيل اليهم أنهم من الزعماء لشراء ضمائرهم ، أو من المبشرين الذين تظاهروا بإسداء الخدمات الطبية للاهالى ، وكانت حالة إتيوبيا وأهلها تجعل من الصعب رفض هذه المساعدات ، ولذا لم تقم الشكوك حول أهداف هؤلاء الناس .

وكان من الواضح إذن أن ليس هناك من سبب لهذه الحرب ، سوى الشعور بالنقص ، وهو الشعور الذى تملك الشعب الايطالى ومعه الحكومات الايطالية

---

(١) أنظر كتاب « استعمار القارة الإفريقية واستقلالها » للمؤلف .

المتعاقبة ، منذ بداية القرن التاسع عشر، وبدا أظهر مايكون، بعد استكمال الوحدة الايطالية فى سنة ١٨٧٠ تدفعهم — منذ سنة ١٨٨٠ — إلى سلسلة المغامرات الاستعمارية التى قاموا بها سواء فى شرق أفريقيا أو شمالها ، وهى المغامرات التى لم يكسب منها الإيطاليون شيئا سوى ازدياد هذا الشعور رسوخا ، وهو نفس الشعور ، الذى دفعهم إلى التحالف مع ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم نقض هذا التحالف فى سنة ١٩١٥ ، ثم إلى المطالبة بتملك المستعمرات بعد سنة ١٩١٩ بعد أن حرموا من أن ينالوا شيئا منها خلال التسوية التى أعقبت الحرب العالمية الأولى .

وبدت النذر الأولى لهذا الاعتداء فى حادثة (ولول) التى تتلخص فى أن البعثة البريطانية الإتيوبية لتعيين الحدود بين منطقة الأوجادين والصومال البريطانى قد أنهت مهمتها وأخذت طريقها نحو هرر للوصول إلى ديردوا لركوب القطار إلى أديس أبابا ، وعند منطقة بئر ولول ، وهى نقطة تبعد ٦٠ ميلا فى الداخل عن الحدود بين إتيوبيا والصومال (الإيطالى) ، شاهدت كتيبة إيطالية معسكرة . فأمرها رئيس الفرقة الإتيوبية التى كانت ترافق البعثة بالرحيل عن هذه الأرض الاتيوبية ، وسرعان ما اصطدمت القوتان ، وطلبت القوة الإيطالية النجدة باللاسلكى ، فوصلت فى أقل من نصف ساعة ، مما يدل على وجود هذه النجدة أيضا فى أرض إتيوبية، وكان من الطبيعى أن تثار هذه المسألة بين الدولتين، وكان من الطبيعى أيضا أن تسوى بالطرق الودية فى مدى أسبوع أو أكثر طبقا لاتفاق سنة ١٩٢٧ إذا حسنت النيات، فاقترحت إتيوبيا إقامة لجنة تحكيم لفض النزاع ، ولكن الحكومة الإيطالية رفضت التوسط وطلبت التعويض . هذا بينما لجأت إتيوبيا إلى عصبة الأمم تلفت نظرها إلى خطورة الحالة ، بسبب ما فعلته إيطاليا من اتخاذ هذا الحادث البسيط ، فرصة لحملات قاسية من الجرائد الإيطالية والخطب الرنانة المملوءة بالتهديد ، ولم تنس الجرائد الإيطالية فى مجال

التهديد أن تشير على عصبة الأمم بإخراج إتيوبيا (البربرية) من نطاق عضويتها ، بسبب عدم استحقاقها لهذه العضوية[١] .

ويبدو أن عصبة الأمم لم تتحرك منذ تاريخ الحادثة فى ١٤ ديسمبر ١٩٣٤ ، مما دعا الحكومة الإتيوبية إلى إرسال نداء آخر إلى العصبة فى يناير ١٩٣٥ ، تلفت نظرها إلى رفض إيطاليا أى تسوية سلمية للنزاع ، وقد يعود هذا الرفض إلى التقارب الفرنسى الإيطالى ، الذى حدث على أثر زيارة المسيو لافال وزير الخارجية الفرنسية لروما ، حيث عقد اتفاق صداقة بين الدولتين ، وقد عرف لافال منذ ذلك الوقت بميله إلى النظام الفاشى ، وكان من أثر هذا الاتفاق أن بدأت الصحف الفرنسية حملتها التأييدية لسياسة إيطاليا الفاشية .

وكانت فرنسا قد بدأت تشك فى نيات المانيا ، بعد أن نجح هتلر فى تقلد السلطة خلفاً للماريشال هندنبرج فى يوليو سنة ١٩٣٤ ، وكانت سياسته ترمى إلى التخلص من كل أثار معاهدة فرساى التى ختمت بها الحرب العالمية الأولى ، فسعت إلى عقد الإتفاق الفرنسى الإيطالى بل إلى تعضيد المطالب الايطالية فى عصبة الأمم ، وكانت إيطاليا منذ أن اقترحت طرد إتيوبيا من عضويتها ترفض حضور الجلسات التى يحضرها الأعضاء الإتيوبيون .

وكانت بريطانيا تقف فى وجه الأطماع الإيطالية وتساند إتيوبيا ، ولكنها فى نفس الوقت لم تتردد فى أن تحاول تسوية الأمر سلمياً ، وقد قام بهذه المحاولة السير صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية ، الذى قابل المسيو لافال ثم خرجا إلى العالم بمشروع تسوية يتجه إلى إعطاء ايطاليا نصف إتيوبيا الجنوبى ، الأمر الذى رفضه الطرفان ، إلا أن شدة معارضة انجلترا فى مناقشات العصبة لإيطاليا مكنتها من تكوين جبهة من الأعضاء وافقت على منع توريد السلاح إلى طرفى الخصومة ، ثم توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا بسبب عدم ميلها إلى

(١) نسبت ايطاليا أنها هي التى وقفت إلى جانب اتيوبيا فى الانضمام إلى العصبة

احترام قرارات العصبة وإمعانها فى الاعتداء ، وكان من الواضح أن عدم توريد السلاح إلى طرفى الخصومة كان ضاراً بإتيوبيا ، أكثر من ضرره على إيطاليا لأنه كانت هناك صناعة لبعض قطع السلاح وكذلك وسائل المواصلات والنقل فى إيطاليا بينما كانت إتيوبيا محرومة من هذا كله . كما أن قرار فرض العقوبات الاقتصادية على إيطاليا كان حبراً على ورق إذ أنه كان الأول من نوعه فى تاريخ عصبة الأمم ، ولم تخلص أكثر الدول الأعضاء فى تنفيذه .

وأخذ السلاح والمؤونة والرجال تتدفق على ارتريا ،عبر قناة السويس التى لم يكن من الممكن اغلاقها فى وجه السفن الإيطالية بسبب مانصت عليه اتفاقية سنة ١٨٨١ من حياد القناة فى وجه جميع الدول . لاسيما وأن مصر لم تكن طرفاً فى النزاع ، كما أن الحرب لم تكن قد أعلنت بصفة رسمية . وقد نجحت فرنسا فى تأمين مركزها فى أوروبا بعقد الاتفاق الفرنسى الروسى فى مايو سنة ١٩٣٥. هذا بينما قررت العصبة وضع المسألة الإتيوبية فى يد لجنة عليا مكونة من إيطاليا وبريطانيا وفرنسا وكان من الواضح إنها لجنة صورية ما دامت إيطاليا وفرنسا متفقتين منذ يناير ، وبريطانيا لا يعنيها سوى المحافظة على المصالح البريطانية فى إتيوبيا والبحر الأحمر ، فكانت اتيوبيا فى الواقع موضع خدعة دولية كبيرة سواء من ناحية الدول الكبرى أو عصبة الأمم ، إذا بينما كان مندوبو بريطانيا يرفعون أصواتهم بالتنديد بإيطاليا . والدفاع عن إتيوبيا وعصبة الأمم باسم الدفاع عن الأمن الدولى الجماعى ، كان السفير البريطانى فى روما يؤكد للحكومة الإيطالية أن بريطانيا لن تغلق قناة السويس فى وجه سفن نقل الجنود والأسلحة الإيطالية المتجهة إلى شرق أفريقيا ، بينما كان موسولينى يهدد بغزو مالطه ومصر ، وإنجلترا ترسل بجزء من أسطولها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهى فى نفس الوقت تخشى انتصار إتيوبيا في تسوية الأزمة ، إذ قد يؤدي ذلك إلى

انهيار سمعة إيطاليا بل الى إنهيار النظام الفاشى كله ، وهو نظام قد استقر فعلا فى إيطاليا بنجح فى حمايتها من النفوذ الشيوعى ، الذى كان قد بدأ يتسرب إليها منذ سنة ١٩٢٠ ، وظهر فى شكل مظاهرات وإضرابات بين عمال المصانع فى ميلان وتورين ، هذا إلى أن إنجلترا كانت تخشى انتصار دولة سوداء فى إفريقيا مما قد يرفع الروح المعنوية للافريقين ومعظمهم وخاصة فى شرق إفريقيا كالسودان وكينيا وتنجانيقا وأوغندا والصومال البريطانى ، خاضع للنفوذ البريطانى ، وهناك كانت بريطانيا تحاول أن تبنى إمبراطوريتها الثالثة بعد أن هدد نفوذها فى الهند وبدا للعيان أن أثمن جوهرة فى التاج البريطانى سوف تستقل آجلا أو عاجلا . وكذلك مصر بعد أن اعترف باستقلالها رسمياً فى سنة ١٩٢٢ .

وقد كان لهذه الأزمة صدى كبير فى العالم أجمع من حيث كونها اعتداءاً صريحاً من دولة غربية على دولة شرقية ، أو من حيث كونها اعتداءاً صريحاً من دولة بيضاء على أخرى سوداء ، ولذا كانت جميع الدول الشرقية عامة والسوداء خاصة تعطف على إتيوبيا ، وتكتب جرائدها محذرة من مغبة هذا الاعتداء الذى سوف يثير مكامن العداوة بين البيض والسود فى العالم كله ، أو بين الشرق والغرب . بل إن زنوج أمريكا كتبوا يحثون حكومتهم على ضرورة الوقوف فى صف إتيوبيا والأخذ بناصرها . حتى إذا لم تتحرك — لأنها كانت بعيدة عن عصبة الأمم من ناحية وتتجه سياستها إلى انتهاج سياسة العزلة من ناحية أخرى — قام شعور زنجى أمريكى يرجو نصرة هذه الدولة التى تنتسب إليهم ، وتكونت جمعيات كثيرة أخذت فى جمع الاشتراكات من أجل إرسال معونة زنجية إلى إتيوبيا ، وأبدى كثيرون منهم رغبتهم فى التطوع فى الجيوش الإتيوبية المدافعة عن استقلال دولة إفريقية .

وفى خلال هذه الاستعدادات عين الجنرال دى بونو قائداً عاماً للقوات الإيطالية فى شرق إفريقيا وكان هذا لقباً جديداً قصد به التأثير المعنوى أكثر

من أى شىء آخر ، من أجل إيهام العالم أن مستعمرتى إيطاليا فى شرق إفريقيا يكونان وحدة واحدة ، ولـكن هذه الوحدة لن تتم إلا باستيلاء إيطاليا على إتيوبيا .

ولم يكد ينتهى فصل المطر فى سنة ١٩٣٥ حتى صدرت الأوامر إلى الجيوش الإيطالية فى كل من أرتريا والصومال (الإيطالى) بالتحرك فدخلتها فعلا من خمسـة مواضع فى الثانى من أكتوبر بعد أن سـبقتها مظاهرة صاخبة فى ميدان فينيسيا العام فى روما .

وكان يبدو منذ اللحظة الأولى أنها معركة من جانب واحد ، إذ كان الإيطاليون يملـكون كل شىء ، بينما لم يملك الإتيوبيون شيئاً ، فقد كنت فى أديس أبابا آنذاك ورأيت كيف كان الحماس يدفع بالإتيوبيين إلى التطوع دفاعا عن بلادهم ، فتدفع بهم حكومتهم إلى الميدان بعد فترة تدريب لا تزيد عن أسبوع أو أسبوعين ، وكان أغلب هذه المدة ينقضى فى تدريب على السير عسـكريا فى الشوارع ، ثم تدريب بسيط على إطلاق الرصاص ببنادق قديمة ، وفترة أقل منها على إطلاق المدافع المضادة للدبابات ، ولم يكن نصيب قوادهم من القيـادة العسكرية الصحيحة بأفضل من نصيب الجنود ، مما دفع بالامبراطور إلى الاستعانة ببعثة سويدية لتتحرك الجيوش تحت ارشاداتها ، ولم يتردد الامبراطور فى الاشتراك بنفسه فى المعركة فكان يأخذ مكانه بين الجنود فى الخنادق والمغاور ، تمسك يده بالمدافع والبنادق يطلقها كما يفعل الجنود .

ورغم ذلك كان يبدو على الايطاليين منذ اللحظة الأولى أنهم خائفون أن تتكرر موقعة عدوة الأولى ، فكان تقدمهم بطيئاً رغم تفوقهم الظاهر ، ورغم تقهقر الجيوش الإتيوبية بناء على أوامر الامبراطور ، فحتى منتصف نوفمبر لم تكن الجيوش الايطالية قد تقدمت أكثر من منطقة عدوة التي هلل الايطاليون

لها حين احتلوها، فذكروا أنهم غسلوا عارعدوة الأولى وقد عللوا هذا البطء برداءة الطرق وضرورة تمهيدها وحراستها وأمنها قبل ان تتقدم الجيوش المحاربة، ولكن هذه الحجة لم تقنع موسوليني الذى كان متعجلا النصر قبل أن تفعل العقوبات الاقتصادية فعلها . فعزل دى بونو من قيادة الجيش وعين بدله بادوليو فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ على أن يغادر نابولى إلى شرق أفريقيا بعد ثلاثة أيام

ويقول الماريشال بادوليو أن تقدم القوات الايطالية لم يكن سهلا بسبب وعورة الأرض ورداءة المناخ ، ولكن رغم ذلك فإن الموقف كان رائعاً ولكنه كان يرى ان هناك مشكلتين تتطلبان دائماً أن يضعها القائد أمام عينيه ، وهما تطور التنظيم الناقص بسبب قلة القوات التى يمكن الحصول عليها ، والتى كان يمكن ارسالها إلى القاعدة ، والثانية هى مشكلة النقص فى الكفايات التى تتطلب كثرة العمل للاصلاح والتحسين ، بينما كانت القوات الاتيوبية آخذة فى التفوق والتدريب .

ولذا اتجهت سياسته الى خطة ذات وجهين أولها تكوين خط دفاعى خلفى يمكن ان ترتكن اليه القوات ، ثم التقدم السريع نحو الأهداف أو مايسمى بالغزو الخاطف . وحدث فعلا أن وجدنا تقدما سريعاً فى الشمال ، ففيما بين ١٠ فبراير و٢ مارس سنة ١٩٣٦ اكتسحت القوات الإيطالية إقليم تجرى ووصلت إلى جوندار العاصمة القديمة ، وفى ٢ ابريل دارت موقعة ماى كو التى كان يقودها الامبراطور ولكن جيوشه هزمت واضطرت الى التقهقر نحو ديسى . ولم يمر عليها وقت طويل هناك لتعيد تنظيم صفوفها ،وقبل ١٥ ابريل داهمتها الجيوش الايطالية واستولت على المدينة ، وبسقوطها فتح الطريق أمام القوات الايطالية إلى أديس أبابا .

هذا بينما كانت القوات الايطالية الجنوبية يقودها الجنرال جرازياني

تعانى قلة الطرق المتسعة لمرور السيارات الثقيلة ، وكذلك قلة الموارد المائية مما أدى الى بطء العمليات فى هذه الجبهة .

وفى ٣٠ ابريل انتقل الماريشال بادوليو إلى ديسى واتخذها مركزا لقيادته واستطاع أن يستخدم الإتيوبيين بالقوة فى شق الطرق وأعمال النقل من أجل الوصول إلى العاصمة قبل أن يداهمه فصل المطر الجديد، وتم له فعلاما أرادودخلت جيوشه العاصمة فى الخامس من مايو سنة ١٩٣٦ فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

ومنذ أن سقطت ديسى رأى الإمبراطور عقم المقاومة ، فعرض الأمر على وزرائه وقواده ورءوس دولته ،فقر رأيهم بالاجماع على أن استمرار الحرب ليس معناه إلا فناء الاتيوبيين دون نتيجة، لا سيا وأن القيادة الايطالية من أجــل كسب نصر عاجل لم تتوقف عن استعمال الغازات السامة والسوائل المحرقة مما عرض الاتيوبيين للإبادة ، كما لجأت إلى سياسة القتل والتدمير على نطــاق واسع ، فكانت قاذفات اللهب تسبق الجيوش الغازية لتمهد لها الطريق بحرق القرى وفيها أهلها ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ ، ومن ثم قرر المجلس ان يخرج الامبراطور ومعه حكومته الى حيث يستطيع الدفاع عن حقوق بلده فى المجالات الدولية ، عسى يستطيع أن يهز ضمير العالم بعد أن ترك للجيش الوطنى حرية العمل فى مقاومة العدو ، تحت قيادة بضعة من الرءوس الذين فضلوا البقاء والاستمرار فى المقاومة على طريقة حرب العصابات .

وما أن سمع سكان العاصمة هذا النبأ حتى اشتعــل فيهم الشعور بالغضب فاندفعوا يريدون أن يجعلوا استيلاء الغزاة على العاصمة غير ذات منفعــة لهم ، فاشتعلت آلاف الحرائق من أجل تدمير كل مايستطيع العدو الاستفادة منه ، كما دارت آلاف الجماعات نحو البيوت تحطم كل ما تجده أمامها كى لا يستفيد العدو من شيء مطلقاً . وانتشر فى نفس الوقت فزع وهلع متماسكا من يعيش

من الأجانب فى العاصمة فلجأوا إلى دور المفوضيات ويطلبون الأمان فى رحابها ، ولكن انتهى كل هذا بدخول الإيطاليين إلى العاصمة . فى الخامس من مايو كما ذكرنا .

وكان الإيطاليون يمنون أنفسهم بالراحة بعد أن قاسوا الحرب السريعة ، فإذا بهم يجدون المدينة أمامهم خراباً . وكان الجيش الإيطالى مكوناً من فريقين هما الجيش النظامى والمتطوعون من قوات المليشيا . وظل الأولون يعيشون وفق نظامهم وإن بدأوا يقاسون انعدام الطعام فى العاصمة بينما خلعت عن الآخرين ملابسهم الحربية وتركوا الحالهم يتدبرون أمرهم . فلم يلبثوا أن بدأوا يقاسون أضعاف ماقاسى الأولون ، فلم تمض عليهم أيام حتى كانت جماعاتهم تطوف شوارع اديس أبابا — وقد بدأ فصل المطر — جياعاً عراة يبحثون عن الطعام واللباس والمسكن .

وكأن لم يتوقع الإيطاليون هذا النصر السريع الباهر . فلم يسع موسولينى إزاء ذلك سوى أن يتحدى العالم كله، ويهزأ بالدول التى وقفت فى وجهه فى عصبة الأمم وبالعقوبات التى فرضت عليه فأعلن قيام الإمبراطورية الايطالية ،فأضاف إلى لقب ملك إيطاليا كلمتا امبراطور إتيوبيا . كما أعلن تنصيب الماريشال بادوليو نائباً للملك وحاكما على امبراطورية شرق إفريقيا الإيطالية .

لم يكد الفاشيون يدخلون البلاد حتى بدأوا بتنفيذ سياستهم التى وضعوها لحكم البلاد وكانت هذه السياسة تقوم على أسس محدودة أهمها :

١ — صبغ البلاد بالصبغة الفاشية ،

٢ — سياسة (فرق تسد) بين السكان من المسيحيين والمسلمين

٣ — القضاء على التعليم والمتعلمين .

٣ — جعل إتيوبيا جزءاً من الوطن الإيطالى .

٥ — التفرقة العنصرية بين البيض والملونين .

٦ — القضاء على العناصر الوطنية .

١ — صبغ البلاد بالصبغة الفاشية :

أعلن الماريشال بادوليو غداة دخول العاصمة الإتيوبية أنه قد سكن الجبى القديم Gebbi (القصر الملكى كما يسميه الإتيوبيون) واتخذ الجبى الجديد مكتباً له وأنه سينتقل فيما بينهما أربع مرات كل يوم فعلى الراكبين أن يترجلوا وعلى السائرين أن يتوقفوا وأن يلتفتوا بوجوههم إلى ناحية موكبه وأن يرفعوا أيديهم بالتحية الفاشية ولم يمض على دخولهم العاصمة أسبوع حتى افتتحت مراكز الحزب الفاشى وخرج موظفوه ورعاته يجوبون الأحياء الوطنية فى عملية إحصاء لتعداد السكان، وجاءت السيارات تحمل إليهم الدقيق والأرز هدية من الدوتشى، واستقبل مراكز الحزب فتيان الإتيوبيين وفتياتهم لتدريبهم وتنظيمهم فى مواكب تذرع شوارع العاصمة هاتفة « دوتشى ! دوتشى ! » بعد أن وزعت عليهم القمصان السود والسراويل القصيرة والقبعات السوداء ذات الزر الصغير، وذهب الدعاة إلى المناطق النائية حيث تقيم القبائل البدائية لتعليم أفرادها التحية الفاشية برفع اليد « اليمنى » إلى أعلى .

ورفع العلم الإيطالى على سارية عالية أمام المبانى الحكومية وجعلت تحيته فرضاً على كل داخل أو سائر برفع القبعة، أما غير المتقبع من الإتيوبيين فعليه واجب الانحناء .

٢ — سياسة فرق تسد بين السكان :

عزم الإيطاليون غداة دخولهم العاصمة على انتهاج سياسة التفرقة بين السكان من المسلمين والمسيحيين وأعلن بادوليو تبرع الدولة الإيطالية بمبلغ كبير من المال لبناء مسجد فى العاصمة يليق بالسكان المسلمين الذين يكونون غالبية

تجاهلتها الحكومة الإتيوبية، وبدأالعمل فى إرساء قواعد البناء، وفى المناطق ذات الأغلبية الإسلامية تعرض المسيحيون لاضطهاد الفاشيين حيث طردوهم من وظائف الدولة واستبدل بهم المسلمون وحدث العكس فى المناطق ذات الأغلبية المسيحية حيث طرد المسلمون واستبدل بهم المسيحيون وألغى تدريس اللغة الأمهرية فى المدارس الإسلامية واستقدم المدرسون من ليبيا لتدريس الدين الإسلامى .

٣ — القضاء على التعليم والمتعلمين :

أغلقت المدارس التى كانت قائمة قبيل دخول إيطاليا وألحق من كان بها من المدرسين الوطنيين أو الأجانب بدور الإذاعة والجريدة الإيطالية التى أصدروها، وبعد عام من احتلالهم أعيد فتح المدارس وجعلت اللغة الإيطالية لغة التعليم وحرم الإتيوبيون من الالتحاق بهـا ، كما أغلقت الصحف الإتيوبية وعزل جميع الموظفين الذين كانوا يشغلون الوظائف الكبرى وأخذ الفاشست فى استدعاء هؤلاء الموظفين الكبار فريقاً إثر فريق لسبب أو لغيره ، وكان هذ الاستدعاء نذيراً باختفائهم إلى الأبد ، وحرص الإيطاليون حين فتحوا مدارسهم الجديدة على أن تكون فى أماكن جديدة وجعلت المدارس القديمة مخازن ومعسكرات .

٤ — جعل إتيوبيا جزءاً من الوطن الإيطالى :

ألغيت الرسوم الجمركية على المصنوعات الإيطالية وخفضت الرسوم البريدية إلى إيطاليا إلى واقع الفئة المحلية واستولت الحكومة على الأراضى الزراعية التى كانت ملكا للحكومة أو لأفراد الأسر المالكة أو الأمراء الذين هجروا البلاد أو الأهالى الذين قتلوا وأخذت فى إعداد هجرات الفلاحين الإيطاليين للعمل فى تلك الأراضى وسرعان ما قسمت إلى عدة قرى يرأس كلا منها (Capo Labori) مهمته مراقبة تقسيم الأراضى وتوزيعها على المهاجرين .

وأقبلت الشركات الإيطالية على افتتاح فروع لها وجعل جميع موظفيها من الطليان واهتموا بإنشاء بعض الصناعات الاستهلاكية التى لا يستغنى عنها الإيطاليون أو التى تلزمهم فى مرحلة الإنشاء كمضارب الطوب ومصانع المكرونة والزيوت والصابون وعمال جميع هذه المؤسسات من الطليان، ولم يترفع الإيطاليون ترفع المستعمرين من الدول الأخرى بل أقبلوا على احتراف المهن المختلفة مهما كانت مكانة أصحابها الاجتماعية كالجزارين والحلاقين والبقالين وعملوا أيضاً فى تعبيد الطرق .

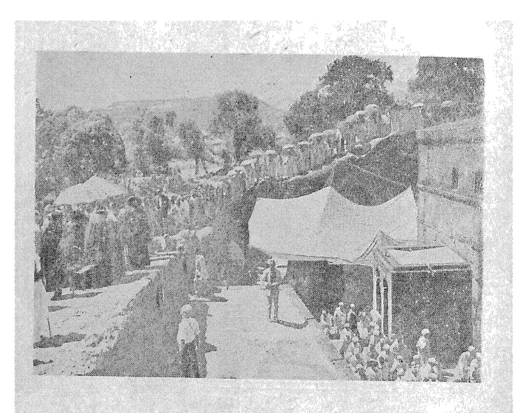
٥ — التفرقة العنصرية بين البيض والسود :

صدر فى يناير سنة ١٩٣٧ قانون بمنع اختلاط الإيطاليين بالأتيوبيين ومنع رجال الدين من عقد الزواج المختلط . كما خصصت أتوبيسات للبيض وأخرى للسود . ومن الطبيعى أن تكون الأولى كبيرة نظيفة ذات مقاعد مريحة ، على عكس الثانية التى كانت صغيرة قذرة ذات مقاعد خشبية نصيب الواقفين فيها أكبر من نصيب الجالسين . وحرم الوطنيون من غشيان الأماكن التى يتردد عليها البيض .

٦ — القضاء على العنصر الوطنى : (أنظر شكل ١٣)

كان الفتك بالوطنيين يتبع بالجملة فى مناطق عدة فى آن واحد ، ففى الثامن من مارس سنة ١٩٣٨ جمع الإيطاليون ستة من شيوخ قرية صغيرة شمال جوندار وذكروا لهم أنهم سيحملونهم إلى روما لزيارة الملك . وفى اليوم الثانى خرجت فتاة إلى الغابة لجمع الخشب من أجل الوقود . فوجدت جثث هؤلاء الستة مهشمة على الصخور التى تحف بمجرى النهر — ومنذ هذا اليوم أصبح تعبير (الذهاب إلى روما) رمزاً للموت .

ولعل أفظع ما حدث فى سبيل هذا الهدف هذه المذبحة التى حدثت فى



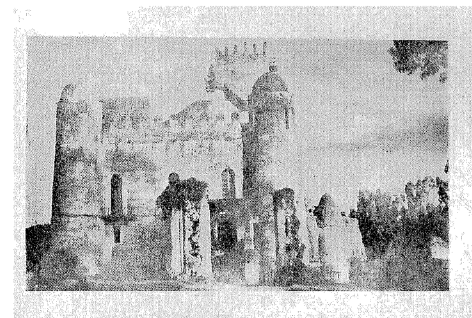
قداسة البابا كرلس السادس يقف أمام إحدى كنائس أثيوبيا المحفورة فى الصخور أثناء زيارته الأخيرة لأثيوبيا ويرى الكهنة الأثيوبيون يحيطون بالكنيسة من أعلى ومن أسفل وبأيديهم المظلات



الصفحة الأولى من الألحان الدينية الأمهرية
التى وضعها الفنان الأتيوبى اساياس علم



صورة الفنان الأتيوبى الملحن للالحان الكنسية الأمهرية
اساياس علم يعرض ألحانه على نيافة أبا تاوفيلس مطران هرر
وهو القائم بأعمال قداسة بطريرك جاثليق Bishop Theophilos
اتيوبيا وأتو اكلا ورك هبث ولد Ato Akklé Werk Habt Weld
وزير التعليم والفنون الجميلة الحالى



قصر الملك فاسيلاداس فى جوندار

أديس أبابا فى المدة بين التاسع عشر والحادى والعشرين من فبراير سنة ١٩٣٧ .

فقد كان من عادة الإمبراطور السابق أن يوزع الإحسان على الفقراء يوم التاسع عشر من فبراير كل عام ــ فأراد المارشال جرازيانى وقد خلف بادوليو فى منصب نائب الملك أن يجرى على نفس العادة ــ فأعلن عن اجتماع بالميدان العام ــ وأقبل هو بموكب كبير يصحبه المطران المصرى الأنبا كيرلس ، وكان الأعيان قد سبقوه . وما كاد الاحتفال يبدأ ويقف المارشال يلقى كلمته ــ حتى سمع صوت قنبلة زمنية قريبة من المكان الذى جلس فيه المارشال والمطران ــ فانطرح الضباط الإيطاليون أرضاً ــ ومرت برهة صمت يسيرة تحقق فيها الجميع أن ليست هناك قنبلة أخرى.قام الإيطاليون على أثرها ليخرج كل منهم مسدسه ويصوبه إلى الأتيوبيين الذين أمامه وبدأ هذه الحركة الضابط (كورتز Cortes) رئيس الشباب الفاشى ، وحذا الباقون حذوه فى سرعة عجيبة وفى أقل من دقيقة واحدة كان هناك أكثر من ثلاثمائة قتيل . وكان عدد الذين نجوا من المذبحة يسيراً . هذا بينما اندفع أصحاب القمصان السوداء الذين كانوا يحيطون بالمكان إلى حيث يجدون شخصاً أتيوبياً أينما كان ليطلقوا عليه الرصاص دون سبب ما .

ولكن هذه المذبحة النهارية لا تقاس فى قليل أو كثير بمذبحة الليل ،حين دارت السيارات الكبيرة لتجمع كل من يشتبه فيه من الوطنيين ، يحرسهم ذوو القمصان السوداء وأية إشارة من أحدهم حتى وإن كانت لطرد ذبابة من على وجهه كافية لإرساله إلى العالم الآخر .

وكان من الطبيعى أن كل ملون كان موضع الشبهة . ومن بقى منهم حياً أوصل إلى الساحة الكبرى أمام القصر الملكى الجديد (سدست كيلو) حيث حرست مداخل الميدان ، حتى إذا تجمعت السيارات أشعلت النار فيها

بحمولتها من الآدميين ، ولذا سمى هذا الميدان عند عودة الحكم الوطنى بميدان الشهداء . وكذلك دارت فرق النار لتحرق ما تشاء من المنازل وفيها أهلها . ومن جرأ من أهل المنزل على الخروج أطلقت عليه النار لساعته .

وفى خلال ذلك كانت السيارات الفخمة يركبها عدد من الضباط ذوى المناصب الكبيرة تجوس خلال الطرق ليشاهدوا ما لذ لهم من هذه المناظر — وكان المارشال جرازيانى—وقد نقل جريحاً إلى المستشفى الإيطالى —يشاهد هذا كله من خلال زجاج نافذته .

وقد كتب أحد المسلمين فى جما إلى الدكتور مارتن الذى كان ممثلا لأتيوبيا فى لندن حتى سنة ١٩٣٦ يقول ،أنها كانت لحظة سجدت فيها لله شكراً على أنى لم أكن مسيحياً ـ حين شاهدت بعينى يوم الأحد الماضى أحد الإيطاليين البيض يدخل كنيسة القرية ويقرع جرسها فأقبل المسيحيون إليها . وما أن تجمعوا أمام بابها حتى خرج هذا الإيطالى ووقف عند المدخل وظهره إلى الكنيسة وركز مدفعه الرشاش فى سرعة وفتحه فحصد جميع القادمين ـ كما كانت الأوامر الأولى لدى الإيطاليين هى قتل كل من يحمل صليباً .

وقد فشلت إيطاليا فى السيطرة على البلاد أثر احتلالها فشلاً ذريعاً، ثم أرادت أن تتخذ الدين وسيلة إلى هذه السيطرة وإن لم يكن فشلها فيه دون فشلها فى المجالات الأخرى فالدين دائما إذا أريد استغلاله فى سبيل السياسة انما هو سبيل العاجزين . وقد اتجهت السياسة الفاشية إلى استغلال الدين من أجل إخضاع الإتيوبيين ، وهم يعرفون ما يكنه الأتيوبيون من الاحترام لرجال الدين عامة والمطران خاصة — فإذا أسبغ الإيطاليون عطفهم على هذا المطران واستمالوه إلى ناحيتهم فأصدر منشوراً يبارك فيه الحكم الإيطالى — ويطلب إلى الشعب الخضوع له ، كان ذلك كسباً كبيرا لهم ولأرواحهم وراحة من كثير من المتاعب.

فما كاد الجيش الإيطالى يدخل أديس أبابا فى السادس من مايو سنة ١٩٣٦ حتى أرسل المارشال بادوليو إلى المطران « كيرلس » رسولا يطلب منه مقابلته، فإذا ما ذهب إليه أحسن القائد لقاءه وأبدى له استعداد الحكومة الإيطالية لمساعدته فى كل ما يرى القيام به من مشروعات، وكرر له الوعد المارشال جرازيانى كل ذلك مقابل منشور رعوى من نيافته يطلب فيه من الشعب الخضوع للحكم الجديد والإخلاص له — ولكن المطران لم يقبل لأنه كان يرى (أن خضوع الشعب للحكومة الجديدة والإخلاص لها أو عدم خضوعه لها مسألة سياسية لا دخل للكنيسة فيها وهى يجب أن تكون بعيدة عن السياسة من أجل أداء رسالتها الروحية) .

فاذا ما رأوا منه امتناعاً عن أداء هذا الطلب حاولوا إغراءه بفصل الكنيسة الأتيوبية عن المصرية، على أن يكون هو رئيساً للكنيسة الجديدة أى بطريركاً ليس عليه من رئيس آخر وله حق رسامة الأساقفة ، وجميع إيرادات الكنيسة سوف تنصب إلى خزانته وليس عليه من رقيب ، فيمكنه بفضل هذا الإيراد المتدفق أن يقيم ما يشاء من المنشئات أو المشروعات فيما يكفل لكنيسة الخير كل الخير . وأبدوا له غضبهم من أن يكون رأس الكنيسة الأتيوبية فى بلد يسيطر عليه البريطانيون أعداؤهم . فأبدى المطران موافقته على هذا الفصل اذا بادرت إيطاليا بفصل جميع الكنائس الكاثوليكية الموجودة فى بلاد يسيطر عليها الإنجليز كذلك — فعرفوا منذ ذلك الوقت أن الرجل لن يكون هيناً فحاولوا أن يلجأوا إلى التهديد .

وكان هذا التهديد على درجات — هدده جرازيانى وحده أول الأمر — حتى إذا فشل هدده معه وزير المستعمرات وقواد الجيش ثم هدده موسولينى بنفسه حين أتى به إلى روما لمقابلته — حتى إذا فشلت كل هذه الوسائل — اتجهوا إلى تغيير سياستهم بعض الشىء .

وكان هذا التغيير الجديد الذى تتق عنه ذهنهم هو فصل الكنيسة الأتيوبية عن المصرية تحت رياسة أتيوبية بدلا من الرياسة المصرية، وحينئذ سوف يكون ذلك أكثر قرباً إلى نفوس الأتيوبيين فسوف يجدون من بينهم من يتطلع إلى شغل هذا المنصب الذى كانوا محرومين منه. كما أن الشعب سوف يرى فى هذه الخطوات إرضاء لكرامته وإشباعاً لعزته القومية، وحينئذ سوف يعرف هذا الشعب المذكر للجميل ما فعله الحكم الجديد لأجلهم.

ولكن لا بد من التمهيد لهذه الخطوة ـ وكان هذا التمهيد هو طرد جميع المبشرين الأجانب من أتيوبيا حتى ولو كان كاثوليكاً، وسوف يغضب هذا الإجراء البابا ولكنهم الآن أحرص على إرضاء الأتيوبيين من إرضاء البابا رغم سياسة حسن التفاهم بينه وبين الحكومة الإيطالية. ثم سلسلة من المقالات فى الصحف بأن استقلال الكنائس الفرعية عن الأم لا يعنى الابتعاد عن الدين ولا المروق منه، فقد سبق أن انفصلت كنيسة روسيا ثم كنيستا رومانيا وبلغاريا عن كنيسة القسطنطينية فلم يعن ذلك مروقاً من الدين ولا خروجاً على العقيدة.

ومن ثم انتهز الإيطاليون فرصة غياب المطران فى مصر فأعلنوا فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ انفصال الكنيسة الأتيوبية وأقاموا أحد أساقفها ـ هو الأنبا أبرام ـ بطريركا، وخولوه حق رسامة الأساقفة ـ وفرض عليه رسم إثنى عشر أسقفاً قبل أن يموت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم عين مكانه الأنبا يؤنس أحد هؤلاء الإثنى عشر ـ واستكتبوه بياناً يشكر فيه الإيطاليين على هذه السياسة الجديدة ـ فأعلنت إيطاليا ضمانها لحقوق الكنيسة واحترامها لأملاكها مع إعلان العفو عن كل من يخضع للحكومة الجديدة خلال خمسة عشر يوما ـ والتهديد لمن بقى على مقاومته، بل وصل هذا التهديد إلى حد الحرمان ـ ورغم ما فى هذه الخطوة من إرضاء للنزعة الاستقلالية عند الأتيوبيين فإنهم لم يخضعوا، بل نظروا

إلى هذا البطريرك الجديد نظرة الخائن لأمته وكنيسته . وكانوا يقاومونه ، بل يقاومون كل من يسانده . فلم يجد الإيطاليون بدأ من اللجوء إلى الشـدة فأعدموا عدداً هائلا من القسس والرهبان وكان نصيب دير « دبراليبانوس» من هذه المذبحة كبيراً بدعوى اشتراك رهبانه فى مؤامرة الاعتداء على جرازيانى. ولم تكف يد الإيطاليين عن ذبح القس مطلقا ، بل بلغت منتهاها حين اجتمع الكهنة للاحتفال بعيد القديس تكلا هيمانوت فقتلوا المجتمعين جميعاً . كما حدثت مذبحة أخرى فى زكوالا لا تقل شناعة عن مذبحة عيد تكلا هيمانوت، فمن بين الأساقفة الأربعة الذين نصبتهم مصر قتل اثنان كان أولهما الأنبا بطرس الذى شنق فى السوق العامة فى أديس أبابا ، وكان الثانى الأنبا ميخائيل بتهمة معاضدتهما لحركة المقاومة، وفى سنة ١٩٤٠ أصدر نائب الملك (دوق داوستا) التنظيمات الجديدة التى اتفق على إجرائها مع السلطة الدينية، فقسمت أتيوبيا إلى عشر أسقفيات يرأس كلا منها أسقف يملك حق رسامة القسس نظير رسوم معينة يستولى عليها الأسقف ـ ولكنهم فى الوقت نفسه لم يبذلوا أى مجهود لرفع المستوى الثقافى للكهنة الأتيوبيين وهو الشيء الوحيـد الذى كانت الكنيسة تنتظره .

ولعل أبلغ ما يعبر عن محنة الاحتلال الإيطالى لأتيوبيا هذه المذكرة التى قدمتها الحكومة الأتيوبية إلى مؤتمر باريس تقدر فيها قيمة الخسائر التى تحملتها البلاد خلال فترة الاحتلال الايطالى بمبلغ ١٨٤٫٧٤٦٫٠٢٣ جنيهاً ، وعدد من قتلوا فى المعارك ٨٧٫٥٠٠ ، وعدد من قتـلوا بالقنابل ١٧٫٨٠٠ ، ومن مات فى مذبحة فبراير بثلاثين ألفا . ومن قتلوا بأحكام عسكرية بعشرين ألفا ، ومن قتلوا فى معسكرات الاعتقال خمسة وثلاثين ألفا، ومن قتل خلال حرق القرى بثلاثة آلاف أى ما يعادل ٢ ٪ من عدد السكان. أما نصيب المتعلمين فقدقدرت الحكومة الاتيوبية عدد المتعلمين الذين قتلوا بـ ٧٥ ٪ منهم .

على أن العدل يقتضينا أن نقرر أن الحكم الإيطالى قد أفاد البلاد من بعض النواحى .

فإلى جانب البؤس الذى نشره الإيطاليون على الأتيوبيين فيجب أن توضع موضع التقدير هذه المنشئات التى أقاموها، فهى لم تعط البلاد أساساً اقتصاديا هاما لحسب ولكنها فتحت الطريق أمام مستقبل صناعى تقدمى وأقامت أمامهم مثالا لحياة ذات مستوى رفيع، وأباحت لبعض الأتيوبيين أن ينعموا بأشياء هيأها لهم الايطاليون . فقد صرف الإيطاليون مبالغ هائلة لم يكن من الممكن أن تصرف دون أن يستفيد منها الأتيوبيون . فقد ارتفعت أجرة العامل وظهرت بضائع جديدة حتى لقد زادت قيمة الواردات الأتيوبية إلى ٣٠٠ ٪ من قيمتها قبل الحرب،وكان نصيب الأتيوبيين منها ضئيلا ولا شك إلا أنه رفع من مستوى حياتهم ارتفاعاً ظهر أثره فيما يستهلكونه من منسوجات قطنية .

ولعل أهم ما نفذه الإيطاليون خلال احتلالهم هو نظام الطرق . إذ لم يكن هناك قبل مجيئهم سوى طريق واحد من أديس أبابا إلى ديسى فبحيرة أشانجى عمل خلال الغزو الإيطالى. وكان هناك طريق آخر إلى جما لجورى وثالث إلى كينيا ولكنها كانت لا تصلح إلا فى أوقات الجفاف. فمد الإيطاليون أكثر من أربعة آلاف ميل من الطرق منها ٢١٤٥ ميلا بالمكدام وبلغت تكاليفها بين ٨٠ و ١٠٠ مليون جنيه وبلغ عدد العمال الإيطاليين الذين عملوا فى هذه الطرق فى بعض الأحوال أكثر من ستين ألف عامل، فمدت الطرق إلى أسمرة وإلى جمبلا وإلى دوالى ولكمتى وعصب وكلها متسعة صالحة للسيارات تجتاز عدة طرق وكبارى على أساس صخرى .

الفصل العاشر

عودة إثيوبيا المستقلة

لم تلبث الأحوال الدولية أن اضطربت منذ سنة ١٩٣٥ ، يوم اعتدت إيطاليا على أتيوبيا، وعجزت عصبة الأمم بإجراءاتها العقيمة عن منع هذا الاعتداء، ثم يوم قيام الحكم النازى فى ألمانيا ، وإعلان زعيم هذا النظام عن رغبته فى التخلص من كل آثار معاهدة فرساى .

وتأزم الموقف الدولى عقب إعلان محور روما برلين طوكيو فى سنة ١٩٣٧ ووصلت الأزمة ذروتها فى سنة ١٩٣٨ ، حين اعتدى هتلر على استقلال النمسا ثم ضمها إلى ألمانيا فكون وحدة المتكلمين بالألمانية ، ثم اشتد تأزمه فى أغسطس من تلك السنة ، حين طلب هتلر ضم إقليم السوديت التشيكوسلوفاكى ، وهدد بإعلان الحرب . ولكن تسوية ميونخ أرجأت الإنفجار إلى حين ، ثم قبلت إنجلترا وفرنسا هذا الضم، الذى فى غداته أقيلت حكومة تشيكوسلوفاكيا ، وقبلت الحكومة الجديدة الحماية الألمانية ، التى فى ظلها قسمت تشيكوسلوفاكيا بين حكومتين، إحداهما للتشيك والأخرى للسلاف . وحينئذ أيقن العالم أن الحرب قادمة لا محالة ، وتهيأ الجميع للانفجار المرتقب ، ومن ثم أخذ كل فريق يكون الحلف الذى يخيل إلى أفراده أن مصالحهم أكثر تقاربا ، فأعلنت كل من إنجلترا وفرنسا ضمانها لحدود بولندا ، وقبلت حكومتها هذا الضمان ، وتقربتا إلى الاتحاد السوفيتى الذى أعلن النظام النازى منذ قيامه فى سنة ١٩٣٤ عداءه له ، فاشترط حرية المرور لجيوشه فى أراضى بولندا ، على أن الأزمة بلغت منتهاها حين أعلن هتلر رغبته فى ضم الممر البولندى فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، من أجل وصل بروسيا الشرقية

بالأراضى الألمانية ، كما أعلن إلغاء الاتفاق البحرى البريطانى الذى يقيد حمولة الأسطول الألمانى بنسبة خاصة ، فاذا ما أعلن عقد اتفاق عـــدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتى وألمانيا فى نهاية أغسطس بادر هتلر فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ بالسير نحو الشرق لضم الممر البولندى وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية.

وظلت ألمانيـا تحارب وحدهـا ، وتـكسب الانتصارات المتوالية فاكتسحت جيوشها بولندة واقتسمتها مع الاتحاد السوفيتى وأعلنت إيطاليا فى نفس الوقت تأييدها لألمانيا وتصميمها على الدخول فى الحرب فى الوقت الملائم ، ولم يأت مايو ســــنة ١٩٤٠ حتى اكتسحت القوات الألمانية بلاد النرويج والدانمرك وهولندا وبلجيكا .

وفى يونيو ١٩٤٠ سلمت بلجيكا فانـكشف الجناح الأيمن لقوات الحلفاء وهددت جميع جيوشها فى غرب أوروبا بالتطويق ، فلم تملك إلا الانسحاب من دنـكرك بينما اندفعت الجيوش الألمانية إلى قلب فرنسا .

وفى خلال ذلك كانت كل من إنجـــلترا وفرنسا ومعهما الولايات المتحدة الأمريكية تحاول الاتصال بإيطاليا من أجل التأثير عليها لتترك محور روما برلين طوكيو ، وتنضم إلى الحلفاء ، كما فعلت فى الحرب العالمية الأولى . على أن يكون نصيبها من غنيمة الحرب هـــذه المرة أفضل من نصيبها فى الأولى . وإيطاليا تتدلل عليهم حتى إذا كان يونيو سنة ١٩٤٠ واكتسحت الجيوش الألمانية شمال وغرب فرنسا ، وخيل لـكل واحد أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت وأن استمرارها لا يعدو بضعة أيام ، تطلب فى خلالها كل من إنجلترا وفرنسا التسليم دون قيد أو شرط ، أعلنت إيطاليا الحرب على كل من إنجلترا وفرنسا فى صف ألمانيا .

كان الإمبراطور هيلاسلاسي منذ أن خرج من إتيوبيا فى سنة ١٩٣٦ يقيم

فى إنجلترا يرقب كل هذه الأحداث بصبر وإيمان ، ليرى إلى أى حد يستطيع أن يستغلها لتستفيد إتيوبيا منها ، ومن الطبيعى أن إيطاليا لو كانت قد قبلت ما عرضه عليها الحلفاء ، من ترك جانب المحور والانضمام إلى الحلفاء لكان احتفاظها بكل ما فى يدها من مستعمرات فى أفريقيا ، ثم طلب مستعمرات جديدة هو الشرط الأول لهذا الإنضمام .

وكان إعلان إنضمام ايطاليا إلى ألمانيا ، يعنى ولا شك بدء الهجوم على الأملاك الإيطالية أينما كانت ، وكانت إتيوبيا ولا شك واحدة منها . وكانت إيطاليا قد ركزت فى إمبراطوريتها الشرقية الأفريقية كل وسائل الدفاع بقيادة نائب الملك هناك الدوق داوستا ، الذى كان يدرك أن وصول إمدادات جديدة عن طريق قناة السويس ، أو أى طريق بحرى آخر لا يعدو حلماً من الأحلام .

فى هذا الظروف اتصل الإمبراطور هيلاسلاسى بالحكومة البريطانية ، وأقنعها أنه يستطيع أن يساهم فى الهجوم على الإمبراطورية الإيطالية فى شرق أفريقيا ، وهو وإن كان لا يملك المال اللازم للقيام بهذا الجهد إلا أنه يملك القوة التى يستطيع تجنيدها ، والتى تتمثل فى الاتيوبيين الذين يعيشون خارج إتيوبيا ، على أن تتكفل إنجلترا بمدهم بالسلاح والمال اللازمين لهم ، إلى جانب قوة أخرى من قواتها لتعمل إلى جانبهم .

واقتنعت إنجلترا بهذا الرأى ، فانتقل جلالة الإمبراطور إلى الخرطوم ، ومعه القلة من أتباعه التى مازالت تؤمن بحق بلادها ، وجمع حوله جميع الإتيوبيين المشتتين فى جميع أنحاء العالم ، وأخذ فى تدريبهم هناك ، ليخلق منهم قوة ضاربة ، تستطيع أن تحقق استقلال بلدها . وفى نهاية سنة ١٩٤٠ خرجت الحملة الاتيوبية من الخرطوم بقيادة الإمبراطور لتدخل ثانية إلى إتيوبيا تؤيدها قوة من قوات جنوب أفريقيا .

وشقت الحملة طريقها متتبعة نهر الرهد لتدخل إلى إقليم جودچام ، وما أن وصلت الحملة الحدود الاتيوبية السودانية حتى أعلن قيام حكومة إتيوبيا المستقلة ، فتقاطر أبناء البلاد يعاونون جيشهم وإمبراطورهم فى استعادة استقلالهم المفقود.

ونجحت الحملة فى التقدم متغلبة على كل القوات الإيطالية التى وقفت فى وجهها ، حتى وصلت دبرامار كوس عاصمة جودچام فى مارس سنة ١٩٤١ ثم عبرت النيل الأزرق وقبل أن ينتهى شهر أبريل ، أشرفت على أديس أبابا حتى وصلت إلى جبل انطوطو ودخلت العاصمة فى الخامس من مايو ، وهو نفس اليوم الذى دخلتها فيه الجيوش الإيطالية منذ خمس سنوات .

وبذلك عادت إتيوبيا المستقلة إلى عالم الوجود ، بفضل إمبراطورها وأبنائها المغتربين ، الذين كانوا يعيشون فى الخارج يغذيهم أمل واحد ، وهو العودة إلى بلادهم بعد أن يطردوا منها الغزاة المستعمرين ، وهو أمل بدا فى أيام كثيرة حلماً بعيد التحقيق لا سيما بعد أن دعت إنجلترا العالم فى سنة ١٩٣٧ إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وإلغاء العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، مخافة خطر الحرب ، وعقدت فى بداية سنة ١٩٣٨ اتفاق الجنتلمان ، الذى يعترف بالإحتلال الإيطالى لإتيوبيا ، بل بأحقيتها فى تحقيق الأحلام الإيطالية .

وكانت عودة إتيوبيا المستقلة على رأسها الإمبراطور هيلاسلاسى الأول ، إيذاناً بهدم كل ما فعلته إيطاليا هناك للقضاء على القومية الإتيوبية ، ثم بدء السياسة الجديدة التى ترمى إلى إحياء القومية الإتيوبية ، وإعادة النظام الإتيوبى القديم بل بناء أتيوبيا الجديدة ، على أسس جديدة أقرب ما تكون إلى الأسس الأوروبية ، وإن كانت لا تعارض التقاليد الإتيوبية التى ورثها الإتيوبيون . .

ومن أجل مساعدة الدولة الجديدة على العمل عقد الإمبراطور هيلاسلاسي

مع إنجلترا معاهدة الصداقة الإتيوبية البريطانية فى سنة ١٩٤٢ لمدة عامين ، نصت على أن تقدم بريطانيا إلى إتيوبيا كل مساعدة ممكنة فى سبيل إعادة البناء القديم ، وأخذت هـذه المساعدة شكل مبالغ سنوية قدرها مليونان من الجنيهات ، تدفعها الحكومة البريطانية إلى الحكومة الإتيوبية ، كما تقدم إليها المستشارين والموظفين الذين تستطيع بهم إتيوبيا دفع عجلة الإدارة إلى العمل ، على أن ينشىء الإمبراطور نظاماً قضائياً حديثاً . وبمقتضى هـذه المعاهدة احتل الجيش البريطانى إقليم أوجادين ، ومنح بعض الإمتيازات فى سكة الحديد الأتيوبية ، وجـددت المعاهدة فى سنة ١٩٤٤ ، وبمقتضى هذا التجديد قدمت بريطانيا لإتيوبيا قرضاً قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، تسدد بنفس شروط الإعارة والتأجير الذى تقدمه أمريكا كما تجلو الجنود البريطانية عن أرضها .

وأخذت الحكومة الجديدة منذ اللحظة الأولى فى تنظيم الإدارة ، فأبعد جميع المستوطنين الإيطاليين ، إلا من أرادت إتيوبيا الاستفادة من خـبرته كالأطباء والمهندسين ، واستولت على جميع ما ملكوه هناك ، حتى تنتهى الحرب فتسوى مسألة التعويضات عن كل ما تكبدته إتيوبيا فى حربها مع إيطاليا .

وبدء بالتقسيم الإدارى فألغى التقسيم الادارى الإيطالى ، كما الغى التقسيم الوطنى القديم وقسمت البلاد إلى اثنتى عشرة مقاطعة إدارية Province تنقسم كل منها بدورها إلى مديريات Sub-Province ، ثم تنقسم هذه إلى District و Sub district وأصغر وحدة هى القرية التى يرأسها (شوما) ، وجعل لكل مقاطعة عاصمة يقيم فيها حاكم عام يعينه الإمبراطور ، بعد رأى وزارة الداخلية على أن يمثل هذا المدير جميع فروع الحكومة هناك . وتجوهلت سلطة الرءوس تجاهلاً تاماً . ومن كان منهم معارضاً للحكومة الجديدة اعتقل إلى حين ، ومن كان منهم موالياً للحكومة اعترف بمكانته وإن لم يعترف بنفوذه .

وأعيد العمل بالدستور القديم بعد أن عدلت طريقة الانتخاب وأعطى الشعب حق انتخاب نوابه بطريقة غير مباشرة، وجعل انعقاد الهيئة التشريعية إجبارياً مرتين كل عام، وخلق منصب رئيس الوزراء وأصبح يمثل الصلة بين الإمبراطور والوزراء ، وجعل الجميع مسؤولين أمام الإمبراطور عن تنفيذ الأوامر التى يصدرها اليهم ، وأخذت سلسلة من المراسيم والأوامر الوزارية تصدر من أجل تنظيم فروع الإدارة الحكومية والكنيسة ، استناداً على ما للامبراطور من حق التشريع فى أثناء غيبة البرلمان ، ونظمت الضرائب على أساس جديد ، وجعلت كلها نقدية ، وأوكل إلى موظفى وزارة المالية أمر جبايتها وتوريدها إلى الخزانة العامة ، تؤيدهم سلطة الحكومة . وجعلت الضرائب على الأرض والعقار فى المقاطعات التى يستقر أهلها ، بينما جعلت على الرءوس فى المناطق التى ما زال أهلها يعيشون معيشة يدوية . كما فرضت ضريبة الدخل على الموظفين والتجار وأصحاب المهن .

وأرسلت قوات الحكومة للقضاء على عصابات الشفتا وقطاع الطريق .من أجل إقرار سلطة الحكومة ، ونظمت الرسوم الجمركية على أساس أن تكون مورداً من موارد الدولة ، وحامية لما تركه الإيطاليون من صناعات عمل على بقائها وإنمائها من أجل الإستفادة منها .

وإذا ما أنشت هيئة الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٥ انضمت إتيوبيا إلى عضويتها لتأخذ مكانها إلى جانب دول العالم ، ولتستفيد قدر الطاقة من كل ماتبذل هذه المؤسسة العالمية من الجهد لمعاونة الدول المتخلفة ، وسمح للمبشرين الذين طردهم الاحتلال الإيطالى بالعودة إلى البلاد ليباشروا نشاطهم . ولكن الحق أن مركزهم لم يعد سهلا ، إذ ازدادت المعارضة الدينية السابقة لهم بسبب ما أثر عن موقفهم تجاه القومية الإتيوبية ، من أنهم كانوا سبباً فى أضعافها لإظهارهم الأوروبيين دائماً بمظهر أصحاب السيادة والسلطان . ولذلك أخذت الحكومة

الجديدة فى الحد من نشاطهم منذ سنة ١٩٤٤ حين صدر القانون الذى نص فى مذكرته التفسيرية على أن الحكومة راغبة فى أن لاتباشر الجمعيات التبشرية نشاطها لتحويل الإتيوبيين عن عقيدتهم الأرثوذكسية التى اعتنقوها منذ بدء المسيحية بل لأجل تركيز نشاطهم فى الجهات والعناصر غير المسيحية) ولذا حددت بواسطة وزارة التربية منطقة لكل بعثة تزاول فيه نشاطها ، وحتم على كل جمعية أن ترسل إلى الوزارة كشفاً بأسماء أعضائها ، ومؤهلاتهم ومناطقهم ومدى نشاطهم ، أما المناطق التى لايجوز لهم مباشرة نشاطهم فيها فسميت (مناطق مغلقة)، لايجور أن يزاولوا فيها نشاطاً غير النشاط الطبى والتعليم غير الدينى على أن تكون الأمهرية لغة التعليم .

ووجهت العناية إلى التعليم فحددت واجبات الوزارة تحديدا واضحاً ، وأنشىء مجلس أعلى للتعليم ، وفرضت ضريبة خاصة تصرف حصيلتها على التعليم ، كما جعلت بعض واجبات التعليم على المجالس الإقليمية تخفيفاً لعبئه عن كاهل الميزانية، وأنشىء عدد كبير من المدارس الإبتدائية والثانوية ، ووصل مستوى الأخيرة إلى مستوى الشهادة الثانوية فى انجلترا ، كما أنشئت فى أديس أبابا كلية جامعية[1] حوت ست كليات هى الآداب والعلوم والتجارة والزراعة والطب والادارة، كما اتجه إلى النشاط الإقتصادى، خصوصاً بعد أن توقفت المعونة البريطانية ، فاتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعقد معها اتفاقا على أساس قانون الإعارة والتأجير ، كما استفاد من النقطة الرابعة التى تبذل العون الفنى للدول المتخلفة ، وأصدر عملة جديدة ، ولن أحاول هنا أن أسرد تفصيلا مابذل من الجهد فى الميدان الإقتصادى بل يكفى أن الق نظرة سريعة على أحوال البلاد. الإقتصادية فى الوقت الحاضر لأعرف مقدار مابذل فى هذه الناحية من جهد ملحوظ.

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٥ احتفل جلالة الإمبراطور باليوبيل الفضى لاعتلائه

---

(١) تحولت بعد ذلك الى جامعة كاملة

العرش ، فمنح شعبه دستوراً جديداً من أجل (تدعيم التقدم الذى حصلنا عليه ووضع أساس متين لسعادة الأجيال الحاضرة والمستقبلة) وقد منح الإمبراطور لشعبه فى هذا الدستور مزيداً من الحقوق التى لم يعترف بها إمبراطور قبله ، كحق حماية القانون لكل فرد من الشعب ، وحرية الكلام والمراسلة والامتلاك ، والإجتماع والسفر والعمل وكانت هذه الحقوق كلها - إلى ماقبل صدور هذا القانون - غير معترف بها. كما جعلت عضوية مجلس النواب بالإنتخاب الذى جعل من حق جميع الإتيوبيين الحائزين لشروطه من الذكور والأناث ، ولكنه خلق إلى جانب الهيئة التشريعية مجلس التاج ، المكون من الإمبراطور والمطران مع من يرى الإمبراطور تعيينه من الأعيان لمعالجة المسائل الكبرى.

وكان إصدار هذا الدستور الجديد خطوة تقدميه فى سبيل تطوير نظام الحكم نحو ديموقراطية صحيحة ، وقد استمدت معظم مبادىء هذا الدستور من الدستور الأمريكى ، رغم اختلاف شكل الحكم فى كل منهما[١] .

أما عن السياسة الخارجية فإن الحكومة الإتيوبية تميل كل الميل انتهاج سياسة الحياد بين المعسكرات المتصارعة ، فرغم الاتجاه الغربى الأمريكى وقبول الحكومة لجملة معونات أمريكية وخاصه من النقطة الرابعة ، إلا أن اتفاقات أخرى عقدت من دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد السوفييتى ، من أجل تنمية التبادل التجارى ، وكذلك مع دول الحياد ، فقد منحت يوغوسلافيا امتياز تمهيد الطريق بين عصب وأديس أبابا ، وهو الطريق الذى تبغى الحكومة من ورائه تنمية ميناء عصب من أجل ان تخلق منه ميناء لوسط إتيوبيا ، تنافس به ميناء جيبوتى الصومالى بل الفرنسى ، كما عقد اتفاق آخر مع الجمهورية العربية المتحدة من أجل التبادل التجارى تحصل بمقتضاه مصر على ماتريد من اللحوم واللبن

---

(١) أنظر « الدستور الإتيوبى » للمؤلف .

والجلود والقمح ، لقاء ماتحصل عليه إتيوبيا من الأرز والقطن، علاوة على إطارات السيارات والسجاير وعربات السكك الحديدية ، وقد زار جلالة الإمبراطور مصر فى شهر يونيو سنة ١٩٥٩ زيارة صدر على أثرها بيان مشترك ، يعبر عن جو الصداقة والود الذى دارت فى خلاله المباحثات والذى يربط البلدين ، وأكد اتفاق البلدين من القضايا الدالية عامة والأفريقية خاصة .

وتنهتج الحكومة الإتيوبية سياسة التشجيع لما أطلق عليه الإمبراطور (خلق الشخصية الأفريقية) وهى سياسة ترمى إلى تشجيع الحركات التحريرية الأفريقية .

وقد عقد فى أديس أبابا فى يوليو سنة ١٩٦٠ مؤتمر الشعوب الأفريقية المستقلة ، عبرت فيه الدول المجتمعة عن أمانيها فى التعاون الكامل بين الشعوب الأفريقية وخاصة فى مجال مساعدة الشعوب غير المستقلة فى سعيها نحو الاستقلال والتحرر .

هذا وقد تزعم الإمبراطور هيلاسلاسى منذ سنة ١٩٦٤ حركة الدعوة الى إقامة منظمة الدول الأفريقية ، وأثمرت الدعوة ثمرتها سريعاً . فاجتمعت الدول الأفريقية اجتماعها الأول فى تلك السنة فى أديس أبابا ، لوضع الميثاق وتوقيعه وهو مكون من ثلاث وثلاثين مادة (١)

واجتمع مؤتمر القمة الأفريقى اجتماعه الثانى فى القاهرة فى السابع عشر من يوليو سنة ١٩٦٤ وتحدث فيه جميع رؤساء الدول الأفريقية عن أملهم فى أن يروا هذه المنظمة ، وقد عكست آمال الشعوب الافريقية كلها . وقامت هى بدورها فى تنظيم التعاون بينها ، ومساعدة الشعوب الأفريقية الأخرى التى لاتزال ترزخ تحت نير الإستعمار الأوروبى .

---

(١) أنظر « استعمار القارة الأفريقية واستقلالها » للمؤلف .

ولما كانت الزراعة هى أساس الاقتصاد الإتيوبى . إذ تملك من الإمكانيات ما يجعلها يوماً (سلة خبز) للشرق الأوسط كله فمناخها معتدل وتربتها خصيبة ومطرها كاف ، يؤهلها لنمو المحاصيل على طول السنة ولكن بعض العيوب تعرقل نهضتها فالمالك الإتيوبى مازال يفضل أن يؤجر أرضه لمن يشرف عليها أثناء غيابه،وكثيرمن المتعلمين يأنفون من العمل فى الحقل، وقد وجهت الحكومة عناية كبيرة لتنمية الزراعة وتتعاون فى هذا السبيل مع منظمة النقطة الرابعة وقد افتتحت أكثر من مدرسة زراعية كان آخرها التى أنشئت فى امبو سنة ١٩٥٧ وهى تؤهل طلبتها لحمل درجة البكالوريوس فى الزراعة .

وما يزرع من أرض إتيوبيا الصالحة للزراعة لا يعدو حاليا ١٠ ٪ بينما تغطى المراعى ٣٠ ٪، والباقى إما غابات أو أراضى مهملة . ومعظم الأراضى الزراعية يوجد فى المرتفعات الشمالية حيث الموطن التقليدى للاتيوبيين وهناك أيضاً المنحدرات الجنوبية للاخدود الأفريقى حول مجرى نهر أواش الأعلى والأوسط . ولكن كثرة المطر خلال الموسم الكبير تجعل عملية التعرية قوية ومستمرة وهى أكبر المشاكل التى تواجهها إتيوبيا .

وما زال البذر وجنى المحصول يجرى على الطرق البدائية وبأبسط الآلات ولا يبيع الإتيوبى سوى ١٠ — ٢٠ ٪ ما ينتجه، ومحصوله منخفض رغم التربة الجيدة، والفلاح الإتيوبى مازال مصمما على حرث الأرض بعد البذر عندما يبدأ النبات فى النمو مما يؤدى إلى اتلاف عدد كبير من النباتات الغضة، كما أن ممارسة البذر على نطاق واسع وبدون نظام ما ثم مباشرة حرث الأرض يجعل العزق صعباً وعديم القيمة .

ويتم الدرس بواسطة الحيوانات التى تسير مرات على المحصول ولذا كان المحصول النهائى ذا مستوى منخفض ونظافته لا تعدو ١٥ ٪ من درجة النظافة

المطلوبة . وقد أوصت النقطة الرابعة باستعمال النورج ، كما أوصت باستعمال العربات من أجل نقل المحصول، ولكن هذه كلها مازالت بعيدة عن التنفيذ ، بسبب شدة ميل الفلاح الإتيوبى إلى المحافظة .

وأكثر المحاصيل انتشاراً هو الطيف[1] وهو يستهلك محليا، وهناك أيضاً القمح والشوفان والذرة والبن وهذا الأخير لا يزرع ولكنه ينمو بريا ، وهناك أيضاً كميات من القطن والخضر والفاكهة ولكنها قليلة وتزرع حبوب الزيت بكثرة من أجل الاستهلاك المحلى .

وليست هناك مناطق خاصة بمحاصيل خاصة بل كلها مختلطة ببعضها، وإن كانت هناك بعض المحاصيل التى لاتنمو إلا فى مناطق خاصة من أجل صلاحية مناخها، فالحبوب الصغيرة على الجملة تنمو فى المرتفعات العالية وتنمو الذرة والطيف وبعض الحبوب فى المرتفعات المتوسطة بينما ينمو القطن فى المنخفضات .

وأهم المحاصيل إطلاقا هو البن وهو يكون ٦٢٫٤ ٪ من صادرات إتيوبيا وقد بلغت قيمة المصدر منه فى سنة ١٩٦٢ ٦١٣ مليونا من الريالات وهو — كما ذكرنا — ينمو بريا وتحاول زراعته بعض الشركات الأوربية. والبن الإتيوبى ذو قيمة عالية ، فهو ينتج قهوة ممتازة كما شهد بذلك خبراء النقطة الرابعة ، ولكن الوسائل الاتيوبية البدائية فى التجفيف والتنظيف والاعداد ، تنتج بنا ضعيفاً. إذ تقطف الحبوب مرة واحدة فى السنة ، دون مراعاة لامتلائها أو نضوجها ، بينما يترك الساقط على الأرض فيتعفن، ثم يفرش المحصول على الأرض ليجف ويجمع بعد بضعة أيام مخلوطاً بالحصى، ولا يبذل أى مجهود للمحافظة على جفافه أو تنقيته.

ومناطق البن فى الوقت الحاضر تكاد تكون معزولة ، ولذا أوصت النقطة الرابعة — بشق مجموعة من الطرق الممهدة، للوصول إلى هذه المناطق ولنقل المحصول نقلا سريعاً دون كثير من التكلفة .

---

(١) حبوب صغيرة تشبه البرسيم ولكنها حمراء اللون تستعمل فى عمل الخبز الوطنى .

ولعل أهم ما تبذله إتيوبيا فى الوقت الحاضر . فى ناحية التقدم الزراعى يتم فى ميدان إنتاج القطن ، فإن عمليات المسح التى تمت حتى الآن تؤكد وجود مناطق واسعة صالحة لإنمائه . ولا شك أن هناك كثيراً من الأسواق تنتظره . ومعظم مايزرع الآن، وهو يبلغ بضعة آلاف من البالات، يستهلك محلياً. وهى تستورد فوق ذلك قطناً خاماً من أجل مصانع النسيج الثلاثة فى أسمرة وديردوا وأديس أبابا .

ومن بين الأسباب التى تعوق نهضة إتيوبيا الزراعية قلة رؤوس الأموال، وقد صرحت الجرائد الإتيوبية أكثر من مرة أنها ترحب برءوس الأموال الأجنبية التى تعمل فى الميدان الزراعى . ولا شك أن هـذه سياسة حسنة من الحكومة تدل على بعد النظر .

ويمثل الرعى قطاعاً كبيراً من حياة إتيوبيا الإقتصادية وقد قدرت النقطة الرابعة ثروتها الحيوانية فى ديسمبر سنة ١٩٥٤ بخمسة عشر مليوناً من الماشية، وإثنتى عشر مليوناً من الخراف ، وثلاثة عشر مليوناً من الماعز ، وثلاثة ملايين من الخيول والبغال والحمير، ثم ستمائة ألف جمل. والماشية — علاوة على كونها ثروة كبيرة، فهى فى بعض أجزاء الجنوب مقدسة لا تؤكل، وفى بعض الأجزاء الرعوية يعتبر اللبن الغذاء الوحيد لأهلها ، مادامت الزراعة غير معروفة لديهم ، والأرض جرداء لا تساعد على قيامها . وتحاول الحكومة جادة المحافظة على هذه الثروة فأصدرت قانوناً بالزام الفلاحين بتطعيم الماشية ضد الجدرى ، فطعم ثلاثة ملايين من الماشية فى مدى ست سنوات . ولكن يعوقه جهل الفلاحين بأهمية التطعيم قبل هجوم المرض . ولكن إنشاء كلية للطب البيطرى فى سنة ١٩٦٢ قد يؤدى فى المستقبل إلى الإهتمام بالثروة الحيوانية .

وماشية إتيوبيا على العموم ضعيفة إذ تؤجر الحيوانات القوية للعمل فى

الحقل ، فتنهك قوتها ، والخراف صغيرة ، وصوفها قصير كثير التجاعيد ولذا لا تنتج صوفا جيداً أو كثيراً، يستهلك كله فى الغزل اليدوى لتصنع منه أنواع رديئة من البطاطين أو المعاطف ، ولكن تبذل الآن جهود كبيرة من أجل الاهتمام بالثروة الحيوانية وحفظ صحتها وزيادة إنتاجها، لا سيما تربية خراف المارينو إلا أن عددها مازال ضئيلا ويعزو الخبراء ذلك إلى سرعة جفاف الحشائش عقب فصل المطر .

وما تنتجه إتيوبيا من الجلد يفوق ما يطلبه السوق المحلى، ويقدر ما تنتجه سنويا بخمسة وعشرين مليونا من الريالات ، وقد بذلت الجهود من أجل تحسين الجلود لتصديرها ولكن ما زالت عيوبها كثيرة ويوجد فى الوقت الحاضر أكثر من مائة سوق محلى لتجارة الجلود . والمذابح قليلة ولا توجد إلا فى بعض المدن وقد أنشأت إحدى الشركات مذبحا حديثا فى أسمرة وآخر فى جيبوتى وحاولت ذلك فى ديردوا وأنشىء البنك التجارى برأس مال قدره مليون ريال فى سنة ١٩٤٥ من أجل مساعدة الزراع وهو يعطى سلفا صغيرة للزراع .

وتقوم فى اتيوبيا حاليا بعض الصناعات مثل الأحذية والأسمنت والسجاير وحفظ اللحوم وتقطيع الأخشاب والزراير والكبريت والأثاث والصابون ويبلغ رأس المال المستثمر فى الصناعة حاليا بمبلغ يتراوح بين ٧٥ و ١٠٠ مليون ريالا اتيوبيا أى مايعادل ٥ ٪ من المال المستثمر فى البلاد وهو يقدر بمليارين .

وأكبر الصناعات فى الوقت الحاضر زراعة السكر وصناعته، فهناك شركة هولندية تباشر نشاطها فى منطقة تبعد عن العاصمة بستين ميلا ورأس مالها عشرون مليونا من الدولارات الإتيوبية. وهى توسع أعمالها سنويا لتصل به إلى ٥٢ ألف طنا من السكر المكرر والناتج الحالى نصف هذا الرقم .

وكانت معظم الصناعات تتركز حول أديس أبابا وأسمرة وديردوا ومصوع إلا أنها امتدت فى الوقت الحاضر إلى أجزاء أخرى بديعة مثل جما وديردوا وهرر.

والمعلومات قليلة عن جنسية الأموال المستثمرة في الصناعة ويبدو من أسماء الشركات في ارتريا أن نصفها إيطالى . أما فى أديس أبابا فمعظمها أرمنى ويونانى. وهناك أيضاً بعض الإيطاليين الذين يعملون فى تعبئة الطماطم، وهناك بعض الشركات الأمريكية التى تعمل فى الأبحاث وأهمها شركة سنكلر للزيوت وقد ظلت تبحث عن البترول مـــدى عشر سنوات، فحفرت سبعة عشر بئراً دون الوصول إلى نتيجة. وقد جاء فى الجرائد أخيراً أنها انسحبت من الميدان تاركة أعمـــالها لشركة ألمانية حديثة .

والمـــال الاتيوبى الذى يعمل فى الصناعة مازال قليلا فمعظم الإتيوبيين مازالوا عازفين عن الصناعة، ولذا كان معظم المال الإتيوبى الذى يعمل فيها حكومياً وهو فى ميدان السجاير والخبز والأسمنت ،وهناك أيضاً مصنع حكومى لصنع الذخيرة الحربية .

وفى سنة ١٩٦٢ أنشىء مصنع للسكر فى شوا ، وهو ينتج أربعين ألف طناً سنوياً . كما أنشىء مصنع للحلوى ينتج خمسة وثمانين طناً ، ومصنع لحفظ اللحوم فى ديردوا، يعلب سنوياً لحوم ٢٥٠ ألفاً من رءوس الماشية، وتقدر قيمتها بخمسة عشر مليوناً من الريالات . أما نسج القطن فله الآن ثلاثة مصانع فى بحر دار . وديردوا وأسمرة والأول برأس مال هندى إتيوبى وبه عشرون ألف مغزل . وأنشىء مصنع لتجميد اللحوم برأس مال قـــدره مليون ريال بواسطة شركة بلغارية .

وقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية —طبقاً لإحصاء وزارة التجارة والصناعة— فى سنة ١٩٥١ مائة وسبعة مؤسسة زادت فى سنة ١٩٥٤ إلى مائة واثنين وسبعين ويبلغ عدد العمال المشتغلين بالصناعة طبقاً لإحصاء الوزارة أيضاً إثنى عشر ألفاً، منهم ٥٠٠ أجنبى معظمهم فى مراكز رئيسية بسبب كفاءتهم الخاصة .

وبلغ مقدار المباع من منتجات الصناعة فى سنة ١٩٥٤ ، ٠٠٠ر٦٠٠ر٤٤ ريالا

إتيوبيا وكان فى سنة ١٩٥١ لا يعدو ٠٠٠ر١٠٠ر٢٨ ريالا .

وتبلغ نسبة الأموال التى تعمل فى صناعة المواد الغذائية ٣٧٪ من مجموع الأموال المستثمرة تعمل فى معظمها استخراج الزيت وطحن الغلال وصناعة السكر وحفظ الطماطم واللحوم .

وقد كان إنتاج الكهرباء إلى سنة ١٩٤٨ لا يتعدى ٤ر١٣ مليون كيلووات فارتفع فى سنة ١٩٥٥ إلى ضعف ذلك وتنتج منها أرتريا ٢٢ مليون كيلووات .

وقد انتهت إتيوبيا حديثاً من إنشاء خزان كوكا على نهر أواش على ارتفاع ١٦٠٠ متراً من سطح البحر على بعد ثمانين كيلومتراً جنوبى شرق أديس أبابا وهو يكون أمامه بحيرة مساحتها ٢٦٠ كيلو متراً مربعاً . وقد وصلت تكاليفه إلى ٥ر٣٤ مليوناً من الدولارات الإتيوبية (أنظر شكلى ١٦ ، ١٧) .

والغرض من إنشائه استصلاح مساحة من الأرض تبلغ مساحتها ١٥٠ ألف هكتار، ثم توليد الكهرباء لإدارة مجموعة من المصانع أنشئت بالقرب منه . وقوة التيار المولد منه ٨٢٣٠ فولتا وقيمة هذه القوة ٥٠٠ر٤٢ كيلووات ساعة .

وهذا السد هو أحد مجموعة من السدود تنوى الحكومة إقامتها على ما يجرى بها من أنهار أحدها على نهر أباى (النيل الأزرق) تصل قوته إلى ٦٠ مليون كيلووات ساعة، وآخر على الوبى شبلى ثم خزانات أخرى على أنهار أومو وتكاز وأواش وبارو وجوبا ومأرب والجاش . وتقدر الحكومة ما سيستخرج منها من قوة كهربية بما يأتى .

سد أباى	٨٦٣و٧٩	كيلووات ساعة
وبى شيلى	٥٦٢ر٢١	» »
أومو	٠٦٧ر١٦	» »

تـكاز	١٤٫٨٤٦	كيلو وات ساعة	
أواش	٤٫١٠٦	«	«
بارو	٣٫٠١٧	«	«
جوبا	٢٫٢٧٣	«	«
مأرب	١٫٧٤٥	«	«

وقد أقيم بها أيضاً فى السنوات الأخيرة عدد من المصانع التى تستهلك جزءاً كبيراً من المواد الخام المحلية . كمصنع الأحذية المطاطية الذى ينتج نصف مليون من الأحذية سنويا ، ومصنع للحديد فى أكاكى ينتج عشرة آلاف طناً من الحديد و ١٨ ألفاً من أسياخ الحديد .

وقد عقدت الحكومة جملة قروض بلغ مجموعها خمسة ملايين من الدولارات الأمريكية من أجل تحسين الطرق فأنشئت لأجل ذلك (هيئة الطرق الإمبراطورية)، للاشراف على شق الطرق وصيانتها واشتركت الحكومة فى جزء من رأس المال . وجعل الجزء الأجنبى من النقد لشراء الأدوات من الخارج بينما خصص الجزء الوطنى لدفع المصاريف فى الداخل، وقد قدر طول الطرق التى تحتاجها إتيوبيا بستة عشر ألفاً من الكيلو مترات لطرق الدرجة الأولى وهو يعادل أربعة أمثال ما مهد حتى الآن . كما تعمل الحكومة من ناحيتها على تمهيد مجموعة أخرى على نفقتها فتعاقدت مع حكومة الولايات المتحدة على مساعدتها فى ذلك فصرفت حتى فبراير ١٩٥٥/ ٤٢ مليوناً من الدولارات الإتيوبية منها ٥٥٪ نقداً أجنبياً كما أنفقت الحكومة أيضاً عشرين مليوناً من الدولارات فى مدى سنتين لصيانة طرق إرتريا ويبلغ طولها ٩٠٠ كيلومتراً .

وأهم ما تواجهه إتيوبيا فى ناحية شق الطرق هى مشكلة العامل . فالجالا حول لكمتى وفى طريق عصب يرفضون العمل ، بينما يفضل الصوماليون العمل

كسواقين ، وسرعان ما ظهر أثر ما شق من الطرق فى انخفاض أجور النقل بالسكة الحديد فقد بلغ ما نقل بطريق عصب البرى ٨٠٪ من حركة ميناء چيبوتى رغم اتصال الأخيرة بالسكة الحديد .

وقد عمل البنك التجارى على تمويل بعض الصناعات مما أدى إلى زيادة إنتاجها، والتجارة فى بلد كإتيوبيا تعكس تطورات عادات أهلها ديناميكياً ، فهى بالطبع تصور قدرتهم الشرائية ، وهى القوة الناتجة عن إنتاجهم ثم احتياجهم.

فإذا كانت المنتجات الزراعية تكون الجزء الأكبر من صادرات إتيوبيا، بينما تمثل المنسوجات القطنية الجزء الأكبر من وارداتها فهى تصور إذن زيادة فى احتياجاتهم إلى البضائع المصنوعة .

وقبل سنة ١٩٣٥ كانت تجارة إتيوبيا ضئيلة لا تعدو العشرة ملايين من الريالات الإتيوبية وكان أغلبها مع ما يجاورها من الدول الأفريقية ثم الهند وكانت البن والحبوب والجلود غير المدبوغة والشمع تمثل أغلب الصادرات.

وفى خلال الحكم الإيطالى ارتفعت الواردات ارتفاعا هائلا بسبب البرنامج الإنشائى الذى اتبعته الحكومة آنذاك ، فوصلت إلى ٣٠٠٠٪ من قيمتها الأولى لكثرة احتياجات الجالية الإيطالية التى وردت مع الفتح بينما هبطت الصادرات إلى ما دون رقمها الأول .

وإذا ما انتهى الإحتلال ابتدأ دور جديد فقد عدل النظام الجمركى وجعلت الضريبة على أساس أن تكون الرسوم دخلا للحكومة ، إذ لم تكن هناك صناعات تستحق الحماية فسجلت الصادرات رقما جديداً هو ٢٩ مليون دولاراً (غير جمرك جمبيلا على الحدود السودانية) فى سنة ١٩٤٤، هبط فى السنة التالية إلى ٢٦ مليوناً . ولكنه عاد إلى الارتفاع مرة أخرى حتى وصل إلى ٣٦ مليوناً وهو الآن يكون ٤٠٪ من ايرادات الحكومة .

ويعود سبب هذه الزيادة إلى جملة أسباب لعل أولها شبكة الطرق البرية التى شقها الإيطاليون والتى حملت منتجات البلاد إلى الخارج ، كما سهلت توزيع الواردات. وثانيها انهيار نظام الحكم القديم وحلول نظام حديث مكانه . كما زادت مصاريف الحكومة وزاد إقبال الأجانب على البلاد كما زادت أيضاً مطالب الإتيوبيين بسبب ارتفاع مستواهم الاجتماعى .

وتمثلت معظم هذه الزيادة فى ارتفاع أسعار البن فى الأسواق الأجنبية فقد ارتفع إلى ثلاثة أمثال سعره الأول بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٥ علاوة على زيادة الإنتاج منه . فارتفع من ١٥ ألف طناً إلى ٤٣ ألف طناً كما ذكرنا من قبل . كما زادت صادرات أخرى مثل الحبوب والزيوت .

وكانت الصادرات الإتيوبية فى سنة ١٩٥٥ هى البن وكانت نسبته إلى مجموع الصادرات تمثل ٥٦ ٪، ويليه الزيوت وكانت ١١ ٪، ثم الجلود وكانت ١٠ ٪، ثم الحبوب وكانت ٦ ٪، وبينما هبط الصادر من شمع العسل حتى أصبح لا يكاد يذكر ارتفع الصادر من الماشية المذبوحة ارتفاعاً كبيراً .

أما الواردات فكانت كلها كميات صغيرة من منتجات زراعية كثيرة هى الزبد والعسل والخضروات والأسمنت واللؤلؤ والسمك المثلج والمحفوظ والبيرة والملح ومعظمها من ارتريا .

ولعل أظهر ما يميز تجارة إتيوبيا فى الوقت الحاضر هبوط الوارد من المنسوجات القطنية فقد كانت قبل سنة ١٩٣٥ تكون أربعة أخماس الواردات فهبطت فى سنة ١٩٥٠ إلى النصف وإلى أقل من الثلث فى سنة ١٩٥٥ ، كما ظهر عنصر آخر هو زيادة الواردات من احتياجات الصناعة والتصنيع والنقل فقد كانت لا تزيد عن ١٠ ٪ فى سنة ١٩٤٥ فارتفعت إلى ٣٥ ٪ فى سنة ١٩٥٦ ،

وهذه هى أهم الصادرات الإتيوبية وقيمتها بالريال الإتيوبى وفقاً لإحصاء سنة ١٩٦٤ .

البن و كميته	٦٩٫٩٩٨٫٠٠٠	كيلو جراما	وقيمته	١٥٦٫٦٧٣٫٠٠٠ ريالا
الجلود و كميتها	٥٫٨٣٨٫٠٠٠	قطعة	وقيمتها	١٣٫٩٠٢٫٠٠٠ ريالا
الشمع و كميته	٣٫١٤٤٫٠٠٠	كيلو جراما	وقيمته	٣٫٣٦٩٫٠٠٠ ريالا
الخضروات الجافة وكميتها	٥١٫١٧٨٫٠٠٠	«	وقيمتها	١١٫٤٧٢٫٠٠٠ ريالا
الحبوب و كميتها	٦٣٫٠٨٣٫٠٠٠	كيلو جراما	وقيمتها	٣٢٫١٩٣٫٠٠٠ ريالا

أما الواردات فتنحصر فى :

المنسوجات القطنية والصوفية	وتبلغ قيمتها		٣٧٫١٩٣٫٠٠٠ ريالا
الآلات	«	«	٢٥٫٩٩٤٫٠٠٠ ريالا
مواد البناء	«	«	١٨٫٣٩٦٫٠٠٠ ريالا
الأدوات الكهربائية	«	«	٨٫٤٤٨٫٠٠٠ ريالا
الأدوات الكيماوية	«	«	١٨٫٤١٣٫٠٠٠ ريالا
السيارات والجرارات	«	«	٢٨٫٥١٣٫٠٠٠ ريالا
أدوات التنظيف والتشحيم	«	«	١١٫٦٧٣٫٠٠٠ ريالا
الأدوات الطبية	«	«	٣٫٥٥٣٫٠٠٠ ريالا
القطن الخام	«	قيمته	٢٫٧٦٣٫٠٠٠ ريالا

والولايات المتحدة الأمريكية التى تشترى البن هى العميل الأول لإتيوبيا حتى الوقت الحاضر، ثم إيطاليا، فالمملكة المتحدة وهى تقبل أيضاً على شراء البن والحبوب، ثم يلى ذلك ألمانيا التى تقبل على شراء الجلود والحبوب والبن وأوراق القات . بينما ترتيب الدول الموردة هو إيطاليا فالولايات المتحدة فالمملكة المتحدة

فاليابان ، فألمانيا الغربية ففرنسا . وكانت هذه الدول تعطى إتيوبيا ٧٥٪ من وارداتها، ولا يمكن تحديد نسبة كل واحدة منها لأن جزءاً كبيراً من هذه الواردات يعاد تصديره إلى عدن وجيبوتى ولكن مع ذلك نستطيع أن نقول أن البن يكون ٣٠٪ من صادرات البلاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وهو يعادل ٧٥٪ من الإنتاج الكلى. كما تحظى إيطاليا، وهى العدوة السابقة، بالمركز الثانى فى الصادرات والأول فى الواردات، وهى تستورد ما تقدر نسبته ١٧٪ من مجموع الصادرات وأرقام الواردات تتجه نحو الصعود فى سرعة مدهشة على حدة .

ومعظم تجارة إتيوبيا فى يد قلة من الأرمن والهنود واليونانيين والعرب وليس لدينا أرقام دقيقة من مقدار الأموال المستثمرة فى التجارة سواء الأجنبية أو الوطنية .

وتشمل إحصاءات وزارة التجارة فى سنة ١٩٥٥ أسماء ١٠٥ بين مصدر ومستورد وهذا الكشف لا يشمل إلا الشركات التى يصل رأس مالها إلى ٣٥ ألف ريال على الأقل . أما الشركات التى تملك مؤسسات صناعية فهى بين ٢٠٠ و ٢٥٠ فى إتيوبيا ويتراوح المبلغ المستثمر فى التجارة بين خمسين وخمسة وسبعين مليون ريالا .

وليس لدينا أرقام عن عدد الإتيوبيين المشتغلين بالتجارة ، ولكن من المؤكد أن عددهم ليس كبيراً إذ ما زال الإتيوبيون يحجمون عن العمل فى هذا الميدان وربما لا يزيد عددهم عن عشرين ألفاً ، وفى الصناعة عن ٢٥ ألفاً بما فى ذلك إرتريا، ومجموع المشتغلين فى هاتين الناحيتين لا يصل إلى ١٪ من السكان . ولا شك أن أكبر عدد من الإتيوبيين الذين يعملون خارج نطاق الزراعة إنما يعمل فى الحكومة . ثم يلى ذلك ميدان النقل ثم البناء .

وتجار القطاعى كثيرون فى أديس أبابا وأسمرة ومعظم تجار الداخل من اليونان والعرب وهم يشترون بضائعهم من أديس أبابا وينقلونها على ظهور الدواب والسيارات إلى الداخل.

وتمثل الرسوم الجمركية أهم موارد الميزانية وهى تمثل ٤٠٪ من الإيرادات وقد وضع النظام الجمركى الأول فى يونيو سنة ١٩٤٣ وعدل أكثر من مرة . ويبيح القانون لوزير المالية بموافقة مجلس الوزراء إعفاء بعض الواردات إعفاء جزئياً أو كلياً ، والقانون رقم ١٥٤ لسنة ١٩٥٤ يعفى جميع الآلات الزراعية والصناعية وقطع الغيار . وإلى جانب الرسوم الجمركية تجبى ضريبة أخرى مقدارها ١٠٪ من قيمتها من أجل المساعدة على سد مصاريف الاتحاد الفدرالى[1] وأخرى لنفس الغرض على الملح، ثم ١٪ عن البضائع الداخلة إلى أديس أبابا من أجل البلدية وفرضت ضريبة على الصادر من البن فى سنة ١٩٥٤ حينما ارتفع سعره، وكان الغرض منها الحد من الربح حتى إذا انخفض السعر انخفضت معه الضريبة .

والضرائب التصاعدية على الدخل تكون المورد الثانى للميزانية ثم الضرائب الشخصية وضريبة العمل وضريبة الأرض الزراعية ، ثم ضريبة الماشية وضريبة التعليم وتكون كلها ٣٣٪ من مجموع الإيرادات . ثم الضرائب غير المباشرة على الكحول والدخان والوقود وتكون ١٢٪ من الإيرادات وتأتى فى النهاية رسوم البريد والتلغراف والتليفون ، ثم مكاسب الحكومة من إنتاج الذهب ورسوم التقاضى .

ولا تطبق الضرائب الشخصية وكسب العمل على الزراعة أو الحرف اليدوية وهى التى يحترفها ٩٠٪ من الشعب . ولذا لا يدفع الإيرادات

---

(١) ألغيت هذه الضريبة بعد أن انتهى الإتحاد الفدرالى مع ارتريا :

إلا قلة من التجار وموظفو الحكومة الذين يصل إيرادهم إلى ٣٦٠ ريالا فى العام .

وكانت ضريبة الأرض قبل سنة١٩٣٥ تجمع عينا إلى أن صدر لها قانون فى سنة ١٩٤٢، عدل فى سنة ١٩٤٤ ومرات أخرى بعد ذلك ، ووحدة الأرض هى الجاشا ومساحتها من ٨٠ إلى ١٠٠ فدان وتقدر ضريبتها بما يعادل ١٠٪ من المحصول، وأرض الكنيسة معفاة من ضريبة الأرض وإن كانت تدفع ضرائب أخرى بينما تعتبر الأراضى التى يملكها الإمبراطور والعائلة المالكة كغيرها من الأراضى دون أى امتياز مطلقاً .

وهناك ضريبة التعليم من أجل سد مصاريف التعليم الأولى فى الأقاليم، حيث تجمع هذه الضريبة وهى على الأرض وتختلف باختلاف خصوبتها وليس هناك من أرض معفاة منها . ومن لا يدفع ضريبة الأرض يدفع ضريبة الماشية .

وهناك ميزانيتان للحكومة ، إحداهما العادية التى تحوى الإيرادات والمصروفات وهى تقدم إلى البرلمان الذى يشترط الدستور ضرورة موافقته عليها قبل العمل بها . أما الأخرى فهى ميزانية الديون وتسديد أقساطها السنوية (المدفوعات) .

وتبلغ ميزانية إتيوبيا وفقاً لتقديرات سنة ١٩٦٢ ٣٩٨ر١٦٨ر٠٣٥ من الريالات الأتيوبية منها ٠٥٨ر ٦٣٤ ر ٢١٢ ريالا للايرادات و٩٧٧ر٥٣٣ر١٨٥ ريالاً للمصرفات أى أن لديها فائضاً يبلغ ١٨١ر١٠١ر٢٧ ريالا .

ويأتى أكبر الإيرادات من الرسوم الجمركية كما ذكرنا ويبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر٦٠ ريالا ويليه الضرائب للباشرة التى تبلغ ٠٠٠ر١٨٠ر٣٠ ريالا ثم احتكار الدخان الذى يبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر١٨ ريالا . أما الضرائب غير المباشرة فلا تزيد

عن الستة ملايين أما أكبر أبواب المصروفات فهى مصاريف وزارة الدفاع وتبلغ اثنين وأربعين مليونا، ويليها وزارة الداخلية وتبلغ ستة وعشرين مليونا ثم الأشغال العامة وتبلغ اثنين وعشرين مليونا كما تبلغ مصاريف وزارة التعليم ثمان عشرة مليونا من الريالات .

وفى سبيل تشجيع حركة التصنيع ترحب إتيوبيا برءوس الأموال الأجنبية للاستثمار كما ذكرنا . وتبلغ فى جملتها حتى سنة ١٩٦٤ ثمان وثمانين مليونا وربع المليون من الدولارات الأمريكية موزعة على النحو الآتى .

١ — قطاع النسيج وتعمل فيه خمس شركات تستثمر ١٫٧٤٠٫٠٠٠ ريالا

٢ — قطاع الجلود وتعمل فيه أيضا خمس شركات تستثمر ٢٫٨٤٠٫٠٠٠ ريالا

٣ — قطاع الخشب وتعمل فيه شركتان تستثمران ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ ريالا

٤ — القطاع غير المعدنى وتعمل فيه ست شركات تستثمر ٤٫٩٨٠٫٠٠٠ ريالا

٥ — قطاع الكيماويات وتعمل فيه أربع عشرة شركة وتستثمر ٢٣٫٨٢٠٫٠٠٠ ريالا .

٦ — قطاع الصلب والمعادن والأدوات الكهربائية . وتعمل فيه أربع عشرة شركة وتستثمر ٢٩٫٨٠٠٫٠٠٠ ريالا .

وقد بدأت ديون إتيوبيا بالدين البريطانى فى سنة ١٩٤١ ومقداره ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه من أجل إعادة الإستقرار إلى البلاد . ثم قدمت الولايات المتحدة الأمركية خمسة مليون دولاراً، ثم ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ كراون سويدى من أجل سهولة تصدير مرتبات الموظفين السويدين فى إتيوبيا، ثم مليون ريال أخرى من الولايات المتحدة من أجل تمويل عملية بيع فائض الحبوب . ثم قدم بنك الإستيراد والتصدير سلفة مقدارها نصف مليون ريال فى نهاية سنة ١٩٤٤ ثم

سلسلة أخرى من الديون بلغ مجموعها ثلاثة ملايين من الدولارات حتى نهاية سنة ١٩٤٦ وقدم بنك Mational City قرضاً مقداره ٩٠٠ ألف ريال لأجل سك العملة الجديدة ونقلها . وفى ١ كتوبر سنة ١٩٤٩ اشتركت إتيوبيا فى مؤسسة العملة الدولية من أجل ضمان مبلغ ٩٠٠ ألف ريال أمريكى من عملتها. وبين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ قدم لها البنك الدولى ثلاثة قروض من أجـــل إنشاء بنوك مختلفة كانت فائدتها ٤ ٪ لمدة عشرين سنة يبدأ استهلاكها فى سنة ١٩٥٦ .

وقد لعبت هذه القروض دوراً هاماً فى الاقتصاد الإتيوبى إذ قد بلغ مجموعها فى سنة ١٩٥٥ ثمانية وعشرين مليوناً من الريالات الإتيوبية ولم يمنع ذلك بنك الاستيراد والتصدير من تقديم قرض جـــديد فى سنة ١٩٥٧ مقداره أربعة وعشرون مليون ريال من أجل تحسين خدمة الطيران والتوسع فيها .

وفى سنة ١٩٥٧ وقعت إتيوبيا مع يوغوسلافيا عقداً من أجل انشاء أرصفة فى ميناء عصب وبلغ مقدار هذا العقد ستا وعشرين مليون ريال تقدم الشركة بنصفه قرضا بفائدة ٣ ٪ .

وهذه القروض تبين إلى حد كبير الثقة بمالية إتيوبيا ومستقبلها وقدرتها على السداد .

وثروة البلاد من المعادن مازالت فى طى الغيب، ولا تباشر الحكومة حالياً سوى استخراج الذهب من إقليم ولاجا فى الغرب ، ولم تزد الكمية المستخرجة عن بضعة آلاف من الأوقيات سنوياً منذ الحرب الأوروبية الثانية، فقد اكتنف المشروع صعوبات جمة من جميع الوجوه فقطع الغيار لم تتوفر مطلقاً وصعوبات التنظيم والإدارة لم تتوقف، والتعاون مع المشتغلين بالتعدين لم يتوفر .

وقد رسمت الحكومة فى سـنة ١٩٥٧ أول خطة خمسية بعد أن عبر

جلالة الإمبراطور عن هذه الرغبة فى خطبته يوم الثالث من نوفمبر سنة ١٩٥٩ وهى تنهج إلى التوسع فى وسائل المواصلات . وإنشاء محطات كهربائية . والتوسع فى طرق الرى. وخصص لها مبلغ خمسة ملايين من الدولارات فى ميزانية سنة ١٩٦٠ .

وهناك خطة أخرى ترمى إلى تحسين الإنتاج الزراعى تتجه إلى الاهتمام بالتعليم الزراعى والبيطرى والإدارة الزراعية ثم دراسة التربة ومحاولة تحسين الإنتاج عن طريق خلق دورة زراعية، ورفع إنتاج البن والقطن والحبوب وقصب السكر عن طريق توزيع البذور الجيدة ومقاومة التعرية ، وتخزين الماء وحفر عدد كبير من الآبار إلى جانب تحسين وسائل المواصلات وخلق أسواق جديدة كوسيلة لرفع الأسعار علاوة على تشجيع الزراع على الزراعة عن طريق إقراضهم القروض الزراعية ذات الفوائد القليلة .

وقد اتجهت إلى نفس الاتجاه الخطة الخمسية الثانية التى أعلنت قبل انتهاء سنة ١٩٦٢ ومقدار اعتمادها بليون من الريالات كون قرض سوفيتى بأربعمائة مليون روبل لغرض إنشاء معمل تكرير البترول فى عصب جزءاً من هذا الاعتماد.

الفصل التاسع

الكنيسة (١)

عرفنا أن المسيحية قدمت إلى إتيوبيا فى القرن الرابع الميلادى ، حين علمها التاجر المصرى فرومنتيوس للملك عيزانا ، فمال اليها واعتنقها ، وطلب منه أن يعلمها لرجال القصر والشعب ، وسافر فرومنتيوس إلى مصر حيث قابل الأنبا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية العشرين ، وطلب منه تعيين أسقف يرعى هذا الحقل الناشىء ، فلم يجد البطريرك خيراً من فرومنتيوس نفسه ، فرسمه أسقفاً باسم الأب سلامه، وسافر إلى هناك ، حيث فرح به الإتيوبيون ولقبوه بكاشف النور (كشاتى برهان) ومنذ هذا اليوم أصبحت الكنيسة الإتيوبية جزءاً من الكنيسة المصرية . وقد أثار هذا الامتداد حسد كثيرين من الأساقفة فى العالم المسيحى آنذاك ، لأن سلطة أسقف الاسكندرية امتدت إلى أجزاء خارج الإمبراطورية الرومانية ، فكان ذلك سبباً من الأسباب الكثيرة التى أثارت أساقفة القسطنطينية وروما ضد أثناسيوس، الذى كان قد ذاع اسمه منذ وقف فى وجه أريوس فى مجمع نيقية يدافع عن الإيمان الصحيح ، مما جعلهم يحقدون عليه فيلفقون له مختلف التهم فينفى بسببها أكثر من مرة .

وقد أبى الحاسدون إلا أن يشككوا فى كل شىء يختص بعلاقة كنيسة إتيوبيا بالكنيسة المصرية ، فزعموا أولا أن تبعية إتيوبيا لكنيسة مصر قد فرضت فرضاً على الإتيوبيين رغم مشيئتهم ، كنتيجة لقرارات

---

(١) أنظر كتاب « كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا » للمؤلف .

مجمع نيقية ، حين نص فى قراره الرابع والعشرين على أن (الحبش لا يبطرك عليهم بطرك من علمائهم ولا باختيار منهم فى أنفسهم إنما بطركهم يكون من تحت يد صاحب الاسكندرية) وتناسوا أن هذا القرار مزيف على هذا المجمع، لأن المسيحية لم تكن قد دخلت بعد إلى إثيوبيا فى سنة ٣٢٥ حين عقد مجمع نيقية، ولا يمكن أن يصدر المجمع قراراً بشأن شيء لم يحدث . كما شككوا أيضاً فى جنسية فرومنتيوس، وقالوا أنه غير مصرى لأن أخاه سافر بعد عودته إلى صور لا إلى الاسكندرية ، كما اتخذوا من اسمه دليلا على عدم مصريته ، متناسين أن عودة أخيه إلى صور إنما كانت لأغراض تجارية ، إذ كان فرومنتيوس وأخاه قبل تنصيب الأول أسقفاً ، من التجار ولهما مصالح تجارية فى أكثر من ميناء، وأنهما كانا فى رحلة تجارية لهما فى البحر الأحمر حين تحطمت سفينتهما وحملا إلى قصر ملك أكسوم ، كما أن الأسماء اليونانية قد انتشرت فى مصر منذ القرن الثانى الميلادى ، بل قبل ذلك وأن مثل هذه الأسماء ما زالت حية حتى الآن فى مصر . ولو لم يكن مصرياً لما ذهب إلى بطريرك الاسكندرية ليطلب منه هذا الطلب بل لسافر إلى أنطاكية أو القسطنطينية أو غير ذلك .

ولعل أغرب ما ينم عن هذا الحسد ماذكره أحد المؤرخين الفرنسيين ، من أن فرومنتيوس حين عاد إلى مصر قصد مقابلة البطريرك الكاثوليكى ، ولكنه أخطأ وذهب إلى البطريرك الأرثوذكسى بسبب شهرته ، وأسرع هذا فنصب فرومنتيوس نفسه أسقفاً كى يغريه بتبعيته له ؛ ونسى هذا المؤرخ أن المذاهب الدينية لم تكن قد ظهرت فى القرن الرابع الميلادى . وأن هذه الأسماء (الأرثوذكسية والكاثوليكية) ، لم تظهر إلا فى القرن الثانى عشر وما بعده نتيجة للاختلافات التى حدثت بين كنيستى روما والقسطنطينية .

ومنذ هذا اليوم المبكر حتى سنة ١٩٥٠ والبطريرك المصرى هو الذى ينصب المطران المصرى ليرأس الكنيسة الاتيوبية، وقد وافق المجمع المقدس للكنيسة القبطية

الأرثوذكسية فى جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢٣ طوبة سنة ١٦٦٢ (٣١ يناير سنة ١٩٤٦) على قرار جاء فيه (أن الكنيسة القبطية تعنى من ناحيتها كل العناية بتحقيق كل ما فيه مصلحة الكنيسة الاتيوبية ورفاهيتها . ويسرها أن توفرلها كل الأسباب التى تساعد على رفاهيتها وتقدمها.فهو لذلك(المجمع) يوافق على أن يكون مطران الامبراطورية الاتيوبية الذى يخلف الأنبا كيرلس راهباً إتيوبياً يخوله البطريرك جميع ما للمطران المصرى من اختصاصات) كما وافق أيضاً على أن يكون (عدد الأساقفة الاتيوبيين الذين يساعدون المطران فى الاشراف على أحوال رجال الدين هناك سبعة بدلا من خمسة) يعينهم المطران بعد أن يحصل من كل واحد منهم على تعهد أن لا يعمل وحده ولا يشترك مع غيره فى تنصيب بطريرك مستقل .

وتوفى المطران المصرى الأنبا كيرلس فى سنة ١٩٥٠،فنصب الأنبا باسيليوس أول مطران إتيوبى .

وقد جرت العادة أن يكون تنصيب المطران بعد اختيار دقيق من البطريرك الذى كان دائماً يهتم باختيار راهب صالح ورع مثقف لهذا المنصب الرفيع ، ويجرى هذا الاختيار بمجرد معرفة البطريرك بوفاة المطران القائم ، ويحمل اليه نبأ شغور المنصب فى العادة وفد إتيوبى يحضر من هناك ، يحمل هدية ثمينة الى البطريرك، وأخرى الى صاحب السلطة فى مصر ، مع كتاب يرجو فيه تنصيب المطران ، وكانت هذه الهدايا فى العادة قدراً من الذهب والعطور وسن الفيل وريش النعام وبعض الرقيق والمال ، مع كتاب يحمل رجاء الامبراطور مع حسن تمنياته وطلب بركاته الرسولية . وكان البطريرك فى العادة يحرص على ارضاء الاتيوبيين بأن لا يفرض عليهم شخصاً معيناً ، بل كان لا يعين الا من يحوز رضى الوفد حتى كان هذا التعيين أشبه بالاختيار .

وقد قامت الكنيسة بواجبها ككنيسة تبشيرية فى بلاد وثنية فأرسلت فى القرن الخامس بعثة من الرهبان المصريين ، أخذت على عاتقها تعليم الاتيوبيين المبادىء المسيحية الصحيحة ، كما عملت على نشر الرهبنة وتأسيس الأديرة ، ولقد وجد نظام الديرية فى إثيوبيا ترحيباً منقطع النظير ، فأخذت الكنيسة فى إنشاء الأديرة فى الأماكن البعيدة ، وعلى قمم الجبال وفى وسط البحيرات ، وصارت هذه الأديرة كخلايا نحل تعج بالرهبان الذين يعملون على ترجمة الكتب القبطية واليونانية إلى (الحبشية)، وكان من الطبيعى أن تكون من أوائل ما نقل إلى الحبشية الأناجيل الأربعة . وكذلك الأسفار المقدسة ثم أسفار مختلفة من العهدين القديم والحديث، وقد نقلت الأسفار المحذوفة واعتبرها الاتيوبيون قانونية وضموها إلى الكتاب المقدس ، فصار الكتاب عندهم يشمل واحداً وثمانين سفراً ، ستة وأربعون منها فى العهد القديم وخمسة وثلاثون فى العهد الجديد . ويظهر أن آخر الأسفار المنقولة فى ذلك العهد هو سفر يشوع بن شيراخ الذى نقل سنة ٦٧٨ م .

ونقل فى هذا العهد أيضاً إلى جانب الكتاب المقدس بعض الكتب القبطية الهامة مثل تشريع باخوم(١) المسمى عندهم (شرعات باكوميس) كما نقلت عدة رسائل لآباء الكنيسة وتعرف هناك باسم (كيرلوس) ، لأنها تبدأ برسالة لكيرلس السكندرى عن الايمان الحقيقى ، ونقلوا أيضاً الكتاب المسمى (فسيولوجوس) ، وهو مجموعة قصص عن الحيوانات ووصف خصائص بعض الحيوانات والأحجار والنبات ، وقد عرف هذا الكتاب فى الأدبين السريانى واليونانى . ولكن الأقباط جعلوا منه كتاباً ذا رموز مسيحية ، مثل قصة الطائر (الوى) الذى يستريح فى جحره ثلاثة أيام فيجعلونه رمزاً للمسيح .

وبسبب تعرض اتيوبيا للحروب الكثيرة التى لم تنقطع طوال تاريخها ، ضاع معظم هذه الكتب وكانوا يكتبونها فى كتب مصنوعة من جلد الحيوان

(١) وهو الخاص بقوانين الرهبنة والأديرة .

على كلا الوجهين ، ثم يحفظون الكتاب فى محفظة من الجلد أيضاً ذات حامل من الجلد ليعلق منه إلى الكتف ، وقد احتوى كل دير فى العادة على مجموعة من الكتب التى ترجمها أو كتبها رهبان هذا الدير ، أو اشتراها مؤسس هذا هذا الدير من الخطاطين المختلفين والرهبان المنقطعين للترجمة أو الكتابة .

وقد قامت الأديرة بنصيبها فى تثقيف الشعب ، فقد كان ولا يزال يلحق بكل دير مدرسة يقوم الرهبان بالتعليم فيها لمن يقبل من الصبيان ، فيعلمونهم القراءة والكتابة وبعض الأناشيد الدينية ويسمحون لهم بالمساعدة فى خدمة القداس ، وقد أقبل الاتيوبيون على الالتحاق بهذه المدارس فى كثرة ملحوظة ، حتى كان الصبى يفضل أن يقوم بخدمة الكهنة مجاناً لقاء السماح له بالالتحاق بالمدرسة للتعليم .

وقد كان للمساعدة القيمة التى بذلها رجال الدين الاتيوبيون ، وعلى رأسهم القديس تكلاهيمانوت ، للامبراطور يكونو أملاك فى القرن الثالث عشر من أجل ارتقاء العرش أثرها فى الكنيسة ورجال الدين ، فكان أن أصبحت الكنيسة الاتيوبية ذات شخصية مستقلة عن الدولة والحكومة ، مما مكنها من القيام برسالتها على أتم وجه .

وقد قاد الأب سلامة الثانى حركة الترجمة الثانية فى القرن الثالث عشر من العربية إلى (الحبشية) فروجع الكتاب المقدس على النص العربى ، ونقلت كتب الطقوس والميامر وصحف الرهبنة وحياة الشهداء والقديسين ، وقد استمرت حركة النقل بعد الأب سلامة ، فكتاب الأجبية[1] المعروف فى إتيوبيا باسم (ساعاتات) نقل فى منتصف القرن الرابع عشر — وكتاب التجنيز ولبس الاسكيم[2] والتاودوكيات وحياة الرسل نقلت فى نهاية القرن الرابع عشر ، كما نقل أيضاً كتاب تاريخ اليهود ليوسف بن جوريون الذى يعتبره الاتيوبيون أحد الكتب الثلاثة الملحقة بالكتاب المقدس .

(١) وهو كتاب خدمه القداس .

(٢) وهو يحتوى على طقوس سيامة الرهبان .

وفى أيام الامبراطور زرء يعقوب استأنفت الكنيسة نشاطها كما ذكرنا ، فبثت رجالها فى القرى والمدن من أجل القضاء على الخرافات والمعتقدات الوثنية، التى كانت منتشرة بين الإتيوبيين فوضعت الرسائل الدينية التى من شأنها تعليم الدين الصحيح ، كما فتحت الكنائس عصر كل يوم أحد لاستقبال الأطفال وتعليمهم أصول الدين وواجبات المسيحيين ، كما استؤنفت حركة الترجمة فترجم من العربية عجائب العذراء ثم عجائب العذراء ويسوع ، كما ترجم السنكسار[1] ونقل الكثير من تواريخ آباء الكنيسة الأرثوذكسية وأقوالهم ، منها سير الآباء القديسين (جدلا أبوقدوسيان) ، وفى عصر لبنا دنجل نقل كتاب جرجس المكين المعروف بابن العميد ، وهو كتاب فى تاريخ العالم يعرف فى إتيوبيا باسم (ولد عميدا) ، وكذلك أمر الإمبراطور بنقل رسالة الشيخ الروحانى فى الرهبنة ، وشرح رسائل العبرانيين ليوحنا فم الذهب ، وشرح الأناجيل لديونسيوس ، ولرسالة الشيخ الروحانى مركز خاص لدى الإتيوبيين، فهى أحد الكتب الثلاثة التى يتكون منها الكتاب المسمى صحف الرهبنة .

وإذا كانت هذه الكتب قد أفادت الإتيوبيين فى حياتهم الدينية وساعدتهم على فهم ، دينهم إلا أن هناك من الكتب التى ترجمت ما أفادهم فى حياتهم الدينية والمدنية ، وأثر فيها تأثيراً مباشراً طويلا استمر أكثر من سبعة قرون، مثل كتاب المجموع الصفوى الذى ألفه صفى الدين بن العسال الذى كان كاتماً لأسرار المجمع المقدس ، وهو يبحث فى جزئه الثانى عما يجب أن تقوم عليه العلاقات بين الأفراد المسيحيين فى كل شؤونهم المدنية ، وقد أعجب به الإتيوبيون إعجاباً شديداً دفعهم إلى ترجمته فى القرن الرابع عشر ولم يمض وقت طويل على تأليفه ، حتى اتخذوه فى بداية القرن الخامس عشر أساس حياتهم الدينية والمدنية، والناموس الذى يسيرون بمقتضاه فى حياتهم العامة والخاصة بعد أن سمو اسمه (فتح نجست) .

(١) وهو كتاب يحوى تاريخ حياة القديسين الذين تعترف بهم الكنيسة المصرية.

وكان من عادة البطاركة المصريين أن يكتبوا مرتين كل عام إلى إمبراطور إتيوبيا، يسألونه عن أحوال رعاياهم وإلى المطران، ويوجهون إليهما بعض وصاياهم وإرشاداتهم الأبوية، ولم يكونوا يترددون فى شرح العقيدة الأرثوذكسية شرحاً وافياً مستفيضاً ، إذ حملت إليهم أنباء عن خروج أحد سواء من رجال الدين أو العلمانيين عن العقيدة الصحيحة ، فقد كتب الأنبـا يؤنس السابع عشر (١٧٧٠ — ١٧٩٦) إلى الإمبراطور يقول « الذى نذكر به الخواطر الشريفة أن تكونوا ثابتين على الصخرة غير المتزعزعة والأمانة التى تسلمناها من أبائنا الرسل وخلفائهم القديسين التى هى معلومة عندكم وعند كافة المسيحيين جميعاً » .

« والثانى الذى نذكر به الخواطر الشريفة أنه بلغنا أن فى بلاد (الحبشة) جماعات من الطوايف الذين يقولون بالطبيعتين والمشيئتين القائلين بالمجمع الخلقدونى المخالف المحروم من أبائنا ، وهراطقة آخرون والذين يصغرون الابن، والذين يصغرون الروح القدس ، من المساواة مع الآب ، والذين يقولون أن الروح القدس منبثق من الابن والآب ، هؤلاء المكتوب عنهم أنهم يأتون بلباس الحملان وداخلهم دياب خاطـفة) ، (فابعدهم عنك وأغربهم منك ، واطردهم من أرضك ولا تدع أحداً يقول بقولهم ، ولا تدع أحداً من شيعتهم ولا من يعتقد بها) .

وفى عهد الولاة ذوى الأفق الضيق الذين كانوا ينزلون الأذى بمسيحيي مصر ، كان البطريرك يضمن كتابه وصف ما كان يقع بالمسيحيين من ضيق ويطلب من الامبراطور التدخل لمصلحة أخوته فى الدين ، فلم يكن الامبراطور يتردد فى ذلك .

وإذا ما تم انتخاب المطران الجديد وتنصيبه استعد للسفر مصطحباً الوفد وحمل معه خطابين أحدهما من السلطان إلى الامبراطور رداً على رسالته اليه ،

والآخر من البطريرك وهو يتضمن فى العادة وصايا للامبراطور للسير بمقتضاها طبقاً لقوانين الدين المسيحى ودستوراً للمطران ورجال الكنيسة الإتيوبية وقد يلقى هذا الخطاب شفوياً فى حفلة رسامة المطران .

وقد جاء فى خطاب البطريرك يؤنس التاسع عشر فى حفلة تنصيب الأنبا كيرلس فى سنة ١٩٢٧ ما نستطيع أن نتخذه مثالا لهذه الكتب إذ قال (وليس لاسقف منهم (من الاتيوبيين) منفرداً ، ولا لهم مجتمعين أن يمسحوا أحداً بمسحة الملك المقدسة فإن ذلك من حقوق المطران خاصة . ولا أن يرسموا مطراناً أو أسقفاً فإن ذلك من أخص حقوق البطريرك حسب القوانين الكنسية دون غيره، ولا يجوز لأحد منهم أن ينفرد بالرئاسة فى جهة ما من جهات إتيوبيا، ولا أن يتحزب تحزباً سياسيا، ولا أن يبرح دائرة أبرشيته إلا بتفويض من المطران وإذن من الحكومة . ولا يجوز لأحد من أرباب الكهنوت سواء كان مطراناً أم أسقفاً أم كاهناً فى اتيوبيا ولا لأحد من أرباب السلطة سواء كان ملكا أو وزيراً أو حاكماً أو أميراً أو رأساً أو معلماً أو قائداً أو غيره أن يبطل نصاً من نصوص هذا القرار) .

ويعتز الاتيوبيون برابطتهم بالكنيسة المصرية اعتزازاً كبيراً، ويظهر هذا الاعتزاز فى تكريمهم المطران تكريما يفوق كل تكريم ، فما أن تأتى الأخبار بقرب وصوله حتى تصدر الأوامر بأن يستقبله حكام مقاطعات الحدود بكل مظاهر التكريم الرسمية ومعهم رجال الأكليروس . وكلما تقدم الموكب إلى العاصمة انضم إليه حكام المقاطعات التى يمر بها ومعهم بعض الجيش والأعيان والاكليروس فما يكاد يهل الموكب على العاصمة حتى يكون قد وصل إلى عدد هائل من الرجال سواء من الرسميين أو المدنيين أو الاكليروس ، ويكون الامبراطور وأسرته وحرسه ورجال دولته فى إستقباله على مشارف العاصمة .

فيقصد الموكب إلى الكنيسة رأساً حيث يقام القداس الأول، ولا يكاد ينتهى حتى ينثر الامبراطور على رأس الحاضرين الذهب الكثير. وينتهز الفرصة فيهب أعيان دولته الرتب والألقاب، وترفع على رأس المطران مظلة كبيرة حمراء مطرزة بخيوط الذهب تعادل مظلة الإمبراطور ويطلق تصرفه فى كل أموال الكنيسة ومخازنها، ويحرص الإمبراطور على زيارته فى مواعيد متقاربة جداً بينما تحرص الإمبراطورة على زيارته يومياً التماساً لبركته. وهم يقدرون ما يبديه نيافته من رغبات ويعتبرونها أوامر واجبة التنفيذ، فقد روى أن تاجراً من مصر حمل أحد عماله مبلغاً من المال وأرسله إلى إتيوبيا. وحدث أن مات الرجل. ولم يجد التاجر وسيلة يسترد بها ماله. فتقدم إلى السلطان طالباً السعى لاسترداد ماله. فكتب السلطان إلى البطريرك القبطى، فأرسل هذا خطاباً إلى امبراطور إتيوبيا يكلفه الإهتمام بالأمر وأرسل التاجر من جهته رجلا يثق به وسرعان ماعاد الرجل حاملا المبلغ وأرباحه، وهو يروى أنه حال وصوله كتب الإمبراطور إلى حكام المقاطعات التى يمر بها الرسول لاستقباله وإكرامه. فركب ومن معه الخيول المطهمة النشطة وما زال الرسول يقطع الوهاد حتى وصل إلى العاصمة حيث استقبله الامبراطور بكل مظاهر التبجيل.

وفى يوم الأحد التالى طلب منه الخطاب، وقرىء فى الكنيسة وأمر الامبراطور بإحضار المال ووضع تحت تصرف الرسول، ولم يترك الإمبراطور مكانه قبل أن يتم هذا كله، ثم حمل الرسول كثيراً من الهدايا القيمة وشيع بكل تجلة وإحترام، وأعطيت الأوامر إلى جميع الحكام الذين يمر بهم لاكرامه وإطعامه وإسكانه حتى اجتاز الحدود بسلام.

وقد كتب كثير من الكتاب عن سر هذه العلاقة التى استطالت إلى ستة عشر قرناً والتى غلبت الزمن فغلبته، وإذا كانت قد وهنت أو انقطعت فى

بعض أوقاتها فإنها ما كانت تنقطع ألا لتعود أقوى مما كانت ، ولـكن المتتبع لهذه العلاقة لا يجد فيها سراً يستعصى على الباحث فهمه، فهى علاقة بين شعبين يريان فى هذه الـكنيسة رمزاً لقوة عليا هى التى تلهمهم الرشد فى هذه الحياة بل تلهمهم الحياة نفسها . وهى التى تبارك خطواتها وهى فى كل مرة لا تقودهم إلا إلى الطريق الصحيح .

هـذا إلى أن الاتيوبيين رأوا فى الشعب المصرى وفى الـكنيسة المصرية أخوة صادقة لا ترمى إلى سيادة ولا إستعمار ولا خلق نوع من التبعية بين سيد ومسود، فهم لم يروا جيشاً مصرياً يتقدم يوماً إلى بلادهم غازيا معتمداً على ذراع الـكنيسة، بل وقفت الـكنيسة دائماً فى صف الشعب تدافع عن استقلال بلاده كما فعلت فى القرن السادس عشر والسابع عشر حين حاولت البرتغال التسلل إلى هذا الركن من أفريقيا لتتخذ منه مستعمرات لها ، كما تسللت إلى أجزاء أخرى من هذه القارة واتخذت من أبنائها مادة لتجارتها المقوتة لتقتنى من ورائها الثروة والغنى . وكما وقفت إلى صف الشعب حين حاول الايطاليون ذلك الاستعمار فى القرن العشرين . فقد حاول نائب الملك أن يغرى المطران المصرى بأن ينفصل عن كنيسة مصر وأن ينصب بطريركا لـكنيسة إتيوبيا يملك كل سلطات البطريرك إذا بارك الاستعمار الايطالى وتعاون معه ،ولـكنه أبى ورفض المطران أن يكون طعنه موجهة إلى صدر الشعب فى جهاده الوطنى ، ورفض هذا العرض .حتى إذا نفذ المستعمر مايريده بفصل الـكنيسة الاتيوبية عن الـكنيسة المصرية وتنصيب بطريرك اتيوبى عليها بادرت الـكنيسة المصرية بحـرمان البطريرك وكل من يتعاون معه،وبذلك ظلت هذه السلطة الجديدة غير شرعية حتى أنتهى الاحتلال الإيطالى وعادت المياه إلى مجاريها . كما لم ير الاتيوبيون يوماً زحفاً اقتصاديا مصريا الغرض منه الاستيلاء على الأراضى الإتيوبية لوضعها فى أيدى مصريين

قادمين، بل ظلت أراضيهم فى أيديهم وأمورهم فى أيديهم يصرفونها وفق تقاليدهم دون أى تدخل من الكنيسة المصرية . كما لم يروا ممثل الكنيسة المصرية يمثل يوماً سلطة أجنبية تتسلم أوامرها من الخارج لتمثيل وجهة نظر أجنبية تتعارض مع مصالح الشعب الاتيوبى ، بل كان المطران المصرى دائماً لا يكاد يصل إلى إتيوبيا حتى ينسى صفته المصرية ويتصرف فى كل الأمـــور كإتيوبى لا يرعى إلا مصالح الحكومة الاتيوبية والشعب الاتيوبى على أحسن ما تكون الرعاية كما لم يجـــد الاتيوبيون يوماً أوقاف الكنيسة ولا أموالها تخرج من إتيوبيا لتوضع فى يد البطريرك المصرى على شكل ضرائب أو هبات ، ليتصرف فيها البطريرك وفق أهوائه، وفى مصالح غير اتيوبية بل ظلت أموال الأوقاف الدينية فى إتيوبيا وأوقاف الكنيسة كلها لا يصرفها المطران إلا على المصالح الإتيوبية لخير اتيوبيا وشعبها .

ومنذ أن تولى يكونو أملاك أصبح تتويج المطران للامبراطور ضرورة من ضرورات الحكم ، فقد حرصت الوثائق دائماً على أن تؤكد قيام المطران بهذا العمل، وربما نستطيع أن نقول أن الأسرة السليمانية قد حرصت على هذا التقليد لتؤكد أحقيتها فى العرش استناد إلى أساس دينى ، يجعل قيام منافس لها أمراً مستحيلا ، ولذا أصبح المطران هو الوحيد الذى يتوج الامبراطور وليس لأحد آخر أن يفعل ذلك، ولا يستطيع الامبراطور أن يحكم أو يضمن الطاعة من شعبه إلا إذا توجه المطران .

وليس لدينا من المصادر ما يصف لنا مراسم التتويج ولكن يحدثنا أبو صالح الأرمنى أن جميع الملوك يتوجون فى كنيسة الملاك ميخائيل أو القديس جورجيس وتحت صورتيهما . والمطران هو الذى يضع التاج على رأس الامبراطور ويباركه بوضع اليد على رأسه ويثبته حول ذقنه كما يلبسه البرنس .

كما يذكر لنا بروس أن تتويج الإمبراطور الجديد كان يحدث قبل دفن الإمبراطور المتوفى. حيث يجلس على العرش فى قاعة التتويج حيث الكهنة والقضاة والاشراف ويصب المطران زيت الزيتون من قرن على رأسه ويتوجه قائلا (مات الملك . عاش ملكنا . الحزن على الميت والفرح لأجل الحى) ويصيح الرجال علامة الفرح ويتقدمون فيقبلون يده بينما يكون الفناء الخارجى يعج بالحرس . فتقرع الطبول كوسيلة لإعلان الخبر فيصيح الشعب فرحاً ويلعب الفرسان بأسلحتهم .

ولا بد أن هذه المراسم قد جرى عليها ما جرى على غيرها من التطور فلابد أنها كانت أبسط من ذلك، ولكن الشىء الهام هو أن دور المطران ظل رئيسياً فى جميع الأوقات، ليس فى مراسم التتويج وطقوسه فحسب ، بل فى الحض على طاعة الإمبراطور والخضوع له، إذ يجلس الامبراطور على الكرسى المعد له وعلى مائدة قريبة منه ملابس التتويج وهى درع محلى بالجواهر وصولجان وكرة وكلاهما من ذهب وخاتم ثمين من ماس وحربتان لهما سن من ذهب وحلة ملكية وتاج ثم الكتاب المقدس .

ويبدأ الاحتفال بكلمة يلقيها المطران يوجهها إلى الأمراء والوزراء والأعيان ورؤساء الجيش ورجال الدين والكهنة وشعب اتيوبيا، يقول فيها (أزكى لكم الإمبراطور (فلان) كى تطيعوه وتعاونوه على القيام بواجبه سواء من الناحية الروحية أو المادية كى يعمل على تقدم البلاد والمحافظة على ديانتها) .

ثم يتقدم المطران ويرفع الكتاب المقدس ويلتفت إلى الامبراطور ليسأله أسئلة يجيب عليها منها هذان السؤالان

هل تعد بالمحافظة على المذهب الأرثوذكسى الذى هو عقيدة شعب إتيوبيا ؟

فيجيب الامبراطور نعم أعد بذلك

هل تعد بالمحافظة على الشعب الأتيوبى ؟

فيجيب الأمبراطور . نعم أعد بأن أبذل فى ذلك جهد استطاعتى .

والفرق بين الاجابتين واضح

وعقب الانتهاء من هذه الأسئلة يبدأ رجال الدين المساعدون فى قـــراءة الصلوات والأدعية ، بينما يتوعد المطران المخالفين له بأنهم يخالفون إرادة الله . ويستحقون غضبه وأن واجب كل إتيوبى هو طاعته والامتثال لأوامره ودفع الضرائب المستحقة عليه لا خوفاً من العقاب بل طاعة لحكم الله . والضمير والواجب .

فاذا ما تم قراءة ما اصطلح على قراءته ، يتقدم أسقف لاستا بالملابس الامبراطورية إلى المطران ليباركها ثم يدفعها إلى أحد مساعديه ليبدأ بإلباسها للامبراطور ، فيبدأون بالدرع وإذا ما انتهى منه يرفع مساعد آخر الصولجان وهكذا . ولكن إذا جاء دور التاج رفعه المطران بنفسه بين يديه وهو يقول (ندعوك يا الله . يا من وضعنا فيك كل ثقتنا . أن تبارك هذا التاج وتبـــارك حامله الامبراطور (اسمه) كى يكون أهلا لحمله ثم يقترب من الامبراطور ويضعه بيده على رأسه وهو يقول « ليجعل الله هذا التاج تاج قداسة ومجد »

ومن الطبيعى أن من يملك حق التتويج يملك أيضاً حق العزل عن طريق الحرمان ، إذا أساء الامبراطور التصرف أو خرج على الكنيسة الأرثودكسية المصرية أو أتى ما يضر بمصالح الامبراطورية أو الشعب . ولا يحق للشعب الخروج على الامبراطور إلا إذا أمره المطران بذلك .

ولذلك حرص الأباطرة على خروج المطران معهم فى الحرب كى يعلم الشعب أن هذا الامبراطور هو الوحيد الذى تؤيده الكنيسة وأنه يرضى عن هذه الحرب وقد سجل خروج المطران للحرب فى صورة موقعة عدوة المحفوظة الآن بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

والمطران هو رأس الكنيسة الاتيوبية ويليه فى الرتبة الأتشيجى ، وكان صاحب هذا المنصب هو الحلقة التى تربط المطران المصرى بالاكليروس الاتيوبى، ويلى ذلك الأكابى ساعات أو القيم على الأوقات لأنه المكلف بتنبيه الامبراطور إلى أوقات الخدمة الدينية، وقد أوكلت اليه مهمة تعقب الوثنيين والمخالفين لقواعد الدين ولذلك كان عقد الصلة بين المطران والقصر . فهو دائماً قريب من الامبراطور وحجرته بجوار حجرته وإذا خرج الامبراطور كانت خيمته بجوار خيمة الامبراطور ثم يلى ذلك رؤساء الأديرة وأكبرهم شأناً هم رئيس دير دبرالبانوس لأنه خليفة القديس تكلا هيمانوت ثم الرهبان والكهنة .

وقد تعجب كثيرون من السياح من كثرة عدد الكهنة ، ويقدر بعضهم نسبتهم إلى مجموع المسيحيين بربعهم ولا شك أن ذلك مبالغ فيه، وهناك من يكتفى بأنهم خمس الذكور وإن كان كل من هؤلاء لا يعتمد على إحصائية رسمية، وان كان الثابت أن هناك أكثر من سبع عشرة الف كنيسة ودير . وفى بعض الكنائس يصل عدد الكهنة إلى خمسمائة ومائتى شماس . وكان ولا يزال الأباطرة يهتمون ببناء الكنائس ووقف الأوقاف عليها تاركين أمر بناء الأديرة والصرف عليها الى الكنيسة، وآخر كنيسة بناها الامبراطور الحالى هى كنيسة سلاسى (الثالوث) فى أديس أبابا وقد بدأها قبل الغزو الايطالى وأتمها بعد عودته.

والكنائس هناك مستديرة الشكل تنقسم الى ثلاثة أقسام : الداخلى منها هيكل مستدير محاط بحجاب غالباً مايزين بالموزايكو والصور الملونة، ويقال أن ذلك من أثر الفنان الايطالى برانكا ليونى الذى عاش فى أيام زرء يعقوب ورآه الفارز هناك . وفيه يحفظ التابوت مغطى بالأقمشة المطرزة الغالية كى لا يراه العلمانيون . ولا يباح دخول هذا الهيكل الا لرجال الدين والامبراطور، ويلى الهيكل القسم الأوسط وهو يدور حول الهيكل ثم القسم الخارجى الذى ينتهى بالسور الخارجى للكنيسة ويفصل كل قسم عن الآخر حائط دائرى به باب .

والى جانب الكهنة يوجد الشمامسة والأخيرون يهيئون لهذه الرتبة صغاراً، ثم يوجد أيضاً الدفترا وهم المرتلون ولا يرسمون ،وهم يقابلون العرفاء عندنا وهم يكونون الطبقة المتعلمة فى الكنيسة واليهم يرجع الكهنة وبقية رجال الدين فى كل ما يودون السؤال عنه فى طقوس الكنيسة وعلومها . وهم يشتركون فى جميع القداسات .

ولا يجد الكهنة الأتيوبيون حرجاً فى استعمال الطبل والشستر فى بعض الطقوس، بل يزاولون الرقص فى بعض أعيادهم وحجتهم فى ذلك أن داود النبى كان يرقص أمام مذبح الرب ولم تحاول الكنيسة المصرية أن تتدخل فى ذلك طالما الأمر لا يمس العقيدة .

وجميع القداسات والكتب الدينية ما زالت مكتوبة باللغة الجعزية التى لا يفهمها الكثيرون ،وما زال هناك من يعتقد أن كتابتها بلغة أخرى نوع من الكفر،ولكنهم يميلون الآن إلى كتابتها بالأمهرية كى يفهمها الشعب .

وقد عنى الايطاليون خلال احتلالهم لأتيوبيا (بتنظيم) الكنيسة بعد انفصالها عن كنيسة مصر فقسمت البلاد فى سنة ١٩٤٠ إلى عشر أسقفيات ونصب لكل أسقفية مطران واختير من بينهم البطريرك الثانى والثالث . وإن كانوا لم يبذلوا أى مجهود لرفع المستوى الثقافى للكهنة وهو الشىء الوحيد لنهضة الكنيسة .

وإذا ماعاد الحكم الوطنى إلى إتيوبيا كانت الكنيسة موضع اهتمام من جلالة الامبراطور فانشأ الكلية الإكليريكية (منفس قدوس تمارى بيت) واستقدم لها مديراً وأربعة من الأساتذة من مصر قاموا بعبء التدريس فيها إلى جانب إخوانهم الاتيوبيين وكان ذلك فى بداية سنة ١٩٤٤ .

وفى ٣٠ نوفمبر من نفس السنة صدر أول قانون خاص بالكنيسة وقد صدر بناء على المقترحات التى اقترحها (المجلس الأكليريكى فى الشئون الكنسية) وكان الغرض من هذا المرسوم تنظيم الأمور المالية لأجل خلق خزينة مركزية .

وتبين المادة الأولى من هذا المرسوم الفئات المختلفة للأرض التى وهبت للكنيسة ويخضعها للضرائب العامة ولكنها تدفع إلى هيئة خاصة سميت بخزينة الكنيسة ويخصص ماتجمع منها لأغراض الكنيسة والتعليم والاحسان والصرف على الأديرة والكهنة الذين يقومون بدورهم بدفع جميع الهبات والرسوم التى تصلهم نظير الخدمات الدينية إلى الخزينة العامة .

وحدد هذا القانون الشروط التى يجب توافرها فى الكاهن ودرجة الكفاءة وكذلك عدد الكهنة الملحقين بكل كنيسة بما يطابق احتياجاتها . ووكلت إليهم الأعمال التى يقومون بها على أن يتسلموا مرتبات نظير ذلك . والكاهن مسئول عن دوام الأتصال بالأسقفية التى عين فى دائرتها ويتم التعيين فى جميع المناصب الكبيرة بواسطة المجمع الأكليريكى على أن يوافق الامبراطور على هذا التعيين .

وجعل هذا القانون للكنيسة نظامها القضائى الخاص بها واقتصرت العقوبات فيه على العقوبات الروحية .

ولا شك أن هذا القانون يحقق إصلاحاً حقيقياً محسوساً .

وقبل إنشاء الكلية اللاهوتية كان إعداد رجال الدين يتم بواسطة المدارس الملحقة بالكنائس والاديرة ، وكان التعليم فيها بالمجان ويقوم الكهنة انفسهم بالتدريس فيها . حيث يتعلم الصبيان القداس والألحان الكنسية ثم المبادىء المسيحية ، وقراءة المزامير إلى جانب القراءة والكتابة الأمهرية . ولم تكن سنو

الدراسة فى هذه المدارس محدودة بل تتناسب مع كفاءة الطالب واستعداده ولكنها على كل حال كانت طويلة لاتقل عن سبع سنوات .

ويلبس الكهنة والدفترا هناك ملابس بيضاء وعمامة بيضاء أيضاً ، ويحرصون على أن يمسكوا العصا فى أيديهم ومعها الصليب الذى يهم بتقبيله كل من سلم عليهم ، وهم يعتمدون على هذه العصا فى الاعتماد عليها خلال القداس لأنهم لايجلسون مطلقاً كما لايجلس الشعب أيضاً . ولكن تستبدل بهذه الملابس البيضاء ملابس سوداء وقبعة سوداء غاليه لمن يقصد منهم زيارة بيت المقدس ولأصحاب المناصب الكبيرة ، وفى خلال الخدمة يلبس الكهنة والشمامسة ملابس مطرزة بالذهب والفضه ذات الوان زاهية كما ترفع على رؤوسهم مظلة ضخمة ذات ألوان متعددة وكان المطران مظلة كبيرة حمراء مطرزة أيضاً بأسلاك الذهب ترفع إلى رأسه خلال الاحتفالات غير الدينية التى لا بد أن يحضرها دائماً إلى يمين الامبراطور .

ولا بد للكاهن كما هو الحال فى مصر ان يكون متزوجاً ولكنه لايتزوج بأكثر من واحدة أما الرهبان فكاخوانهم رهبان العالم أجمع يقسمون على التبتل والطاعة العمياء .

وقد ذكرنا أنه فى سنة ١٩٤٤ طلبت الكنيسة الاتيوبية إلى المجمع المقدس فى مصر أن يكون المطران إتيوبيا فوافق المجمع على هذا الطلب على أن يختار المطران مجمع أكليريكى إتيوبى فى أديس أبابا يسافر إلى القاهرة حيث ينصبه البطريرك مطرانا يملك جميع اختصاصات وسلطات المطران المصرى .

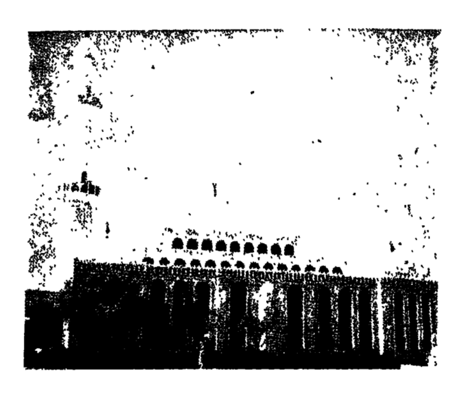
وتم تنصيب المطران الاتيوبى الأول فى سنة ١٩٥٠ وترتب على ذلك أن الغى منصب الانشيجى الذى كان يمثل حلقة الاتصال بين الاكليروس الاتيوبى والمطران المصرى .



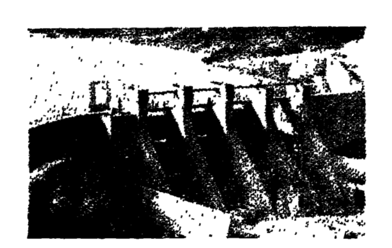
ميدان هيلاسلاسي في مدينة أديس أبابا



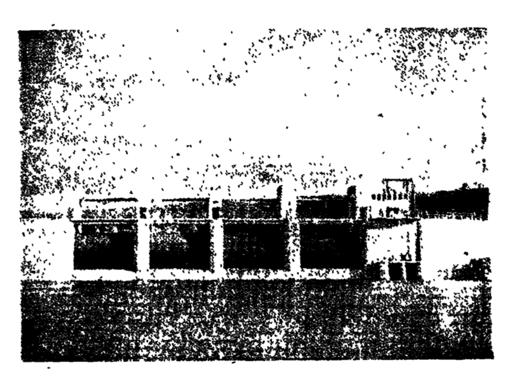
جثث الوطنيين الإثيوبيين وقد مثل بها الإيطاليون
خلال احتلالهم القصير لإثيوبيا (١٩٣٦ — ١٩٤١)



مسجد حديث فى مصوع بنى على نفقة
جلالة الامبراطور هيلاسلاسى الأول



سد كوكا وهو مقام على نهر أواش على ارتفاع ١٦٠٠م.
من سطح البحر يحجز ١٥ مليون مترا مكعبا من الماء ومقدار
ما ينتجه من الكهرباء ١١٠ مليون كيلووات ساعة فى السنه وقد
بلغت تكاليفه ٣٤٥و٥ مليون دولارا اثيوبيا وهو الخطوة الأولى من
ثمان مشروعات فى السنة أقامها لغرض كهربة البلاد وتوسيعاً للرقعة الزراعية



منظر أمامى للخزان وتبدو وراءه البحيرة التى كونها

وفى سنة ١٩٥٨ طلبت الكنيسة الاتيوبية أن ترفع درجة المطران إلى أعلى من ذلك ، على أن يملك حق تنصيب الأساقفة من أجل التغلب على صعوبة السفر إلى القاهرة، ومن أجل منح المطران سلطة التصرف وفقاً للظروف، فدارت المفاوضات بين الكنيستين واستمرت مدة طويلة ولكنها انتهت فى النهاية فى يونيو سنة ١٩٥٩ إلى رفع درجة المطران إلى (بطريرك جاثليق) وهى — درجة بين المطران والبطريرك — ومنحه حق تنصيب المطارنة داخل حدود الامبراطورية الاتيوبية، على أن يوقع كل أسقف قبل رسامته على تعهد مستقل بأن لا يجتمع مع غيره من الأساقفة من أجل تنصيب بطريرك مستقل ، بل يظل تنصيب البطريرك جاثليق حقاً من حقوق بطريرك الاسكندرية وحده. فى الوقت الذى نصت فيه المادة ١٢٦ من الدستور الاتيوبى على أن (الكنيسة الاتيوبية المؤسسة منذ القرن الرابع على مبادىء القديس مرقس هى كنيسة الدولة) ومن المعروف أن بطريرك الاسكندرية هو الخليفة الوحيد للقديس مرقس الرسولى .

ورغم اهتمام بطاركة الاسكندرية الدائم باتيوبيا، فإنه لم يزرها منهم إلا ثلاثة خلال المائة سنة الأخيرة ، وأولهم البابا كيرلس الرابع وقد زارها مرتين. الأولى قبل أن يرسم بطريركا وكان لا يزال الراهب داود ، حين ندبه إلى ذلك البابا بطرس الجاولى لفض نزاع دينى قام بين المطران سلامة الثالث والأكليروس الاتيوبى [1] ولكنه فشل فى مهمة . وكانت الثانية حين ندبه إلى هذه الزيارة الوالى سعيد باشا، وقد أصبح بطريركا ، من أجل فض النزاع الذى قام بين الدولتين من جراء غارات الجنود غير النظامية على الحدود الاتيوبية السودانية عند مطاردتهم لعصابات قطاع الطريق . وكاد الأمر يتطور إلى حرب بين الدولتين

(١) وقد حاول البطريرك قبل ذلك فض هذا النزاع بطريقته التقليدية وهى الكتب التى أرسلها إلى كل من الإمبراطور والمطران يشرح للأول المعتقد الصحيح وينصح الثانى بالاعتدال فى المعارضة .

لولا هذا التدخل السلمى ، ونجح البابا فى مهمته وعاد يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين . وكان هذا العمل من البابا البطريرك تحديدا واضحاً ، للسياسة الكنسيةالتى جرت عليها كنيسة الاسكندرية طوال تاريخها والتى ترمى دائما الى إقامة صداقةدائمة بين الشعوب الأفريقيـــة التى تخضع للكرسى المرقسى .

وزارها فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ غبطة البابا يؤنس التاسععشر،زيارة رعوية استمرت سبعة أيام ،أدت إلى تجديد الصلات بين الكنيستين وتقويتها وفتحاً لعهد من البعثات الدينية التى تتبادلها الكنيستان ، وكان مظهرها إرسالعددمن الطلبة الاتيوبيين الى كلية اللاهوت القبطية فى القاهرة للحصول علىدرجتها العلمية ، ومازالت هذه البعثاتمستمرة حتى الآن .

وزارها فى سنة١٩٦٠ غبطة البابا الحـالى كيرلس السادس زيارة رعوية كذلك، استمرت أسبوعا أيضاً وذلك عقب رفع درجة المطران الاتيوبى إلى درجة بطريرك جاثليق، ولذا كان استقبال الاتيوبيين لغبطته بالغاً حد الروعة . وقد صحبه فى هذه الزيارة عدد كبير من كبار الأقباط من المهتمين وغير المهتمين بالشئون الاتيوبية (١) .

كما زارها غبطته مرة ثانية فى سنة ١٩٦٥ ، ليرأس مجمع بطاركة الكنائس الارثوذكسيةالشرقية،وهو المجمع الذى دعا اليه جلالة الامبراطور،من أجلإيجاد اتصال دائم وتفاهم مستمر، بين الكنائس متحدة العقيدة لدراسة ماتعنى به هذه الكنائس من مسائل دينية واجتماعية من أجل إيجاد حلول جماعية لها .

وطقوس الكنيسة الاتيوبية هى نفسها طقوس الكنيسة المصريةإلا أن لها ألحانها الخاصة . وكل الطقوس والألحان تقال باللغة الجعزيةوهىللغة الأمهرية بمثابة اللاتينية للغاتالأوروبية الحديثة . ولـكنلم يلبث رجال الدينالمتقدميون أن خطوا خطوة حاسمة من أجل إفهام الشعب (الذى يجهل اللغة الجعزية) هذه

(١) ومما يؤسف له أن لم صدر كتاب بعد عن هذه الزيارة حتى كاد أن ينساها الناس بل ومن المؤكد أن سينساها التاريخ .

الطقوس وهذه الألحان ، فوضعت الألحان باللغة الأمهرية شعراً ، بل ولحنت على النوتة الموسيقية .

وقام بهذه الخطوة الجريئة — التى لم تقم كنيستنا القبطية بمثلها حتى الآن — أحد مدرسى الدين بالمدارس الثانوية الحكومية بإتيوبيا ، وهو الأستاذ اساياس علم Essaias Alam ، وقد أرسل الى القاهرة من أجل الحصول على بكالوريوس فى اللاهوت وشجعته الكنيسة على خطوته حين تقبل الأنبا ثاوفيلس مطران هرر والقائم بأعمال البطريرك جاثليق نوتته الموسيقية بعد طبعها (أنظر شكلى ١٠ و ١١) ، وأمر نيافته فقرن بعض مدرسى الدين بمدارس أديس أبابا والأقاليم عليها ، بل أدخلت أيضا فى كلية اللاهوت باديس أبابا ، كما أمر السيد وزير التعليم والفنون الجميلة بتدريسها فى المدارس العامة .

الفصل العاشر

أرتريا

كانت أرتريا تكون جزءاً من إتيوبيا قديماً ، بل كانت هى مركز قوة دولة أكسوم .وكان ميناؤها عدول هو العين الذى تطل به على العالم الخارجى . وعن طريقها أتت القوة البحرية ، كما أتت الديانة والثقافة والثروة ، واشتهرت فى القرن الخامس بما قامت بها من صناعات ذاعت شهرتها فى أجزاء العالم فى ذلك الوقت فصنعت بها الرماح العدولية التى اشتهرت فى الشعر العربى الجاهلى . وكانت سفنها ذات شهرة أيضاً إذ قال فيها طرفة بن العبد فى احدى قصائده:

عدولية أو من سفين ابن يا من   يروح بها الملاح طورا ويهتدى
يشق عباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفائل باليـد

وظلت كذلك حتى القرن السابع حين أخذت القبائل العربية المسلمة تكون حاجزاً إسلاميا وقف فى وجه اتصال إتيوبيا بالعالم الخارجى ، ومن ثم أخذ الوهن يتسرب إلى دولة أكسوم . ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الجزء لم يعد جزءاً من إتيوبيا ، بل ظل يكون قطاعاً هاما تسكنه جماعات مسلمة وأخرى مسيحية ، وإن فضلت الأولى سكنى الجهات المنخفضة بينما فضلت الثانية سكنى الجهات المرتفعة .

وفى القرن العاشر انتقل مركز الحكم إلى لاستا ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح إقليم تجرى الذى تكون أرتيريا جزءاً منه أكثر بعداً عن مركزالقوة فى إتيوبيا .

وفى القرن الثالث عشر ازداد مركز الحكم فى إتيوبيا بعداً نحو الجنوب حين انتقل إلى شـــوا ، فكان ذلك داعيا لأن تزداد أرتريا انفصالا عن إتيوبيـــا .

وفى القرن السادس عشر استولى الأتراك العثمانيون على الساحل الغربى للبحر الأحمر فكانت ميناء أدوليس ، وقد أصبح اسمها مصوع ، من نصيبها وورثه عنهم المصريون فى أواسط القرن التاسع عشر أيام حكم إسماعيل .

وفى سنة ١٨٧٩ اشترت شركة راباتينو الإيطالية أرض خلاء حول ميناء عصب من أحد الشيوخ ، بعد أن اعتبرته الشركة مستقلا متناســية حقوق مصر هناك .

وفى سنة ١٨٨٠ بدأت الحكومة الإيطالية تتخذ بعض الخطوات لتحل محل الشركة ، فأرسلت إلى هذا الثغر إحدى سفنها ورفعت العلم الإيطالى . كما أنزلت بعض البحارة . وهنا أعلنت الحكومة المصرية دهشتها من هذه الخطوة وأيدتها انجلترا فى هذا الموقف حين أكد اللورد سالسبورى أن عصب تقع ضمن الأراضى المصرية مما حدا بإيطاليا إلى أن تؤكد أن خليج عصب لن يتحول مطلقا إلى منشأة حكومية ، بل ستظل تحمل الطابع التجارى والعلمى .

ودأبت الحكومة الإيطالية بعد ذلك على السعى لتسوية مسألة عصب مع حكومة مصر ، رغم ما أعلنته فى نهاية العام من تعيين قومسير للاشراف على الإدارة المدنية .

ولم تلبث مصر أن منيت بالإحتلال البريطانى، الذى أرغمها على الانسحاب من السودان فى سنة ١٨٨٥ ، واعتبر السودان أرض خـــلاء ، ودعيت إيطاليا لاحتلال مصوع .

وكان تأثير هذا الاحتلال غريبا إذ لم يكن له أى صدى فى الرأى العـــام الإيطالى حين خلق ما يشبه حمى استعمارية بين أعضاء مجلس النواب الايطالى فأراد أن

يكون جديراً بشرف الانتساب إلى البنادقة والجنوبيين وأهل بيزا، الذين كانوا سادة التجارة فى القرون الوسطى . ومن ثم تطلعت الأنظار إلى تقليد بريطانيا وهولندة ، فى بناء إمبراطورية فيما وراء البحار .

ونوقشت مسألة الهجرة لإحياء المستعمرة فعارضها بعض المفكرين،لاحتياج إيطاليا آنذاك إلى الأيدى العاملة ورءوس الأموال بدلا من إرسالها إلى الخارج،فاذا ما بدأت الهجرة بعد ذلك كانت محصورة فى الفقراء والجهلاء والمجرمين . فكانت الحركة أقرب إلى الهرب منها إلى الهجرة ، وعمل فى ميدانها بعض السماسرة الذين كانت وظيفتهم إغراء المهاجرين على السفر بأجور أفضل .

وباستيلاء إيطاليا على مصوع بدأ الصراع الاستعمارى . الذى خاضته إيطاليا،وكانت المساعدة التى بذلتها انجلترا لها كافية لأن تصيبها بالغرور،مما جعلها تفكر فى أن تصل مستعمرتى عصب ومصوع بشريط ساحلى ضيق ، وسرعان ما اتخذت إيطاليا هذا الجزء نقطة ارتكاز للتوسع فى الداخل ، ولكن هذا الدور بددته هزيمة عدوة سنة ١٨٩٦ على يد الامبراطور منليك الثانى، فالتزمت إيطاليا حدودا معينة حددتها الاتفاقية الايطالية الاتيوبية التى عقدت فيما بعد.

وبدأت إيطاليا تحاول النهوض بهذه المستعمرة ، فأجرت التجارب العديدة ولكنها انتهت كلها إلى لا شىء، إذ عجزت المحاصيل عن أن تسد الحاجة، ولذا ظل استعمار إيطاليا لهـا لا يعدو مشروعا حكوميا . ومع ذلك ظلت الهجرات تتوالى من أجل خلق وعى أفريقى بين الايطاليين ، الغرض منه التمهيد لفكرة أن عصب ومصوع ليست إلا مفاتيح للتوغل داخل القارة . وكانت مصوع من حيث موقعها محطة ضرورية للبواخر فى البحر الأحمر . فمدت السكك الحديدية إلى الداخل ، ولكن مع ذلك ظلت المستعمرة ليست أكثر من ميناء محرومة من رءوس الأموال . فلم توجد بها شركة واحدة ، أو بيت

تجارى رئيسى واحد ، حتى أنها لم تثر حسد جيرانها . وظلت المستعمرة عبئا على الخزانة الإيطالية وكانت تكلفها ما يقرب من ثمانية ملايين من الليرات سنويا . وقدر ما صرف عليها حتى قيام الحرب العالمية الأولى بخمسمائة مليون من الليرات ، دفعتها الخزانة الإيطالية التى كانت مثقلة بالديون ،والتى كانت الدولة تدفع عنها فوائد بلغت فى بعض الأحيان ٣٣ ٪، مما جعل إيطاليا تفكر أكثر من مرة فى إخلائها لولا الكرامة السياسية .

وفى خلال ما بين الحربين ، كانت سيادة العنصر الإيطالى فى أرتريا أحد أهداف السياسة الفاشية . فلم تلبث قوانين التفرقة العنصرية أن صدرت بعد أن رأت الحكومة اشتراك النساء الوطنيات مع الرجال الايطاليين فى إدارة الأعمال .

وفى سنة ١٩٣٥ اتخذت أرتريا قاعدة للهجوم الإيطالى على إتيوبيا ، كما رأينا وانتهى الغزو باستيلاء ايطاليا على إتيوبيا فجعلت أرتريا إحدى المحافظات التى تتكون منها امبراطورية شرق أفريقيا .

وفى سنة ١٩٣٧ صدرت القوانين التى تنص على عقوبة الحبس خمس سنوات للمواطن الايطالى الذى يصهر الى أتيوبى . ونص قانون ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ على عدم الاعتراف بأى زيجة بين المواطنين الايطاليين والرعايا . كما حرم الوطنيون من التمتع بمزايا الايطاليين والا حكم عليه بالحبس ستة أشهر وغرامة ألفين ليرة . وقصر التعليم على أبناء المستعمرين .

وهزمت إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية ، واجتمعت هيئة الأمم المتحدة لتنظر فى أمر المستعمرات الايطالية السابقة وأرسلت الى أرتريا كما أرسل الى غيرها ، بعثة رباعية للتعرف على رأى الأهالى فى مستقبلهم ، وانتهى الأمر بضمها الى اتيوبيا انضماما فدراليا بقرار من هيئة الأمم المتحدة فى ٢ ديسمبر

سنة ١٩٥٠ ، بعد أن أديرت بواسطة بريطانيا مدى إحدى عشرة سنة .

وأرسل إلى هناك المستر ماتنزا ليضع دستوراً فدرالياً لها . فاذا ما أتم مهمته وافقت عليه الهيئة فدخل فى دور التنفيذ فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فأنشئت إدارة وطنية لإدارة الشئون الأرترية ولتهيىء الأمور لجعل هذا الدستور الجديد حقيقة واقعة .

وكان فى أرتريا فى ذلك الوقت حزبان، أحدهما حزب الوحدة،وهو الراغب فى ضمها إلى إتيوبيا ، والثانى حزب الرابطة الإسلامية أو حزب الأحرار كما سمى فيما بعد ، وهو الراغب فى استقلالها أو ضمها إلى السودان .

وبمقتضى هذا الدستور أصبحت أرتريا وحدة قائمة بذاتها ، متحدة فدراليا مع أتيوبيا تحت التاج الاتيوبى . ومن أجل حسن الإدارة وتنسيق العمل أنشىء المجلس الاتحادى المكون من أعضاء متساوى العدد من الأتيوبيين والأرتريين ويجتمع مرة كل عام على الأقل من أجل تقديم المشورة إلى حكومة الاتحاد فى الشئون المشتركة،على أن تكون هناك جنسية واحدة تضم رعايا الحكومتين .

وملكت حكومة أرتريا حينذاك سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية خاصة بها تعالج أمورها الداخلية. بينما ظلت الشئون الخارجية والدفاع،والنقد والمالية والتجارة الخارجية،والمواصلات الخارجية،من اختصاص الحكومة الفدرالية المركزية،التى تملك أيضاً حق فرض الضرائب للصرف على جزئى الاتحاد . بينما يملك المجلس التشريعى المنتخب من شعب أرتريا،حق فرض الضرائب الخاصة بأرتريا للصرف على شؤونها .

وقد كان لأرتريا علم خاص يرفع على المبانى الحكومية إلى جانب العلم الاتيوبى ، ولكن جاء اليوم الذى قررت فيه الهيئة التشريعية إلغاءه والاكتفاء بالعلم الإتيوبى ،وقد عدت حكومة إتيوبيا هذا العمل خطوة نحو الوحدة .

ونص قانون الضم على أن تـكون أتيوبيا وأرتريا وحدة جمركية وجنسية واحدة،وأن يشترك المواطنون الأرتريون فى الارادات التنفيذية والقضائية . وأن يمثلوا فى المجلس التشريعى الفدرالى طبقـاً للقانون ، وبالنسبة التى يمثلها شعب أرتريا بالنسبة إلى شعب الاتحاد كله . وأن تقوم حكومة الاتحاد مع حكومة أرتريا بكفالة الأمن لجميع المقيمين فى أرتريا،دون تمييز بسبب الجنسية أو اللغة أو الدين أو الجنس ،وكذلك التمتع بالحقوق الإنسانية الأساسية .

ولأرتريا دستورها الخاص الذى ينص علىأن يكون إمبراطور أتيوبيا هو رئيس الاتحاد . ويكون له حق التقدم فى جميع الاحتفالات وفى افتتاح وانتهاء دورة المجلس التشريعى . على أن يلقى ممثله فى أرتريا خطاب العرش الذى يعالج فيه الشئون المشتركة كما يعالج شئون أرتريا .

ويملك المجلس التشريعى تعيين رئيس المجلس التنفيذى ، الذى يجب أن يحوز أغلبية الأصوات . وهو مسئول أمام ممثل الإمبراطور الذى يقيم دائماً فى أسمرة . فهو يباشر سلطته تحت إشرافه .

ويتـكون المجلس التنفيذى من خمسة وزراء إلى جانب الرئيس، ثم مدير عام وسكرتير عام ، وسكرتير عام مساعد لمجلس الوزراء ، بينما يتـكون المجلس التشريعى من ٦٦ عضواً ، كلهم منتخبون بطريق الاقتراع غير المباشر . لمـــدة أربع سنوات ، ويشترط فى العضو أن يكون بالغا ثلاثين سنة ومقيما فى أرتريا لمدة ثلاث سنوات سابقة لانتخابه على الأقل ،منها سنتان فى الدائرة التى يمثلها .

ويعقد المجلس دورتين كل عام وهو يملك حق سؤال رئيس المجلس التنفيذى. كما يملك عشرة أعضاء حق تقديم طلب لمناقشة سياسة الحـكومة. وحينئذ يجب أن يجيب الوزير المختص بنفسه أو ينتدب أحد المديرين للاجابة. كما يملك المجلس

حق مناقشة الميزانية ، التى يجب أن تقدم إليه قبل افتتاح الدورة الثانية بشهر على الأقل لفحصها ، حتى إذا افتتحت الدورة بدأ المجلس مناقشتها ليجرى بها التعديلات التى يراها . وبعد انتهاء العمل بالميزانية يقدم رئيس المجلس التنفيذى حسابا عما تم تنفيذه منها .

ويمارس المجلس التشريعى حق تعيين القضاة من بين أسماء يتقدم بها رئيس المجلس التنفيذى، بعد استشارة رئيس المحكمة العليا .

وهناك أيضا المجلس التنفيذى الاستشارى ويتكون من رئيس المجلس التنفيذى رئيسا ، ومديرى الإدارات المختلفة ، وهو يدعى إلى الاجتماع كلما دعاه الرئيس ، وجميع هؤلاء المديرين مسئولون أمامه عن سير العمل فى إداراتهم ، ولا يستطيع المجلس التنفيذى مباشرة عمله فى غياب رئيسه .

ولكن انتهى هذا كله فى سنة ١٩٦٠ ، بقرار صدر من مجلس نواب أرتريا ـ تقدم به أحد أعضائه ـ بالانضمام النهائى إلى أتيوبيا ، لتكون قسما إداريا من أقسامها ، يكون له ما للاقسام الإدارية الأخرى من حقوق وما عليه من واجبات .

ويعتمد أهل أرتريا فى معيشتهم على الزراعة، ومع ذلك فما يزرع من أرضها لا يزيد عن ٣ ٪ بينما تشغل الغابات ٥ ٪ ، ويمرح الرعاة فى أكثر من ٧٥ ٪ من المساحة وهى مراعى فقيرة لقلة المطر . وتقدر ماشيتها بثلاثة ملايين ونصف مليون رأس من الماشية ولذا كان الفقر وانخفاض المستوى الاقتصادى والاجتماعى أظهر ما يميزها فهى تعتمد فى غذائها على حبوب إتيوبيا ، وليس هناك من علاج قريب لهذا النقص . ما لم يكن ذلك على حساب المراعى وهناك مجال محدود لزيادة الأراضى الزراعية فى المنخفضات الشرقية، حيث تجرى مياه الفيضانات فى أوقات محدودة، إذ أن الماء نادر فى المرتفعات الغربية وتكون هذه الفيضانات فى مواعيدها سببا لانتشار الأمراض وخاصة الملاريا .

ويقدر عدد سكان أرتريا بمليون وأربعمائة ألف . وهم من التجرانية الذين يعيشون فى المرتفعات الغربية القريبة، ثم البدو من العرب والبجة ، ويعيشون على سواحل البحر الأحمر . والعفر ويعيشون فى السهول الساحلية لخليج زولا . وأخيرا الزنوج ويعيشون فى الجنوب الغربى .

ولم تهيىء إيطاليا لأهالى أرتريا الوطنيين أيام احتلالها للبلاد، وقد استمر طيلة ستين سنة — من التعليم سوى المرحلة الأولية . وفى أيام الفترة البريطانية التى توسطت الإيطاليين والإتيوبيين كان عدد الطلبة لا يزيد عن عشرة آلاف طالب وهو عدد لا يمثل أكثر من ٦٪ من الأولاد الذين فى سن التعليم .

وخارج نطاق الزراعة والرعى ، يعمل بعض الناس فى الصناعة والتعدين والسكك الحديدية والنقل البرى والإدارة العامة، ومجموع من يعمل فى كل ذلك لا يتعدى ٢٪ من السكان .

وسكان أرتريا الأوروبيون كانوا قليلين إلى سنة ١٩٣٥ ولكنهم ازدادوا فجأة بسبب تدفق الإيطاليين من أجل الحرب، وفى سنة ١٩٤١ وصل عدد الإيطاليين إلى ستين ألفاً ، وإلى جانبهم بعض اليونان والعرب واليهود والهنود والسودانيين .

وفى سنة ١٩٥٠ هبط عدد الإيطاليين إلى عشرين ألفاً ، مما أدى إلى إغلاق عدة محلات تجارية فكان ذلك سبباً فى انتشار البطالة بين عدد كبير من الوطنيين الذين كانوا يعملون فيها . ولكن منذ أن بدأ الاتحاد بدأت بعض الصناعات الجديدة ، مثل حفظ اللحوم وعمل العلب والفخار والنسيج تستوعب إعداداً منهم .

وكانت إيطاليا بعد احتلالها لإتيوبيا فى سنة ١٩٣٦، قد أخذت فى مد مجموعة من الطرق الحديثة كما بدأت بعض الصناعات الاستهلاكية مثل الطوب

والأسمنت والأدوات الـكهربائية ، إلا أن ذلك كله توقف فى سنة ١٩٤٣ حين توقفت الواردات . وظلت بعض الصناعات الأخرى تعمل مثل صناعة الزجاجات والـكبريت والبيرة والنبيذ والورق والصابون ، وطحن الغلال ، وعصر الزيوت وأزرار الدوم وصبغ الجلود والسجاير ولـكن كل ذلك فى نطاق ضيق .

وتعتمد إتيوبيا حالياً على مينائى عصب ومصوع وتمر بهـما ٦٠٪ من تجارتها . والثانية أكبر من الأولى وأكثر استعداداً وهى تخدم شمال اتيوبيا بينما تخدم الثانية وسطها وجنوبها، وأنشىء لها طريق ممهد يربطها بديسى وأديس أبابا قامت بتعبيده شركة يوغوسلافية .

ومما لاشك فيه أن خروج الإيطاليين قد أدى إلى نقص تجارتها . هذا إلى أن ضرائب إتيوبيا الجمركية العالية قد رفعت من أثمان المواد المستوردة . مما أدى إلى مزيد من النقص فى الواردات ويدخل فى ذلك ما كان يرد سابقاً من اتيوبيا ، وهو كثير يتمثل فى الحبوب والنسيج والوقود وقطع الغيار . وقد اختفى هذا النقص فى تيار زيادة تجارة اتيوبيا مع الخارج منذ سنة ١٩٥٠ . ويبدو أن إيرادات أرتريا غير المنظورة استمرت تلعب دورها فى موازنة التجارة ، مما جعل أرتريا عبئاً ليس بذى بال على اتيوبيا . فرغم أن المادة الرابعة من قانون انضمام ارتريا إلى اتيوبيا تنص على أن المـكوس الجمركية المفروضة على البضائع الواردة برسم ارتريا تظل لها خاصة إلا أن تنفيذ هذا النص ليس سهلا . لعدم وجود حاجز جمركى بين أرتريا واتيوبيا ، فبعض البضائع الواردة برسم أرتريا ترسل إلى إتيوبيا فى حالة عدم استهلاكها محلياً . ولذا توصل الفريقان إلى اتفاق يجعل إتيوبيا تدفع لأرتريا مبلغاً سـنوياً معيناً قدره ٨٩٠ر١٥٦ ريالا اتيوبيا نظير ما تستحقة أرتريا من رسوم جمركية .

وتقدر ميزانية أرتريا باحد عشر مليوناً ونصف المليون من الريالات الإتيوبية ، وتمثل الرسوم الجمركية ٤٠٪ من الإيرادات وضريبة الدخل ١٦٪ وهى مازالت تجبى على النظام الإيطالى القديم .

ولعل أشد ما تعانى أرتريا فى الوقت الحاضر ارتفاع تكاليف الاستيراد ، مما أدى إلى ارتفاع تكاليف المعيشة وارتفاع مستوى الأجور وخاصة فى الريف، ولكن يقابل ذلك فتح الأسواق الإتيوبية أمام الصناعات الأرترية . ولكن لايتأثر معظم السكان من هذا الأمر مطلقاً ، لأنهم ما زالوا يعتمدون على الزراعة ،واحتياجات المجتمع الزراعى مازالت قليلة لتأثرها إلى حد كبير بقلة المساحة المزروعة نتيجة لقلة الماء ، وانخفاض المستوى الصحى . مما أدى إلى اعتمادهم على الحكومة الاتحادية فى كثير من مصارفهم . ولذا مال معظم السكان إلى الاتحاد مع إتيوبيا . ولذا لم تحاول الحكومة الاتحادية شيئاً من الضغط على الشعب من أجل خلق جبهة تؤيدها لا سيما وأن مباشرتها للشئون الأرترية أبوى بحت غير مطبوع بطابع دكتاتورى . فمعظم أعمال ارتريا وخاصة فى نواحى الصحة والتعليم بعيدة عن التدخل المباشر . وقد وجه بعض الأعضاء فى المجلس التشريعى نقداً إلى الحكومه الإتيوبية بأنها استغلت ثروة أرتريا وانتهكت حقوقها بالتدخل فى الشئون الداخلية لأرتريا ، فصرح ممثل الامبراطور أن ليس هناك من تدخل مطلقاً فى الشئون الداخلية كما لاتنوى الحكومة هذا التدخل مستقبلا ، لأن مستقبل أرتريا موضع إهتمام حكومة إتيوبيا وجلالة الامبراطور .

ففى قطاع الزراعة وضع جلالة الامبراطور أساس خزان زولا ، الذى سوف يكفل الماء لمنطقة خصبة واسعة ، ولكنها الآن قاحلة بسبب قصور كمية المطر السنوى عن أن تفى بالحاجة .

وعلى نطاق أصغر صمم خزان اركيكو ، ليكون ذا نفع لأهالى هـذا الميناء القديم ذى الشهرة القديمة التى تعود إلى العصور الوسطى . فهو سوف يحمى هذه الميناء من غوائل الفيضانات التى تجتاح المنطقة من وقت لآخر، كما تتيح لمنطقة واسعة أخرى ماءاً وافراً .

وقد أدخلت زراعة القطن الذى أصبحت كمياته الحالية تسد حاجة مصنع باراتلو للنسيج ، ومناطق زراعته موجودة حالياً فى الجزء الساحلى المنخفض لحرارته . وإذا عرفنا أن المنسوجات القطنية تكون جانباً كبيراً من الواردات إلى أرتريا ، أمكننا أن ندرك أى خدمة يؤديها إدخال زراعة القطن إلى هذه الجهات .

وقد وجه الإمبراطور كبير عنايته إلى الاستفادة من ميناء عصب فتعمل هناك شركة يوغوسلافية لبناء الأرصفة مما يؤدى إلى تسهيل دخول السفن . وكذلك إلى تشغيل عدد هائل من الأيدى العاملة فى الوقت الحاضر . كما افتتحت هناك مذابح وثلاجات ضخمة من أجل تسهيل توريد اللحوم الطازجة .

وفى أسمرة أنشئت — علاوة على الأرصفة والجمارك والمخازن الجديدة بدلا من الايطالية القديمة المتداعية — كلية بحرية لأجل تخريج جيل يعمل فى السفن الإتيوبية ، وفى شئون الملاحة الأخرى . كما افتتح بهـا عدد من المدارس الثانوية والأولية علاوة على عدد من الكنائس والمساجد والمستشفيات، ومدرسة للتمريض، وأخرى للتجارة وهذه الأخيرة أنشئت بمساعدة النقطة الرابعة الأمريكية .

وتعمل الحكومة على تشجيع الفلاحين على الاستقرار والزراعة بتوزيع البذور الصالحة ورصد الجوائز من أجل زيادة كميات المحصول وتحسين نوعه .

وقد أعطى قانون العمل الذى صدر فى سنة ١٩٥٨ للحكومة حق تحديد حد أدنى لأجور العمال . كما أرغم أصحاب الأعمال على التأمين على عمالهم ضد أخطار العمل . وعلى دفع التعويضات عند الاستغناء عنهم . كما وضع مشروع لمد الخط الحديدى من أجوردات إلى حدود السودان ، مما سوف يتيح فرصة جديدة لنمو اقتصاد أرتريا . ويعطى فرصة للحاصلات السودانية فى المنطقة الشرقية للتصدير عن طريق مصوع .

الفصل الحادى عشر

تطور العلاقات بين مصر وإتيوبيا

تعود العلاقات بين مصر وإتيوبيا إلى أزمان قديمة بل موغلة فى القدم. فقد روت لنا المدونات والنقوش أن التجار المصريين قد قصدوا إتيوبيا منذ أقدم الأزمنة ليحصلوا على البخور واللبان من بلاد بونت التى يكاد يجمع المؤرخون على أنها بلاد الصومال الحالية ولم تكن هذه الأجزاء تنتج البخور بل كانت تحصل عليه من الهضبة التى خلفها ولم يكن سكان بونت أو الصومال سوى وسطاء فيها .

وفى العصر اليونانى كانت موانى إتيوبيا التى تطل على البحر الأحمر مراكز لجاليات مختلفة من العرب واليونان والمصريين و لوطنيين، تشتغل كلها بالتجارة مع السفن اليونانية التى تمر بالبحر الأحمر، وكلنا يعرف إهتمام البطالمة بالتجارة وعملهم على إنعاشها فلابد أن إتيوبيا كانت إحدى الأسواق التى قصدتها السفن المصرية وقد اثبتت المكتشفات الحديثة ذلك .

ودخلت الديانة المسيحية إلى اتيوبيا كما ذكرنا عن طريق تاجر مصرى كان يمر بسفينته فى البحر الأحمر فتحطمت السفينة وحمل من نجا من ركابها إلى قصر الملك. مما يقطع بوجود العلاقة بين مصر وإتيوبيا، وحملات عيزانا وكتابة أخبارها بثلاث لغات هى السبأية والحبشية والأغريقية تعنى ولا شك اهتمام هذا الملك بإيصال أخبار هذه الحملات إلى من يعرف احدى هذه اللغات . وكانت مصر موطنا من مواطن اللغة الإغريقية فى ذلك الوقت فلا بد إذن أن مصر طافت بذهن الملك حين نقش نقوشه هذه وأراد من العالم أن يعرفها .

وأصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية، ولكن ذلك لم يعن انقطاع الصلة بينها وبين إتيوبيا، رغم ما فعلته هذه الدولة من نظرتها إلى الدول التي تخالفها في العقيدة إنها (دار حرب)، فممالك النوبة وكذلك إتيوبيا كانت دولا حافظت على علاقتها بمصر رغم اختلاف الديانة بين حكومتها، ورغم أن هذا الاختلاف كان كافياً في ذلك الوقت لوجود توتر بينها.

وقد حفلت الأخبار المصرية خلال العصر الإسلامي بما يقطع بوجود هذه العلاقة، فقد حرص ولاة مصر خلال العصر العباسي على جلب أعداد كبيرة من السودان (أقصد سود البشرة) لتكوين الجيش المصري بعد أن انصرفوا وانصرفت الدولة معهم عن تجييش العنصر العربي. ولا بد أن الطريق بين مصر وإتيوبيا كان مطروقا بل كان مألوفاً لدى كثيرين من التجار المصريين حتى إذا أوقع الحاكم بأمر الله الفاطمي الأذى والاضطهاد بالأقباط، هرب كثيرون منهم إلى إتيوبيا واستقروا هناك. بل استفاد منهم الملك لاليبالا كما ذكرنا في تشييد مجموعة كبيرة من الكنائس كان معظمها محفوراً في الصخر. ولم يكن يجيد هذا العمل — وهو حفر المقابر والهيا كل في صخور الجبال — سوى العامل المصري الذي ورث هذا الفن من قديم الزمن. بل نجد أن كل كنيسة اتيوبية بنيت في هذا العصر تبدأ بالأعمدة التي تسند المدخل الذي يقود إلى بهو، تقوم الأعمدة على جانبيه ثم إلى الحجرات الداخلية، وهو نفس النظام الذي ورثه المهندس المصري في بناء الهيا كل الفرعونية القديمة.

ونجد أثر هذه العلاقة الوثيقة بين البلدين في مظاهر شتى. فلقد كان المصريون حتى العصر الفاطمي شديدي العناية بالاحتفال بعيد الغطاس أكثر من أي عيد قبطي آخر. فقد وصف لنا المسعودي الذي زار مصر أيام الأخشيديين ليلة الغطاس فقال (لقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر، والأخشيد محمد بن طغج قد أمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط

ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط . يظهرون كل ما يمكن اظهاره من المآكل والمشارب والملابس، وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف وهى ليلة تكون بمصر أشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب . ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أنهم بذلك فى أمان من المرض) .

وقد ورث الإتيوبيون عنهم هذه العادة وما زالوا حتى الآن يحتفلون بهذا العيد أكثر من أى عيد مسيحى آخر، حين يخرج الإمبراطور فى موكب رسمى حافل ينتظره الناس على جانبى الطريق بالزغاريد ، وقد لبسوا أحسن ملابسهم حتى يصل إلى مكان خارج العاصمة ، حيث يكون المطران قد سبقه فى موكب لا يقل عن موكب الامبراطور مهابة وأبهة . وهناك يبارك المطران والقسس الامبراطور بنثر الماء المقدس عليه. حتى إذا انتهت مراسم الاحتفال الرسمى، عاد المطران والامبراطور إلى قصريهما . وبقى القسس يغنون ويرقصون . ويكون قسس البلاد المجاورة قد قدموا من كنائسهم يحملون توابيت العهد التى تقام على المذابح، ملفوفة فى لفائف من القطيفة المذهبة يحيط بها الشمامسة فى ملابسهم المزركشة، يرتلون وينشدون حتى إذا بوركت بما نثره المطران من الماء المقدس حملوها ثانية عائدين إلى قراهم مهللين مترنمين بأغانيهم الكنسية، وخرج صبيان القرية يستقبلونها فيطوفون طرقات مدينتهم حاملين الورود والأزهار يهدونها إلى أهلهم وذوى قرابتهم .

وظلت هذه العلاقة الوثيقة خلال العصر المملوكى أيضاً وكان يتحكم فيها أربعة عوامل :

١ — عامل دينى وهو بنوة الكنيسة الإتيوبية للكنيسة المصرية وضرورة

تعيين المطران المصرى للكنيسة الإتيوبية، ورعاية الكنيسة المصرية للكنيسة الإتيوبية وتسهيل السفر للحجاج الاتيوبيين إلى بيت المقدس .

٢— عامل حيوى: وهو وجود منابع النيل بإتيوبيا وقد تصور سكان مصر آنذاك أن إتيوبيا تستطيع التحكم فى هذا المورد وتحويله عنهم ، وتصوروا أن الفيضان المنخفض ليس إلا نتيجة محاولة الامبراطور تحويل مجرى النيل .

٣ — عامل تجارى : فقد كانت إتيوبيا مقصداً لكثير من التجار المصريين، يجلبون منها الكثير من الرقيق الذى حفلت به بيوت كثير من المصريين فى ذلك الوقت، علاوة على الذهب والجلود والعطور وسن الفيل وريش النعام.

٤ — عامل أخوى : فقد كان مسيحيو مصر ينظرون إلى الاتيوبيين نظرتهم إلى أخوان لهم فى الدين، يستطيعون أن يجأروا إليهم بالشكوى إذا مسهم ظلم، وأن إمبراطور إتيوبيا بما له من القوة والمنعة ، يستطيع أن يتدخل لوقف هذا التيار، كما كان يسكن اتيوبيا كثير من المسلمين الدين نظروا أيضاً إلى مسلمى مصر كإخوان لهم فى الدين أيضاً، يستطيعون أن يجأروا لهم بالشكوى كذلك إذا ما تعرضوا لشىء من التضييق أو الاعنات . كما يستطيع سلطان مصر القوى بجيوشه وأسطوله أن يتدخل لنصرتهم وشد أزرهم .

ولذا كان تبادل الرسائل بين كل من امبراطور إتيوبيا وسلطان مصر أمراً شائعاً مألوفاً ، حتى ليحفظ لنا ديوان الانشاء فى القاهرة صيغة خاصة لما كان يرسله السلطان من رسائل . فلا بد أن تبدأ الرسالة إليه بما جاء فى الجزء الثامن من صبح الأعشى وهو (أطال الله بقاء الحضرة العلية . الملك الجليل . الهمام الضرغام . الأسد الغضنفر . الخطير الباسل . المسميدع العالم فى ملته . العادل فى مملكته . المنصف لرعيته . المستمع لما يجب فى أقضيته . عز الملة النصرانية . ناصر الملة المسيحية . ركن الأمة العيسوية . عماد بنى المعموديه . حافظ البلاد

الجنوبية . متبع الحواريين والأحبار . الربانيين والبطاركة القديسين . منظم كنيسة صهيون . أوحد ملوك اليعقوبية . صديق الملوك والسلاطين . (ثم يدعى له بدعاء يليق به نحو أظهر الله فضله على من يدانيه) من كل ملك هو بالتاج معتصب ولكف اللجاج بالعدل منتصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصر . أو للحق مغتصب . صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية . ومن حضرة القدس مسراها . ومن أسرة الملك القديم مسراها . وعلى صفاء تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن لها غليل . وإلى ذلك الصديق الصدوق المسيحي تصل . وإن لم تكن بعثت الأمن تلقاء الخليل) .

ولا بد أيضاً أن ينتهى الخطاب بالتوقيع وهذا مثل له .

(أطال الله بقاء الملك الجليل . المكرم الخطير . الأسد الضرغام . الهمام الباسل فلان بن فلان . العالم فى ملته حضرة ملك أمحرا أكبر ملوك الحبشان نجاشى عصره . سند الملة المسيحية . عضد دين النصرانية . عماد بنى المعمودية صديق الملوك والسلاطين) .

وأن الكتب التى تبادلها ملوك إتيوبيا مع سلاطين الدولة لتبين بجلاء أحد هذه الأغراض التى ذكرناها . ففى شهر محرم سنة ٧٢٦ ﻫ وصل إلى السلطان محمد بن قلاون خطاب من الامبراطور عمداصيون يطلب فيه تعمير الكنائس التى خربها المسلمون ، ومعاملة المسيحيين معاملة أكثر رعاية، وهدده فى حالة الرفض بتخريب جميع المساجد التى توجد فى مملكته وبتحويل مجرى النيل الأمر الذى سوف يؤدى الى خراب مصر خراباً كلياً .

أما الكتاب الذى أرسله الامبراطور داود إلى السلطان برقوق فقد حوى جميع هذه الأغراض مجتمعة فهو :

١ — يعلن إليه نبأ اعتلائه العرش الاتيوبى .

« نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه الغير مدروكة، جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة، واتفاق سائر الملوك والأمراء ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطة العظيمة النجاشية، فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود الملك لسليمان ابنه عليهما السلام » .

٢ — ينهى اليه ما يفعله لصالح رعاياه من مسلمين ومسيحيين .

(ثم نظرنا إلى أمراء الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين وفتحنا أبواب السبيل للتجار والمسافرين . وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم، وفى الوصية بأولادكم التجار والكارمية[1] وغيرهم فى البر والبحر، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الاسلامية كما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم، وخاصة من الملك الشهيد الأكمل عمداصيون جدى وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون من المحبة والاتفاق) .

(وهؤلاء القوم (يقصد المسلمون) هم مقيمون ببلادنا راضون غير مكرهين. وكانوا فقراء وصاروا تجاراً يتجرون ويمشون شرقا وغربا من غير جزية. ولا حق ولا مكس يطالبون به ، بل هم أكثر عن أهل البلاد يكرمون . ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا فلا نمنعه من ذلك ، أما الإكراه على الدخول فى ديننا فهذا غير واجب فى كتبنا ، وإن اتفق شيء من ذلك فيكون منهم بالرضا وبالرغبة الشافية . أما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين، فهذا ظاهر للعارفين).

٣ — يطالب بحسن معاملة المسيحيين فى مصر :

« وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى فى أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد الذى أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار المصرية لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريرك وإخوتنا النصارى . والأكابر والمشايخ الذين فيها » .

(١) لم يعرف حتى الآن من هم المقصودون بكلمة الكارمية .

« وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى فى الديار المصرية ، بمـا حوته الأقاليم الإسلامية وإجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها . وجعلتموها مساجد، وهذا بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة . فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقـدمين من حفظ كنائسهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلا كجارى العوائد القـديمة وحفظهم ما سألناكم فيه » .

٤ — يهدد بتحويل مجرى النيل وسوء معاملة المسلمين فى إتيوبيا :

«ومهما فعلتوه مع أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى من الخير والشر، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين فى حوزتنـــا وفى سلطاننا ، وأنتم مطالبون بما يأتيهم » .

« فإذا سمعنا أنـكم فعلتم هـذا جميعاً مع أخوتنا النصارى ، فنحن نوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم والتى ــ والعياذ بالله تعالى ــ حصل لأبينا البطريرك وأخوتنا النصارى جوراً من قبلـكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر لنا لسائر الأقاليم الإسلامية الذين تحت سلطاننا ، وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى أقاليم أخرى كما أعلمناكم فى أعلى كتابنا ، ومهما يحل بكم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم » .

٥ — يطالب برعاية الحجاج الاتيوبيين الذين يقصدون بيت المقدس .

« وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به، وجماعة من رسلنا أيضاً، فخاصمهم عبيد التجار الـكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد الغالبة ليعطوهم مسلمين وهـذا

غير واجب فى الشريعة ولا جرت به عادة فى زمن المسلمين السالفين » .

ونلاحظ فى هذا الخطاب أيضا أن الإمبراطور كان كثير الإشادة بالعلاقات الطيبة، التى ربطت مصر وإتيوبيا أمام الملك عمداصيون والملك الناصر محمد بن قلاون ، مما يجعلنا نؤكد أن هـذه الأيام كانت مثلا أعلى يتطلع ملوك إتيوبيا أجمعون إلى أن تكون علاقتهم بمصر على نحو ما كانت أيام هذين الملكين .

ولم يفت الإمبراطور داود أن يرسل مع خطابه هذا هدية كانت مضرب المثل فى الكثرة، حملها عشرون جملا وكانت قدوراً من الذهب مملوءة بحبوب صغيرة تشبه الحمص من الذهب الخالص يبلغ كيلها ويبة كاملة ، ومائة وخمسين طبقا من الذهب الخالص، وعشرون سقرفا وتسع وعشرون سكرجا ومغزل . وعشرون لجاماً ،وأربعون قلادة ومائة قدر صغير ومعها أغطيتها وخمسون صينية كلها من الذهب، عدا مغزلين وثلاثمائة سكرج وصينية أخرى من الفضة وقد بلغ وزن الأوانى الذهبية وحدها تسعا وعشرين ألفاً ومائتى مثقال .

وقد قوبلت هذه الهدية كما قوبل الوفد والخطاب أحسن قبول . وأجاب بقبول كل ما طلبه الإمبراطور ، وكتب إلى البطريرك برد جميع ما أخذه من أديرتهم وكنائسهم وأموالهم، ثم جهز هدية مما خف حمله وغلا ثمنه وأرسلها إلى اتيوبيا رداً للهدية السابقة .

وكانت الوفود تأتى من إتيوبيا سواء لطلب المطران أو لحمل خطابات الود، فتستقبل بما يليق برسلها من التبجيل والاحترام . فقد ذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٨٢٢ هو أنه وصل إلى بلاط السلطان رسول من ملك (الحبشة) فاستقبله السلطان جالساً على منصة فى أرض الرماية محاطاً بالأمراء عن يمينه ويساره كل حسب رتبته، ووصل الرسول ومعه الأمير زديمور والمهمندار وعدد كبير من المماليك

وكان يتبعه خمسة من أمراء (الأحباش) وكان على رأسه عصابة حمراء من الحرير موشاة بالذهب والأحجار الكريمة وفى وسطها لؤلؤة كبيرة غالية الثمن، وعلى كتفيه عباءة من الحرير الأحمر، ومن تبعه كان يلبس نفس الملابس ورءوسهم معصوبة بمناديل حريرية كبيرة، وتتكون الحاشية من خمسمائة كلهم ممنطقون بالأحزمة الشبيهة بتلك التى يلبسها المسيحيون فى مصر، وأثناء سيرهم كان الطبل المحمل على جملين يقرع، وصحب هذا الموكب البطريرك حتى إذا صعدوا أرادوا الجلوس على كراسى صغيرة من الحديد أحضروها معهم، ولكن الأمراء نهوهم عن ذلك وأفهموهم أن الجلوس ممنوع فى حضرة السلطان، ثم تقدم السفير وقبل الأرض مرة ثم أخرى عند مبدأ السجادة وفعل الأمراء التابعون مثل ما فعل وقدموا الخطاب الذى يحملونه.

وقد أمر السلطان بإكرامهم، وإنزالهم منزل الضيافة الذى يقع بجوار السرادق عند جسر الأسود، وأمر بالقيام بخدمتهم وحراستهم بشرذمة من المماليك، أمرهم أن يمنعوا الناس من الدخول إليهم أو الاقتراب منهم وبعد ثلاثة أيام رحل الوفد إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة.

وقد حاول الإمبراطور زرء يعقوب كذلك أن يديم علاقات الصفاء والود بين الدولتين رغبة منه فى جنى ثماره من التعاون الاقتصادى فبادر فى سنة ١٤٤٣ (٨٤٧ هـ) بإرسال هدية إلى السلطان جقمق (٨٣٨ — ٨٥٨) وصلت إلى مصر فى الثامن والعشرين من رجب مع رسولين أحدهما مسيحى والآخر مسلم، وكانت سبعين جارية وطستا وأبريقاً من ذهب وسيفاً مسقطاً بذهب ومهمازا ومعها خطاب.

١ — يشيد فيه بمدح السلطان وعدله وحسن إدارته.

(وقد اتصل إلينا جميع أخباركم أنكم — حفظكم الله تعالى — قد أمرتم

بإبطال المظالم من سائر العالم، وردعتم القوم الظالمين ، ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم، وعفوتم عن من له حرمة، وأبعدتم آثار المفسدين ورحمتم ذوى الفاقة من الفقراء والمساكين) .

٢ — ويشيد بما كان يربط إتيوبيا ومصر من علاقات الود المتبادل .

(وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادكم إتباعاً لآثارهم المشكورة، وقصدنا إعلامكم بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف، وآخر ذلك ما كان من أيام الشهيد برقوق ونجله الناصر سقى الله عهدهما صيب الرحمة وأيام والدنا وجدنا من المحبة والاتفاق، على ماظهرت به الصحائف من أخبارهم الحميدة وسيرهم المرضية).

٣ — ويوصى خيراً بمسيحيى مصر ويطلب حسن معاملتهم .

« وأنتم — حفظكم الله — عارفون بما يلزم الراعى من النظر فى حال رعيته وأن الله يطالبه بذلك، وأبونا البطريرك وأخوتنا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة، نفر قليل جداً ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا، وأنتم تأمرون بالنداء أن لا يقول أحد للنصرانى يا كلب)

٤ — يبدى ما يعمله من خير لمسلمى إتيوبيا .

(وليس يخفى عليكم فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ونحن لكم ولملوكهم مالكون ، ولم نزل نحسن اليهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين، ولأنفسهم ومالهم حافظين سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض إليهم. ونحن على ما كان عليه آباؤنا سالكين، فى طريقهم، غير معترضين لإقامة مساجدهم، ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مراسمهم. وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب . راكبين الخيول المسومة . وعامتهم فى أسبابهم آمنون

مطمئنون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم . راكبون البغال فى أحسن الأحوال. ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئاً لا قليلا ولا كثيراً. ولا نشوش عليهم أصلا، ولو أخذنا منهم جزية وكان كل واحد يزن درهما لكان يجتمع لنا من الأموال ما لا يحصى ، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا ليخبروكم بذلك بالحق والصدق، ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل عند العارفين) .

٥ — ويهدد بتغيير مجرى النيل .

(وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر اليكم من بلادنا. ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم، لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية ينصرف منها الماء إلى أماكن أخرى قبل أن يجىء اليكم، ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله .

٦ — ويطلب السماح للاتيوبيين بتعمير الأوقاف التابعة لهم بالقدس .

(وقد بلغنا أن دير الغطس هدم وهو من أيام الملوك السالفة ومن إحسانكم بروز أمركم الشريف بعمارة ذلك ونحن مقيمون على العهد القديم) .

(وبلغنا من الحبوش القاطنين بالقدس الشريف قصدوا عمارة بالأرض لميت مدفون فيه ، ومنعهم عن عمارته نائب السلطة هناك والقصد من عظمة سلطانكم بروز أمركم لنائب القدس . أن يرسم للحبوش بعمارة ذلك).

ووثائقنا عن العصر الثانى قليلة ولكنا نعرف أن الأتراك قد احتلوا شواطىء إتيوبيا ومنعوا عنها الاتصال بالخارج، بل إنهم أيدوا الامام أحمد فى حركته، وإن الإمبراطور فاسيلاداس حاول أن يفك هذا الحصار التركى عن بلاده حين اتصل باليمن، إلا أن هذه المحاولة فشلت ، ولذا نستطيع أن نقول أن علاقة مصر بإتيوبيا خلال العصر العثمانى كان يغلب عليها الركود وإن لم تقم حالة من العداء

الصريح . وقد كانت هناك أوقات يحاول فيها الإتيوبيون التفاهم مع الأتراك حين كان هناك عدو مشترك يحاولان معاً التغلب عليه . كما كان الحال أيام البرتغاليين أو اليسوعيين، ومحـــاولتهم الدخول إلى إتيوبيا فتعاون الأتراك والاتيوبيون على سحق هذه المحاولات. إلا أننا نعلم فى نفس الوقت أن سلطة الأتراك فى البحر الأحمر لم تلبث أن ضعفت حتى صارت إسمية . وأن هذا الضعف أدى إلى هـدوء العلاقات مع مصر . وساءت العلاقات فى القرن التاسع عشر نتيجة لفتح محمدعلى للسودان . وأصبحت الأملاك السودانية متاخمة لاتيوبيا . ففى أيام سعيد أكثرت القبائل الاتيوبية من الأغارة على الحدود السودانية — وهى حدود غير واضحة— كما كانت القبائل السودانية النافرة من الحكم المصرى بسبب خضوعها لنظام لم تألفه بترك السودان إلى إتيوبيا حيث تستقر أو حيث تعيش على نهب بعض القرى . فكان هذا سبباً فى تفكير سعيد فى غزو اتيوبيا.

إلا أن تركيا كانت تتردد فى أمر هذه الحملة بل نصحت سعيد أن يلجأ إلى الطرق السلمية، فكان أن أرسلت مصر الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط إلى هناك فنجحت سفارته، وانقشعت الغيوم وتبادل العاهلان الرسائل والهدايا . إلا أن الجو لم يلبث أن تعكر مرة أخرى أيام اسماعيل، حين قام بحملاته الفاشلة على الحدود الشمالية لإتيوبيا ثم حملته الناجحة على هرر .

وفى أيام منليك الثانى حين أخذ هـذا العاهل فى ادخال المدنية الأوروبية إلى بلاده وبدأ فى فتح المدارس على النظام الحديث استعان بمصر فأرسلت له البطريركية فى سنة ١٩٠٧ بعثة من ستة من الأساتذة افتتحوا المدرسة الأولى فى إتيوبيا على النظام الحديث هى مدرسة منليك الثانى. كما كانت صداقة الإمبراطور المطران المصرى الأبا متاوس سبباً فى تحسن العلاقات إلى حد كبير . ولذا ظلت مدرسة منليك حتى سنة ١٩٣٦ تعمل تحت إرشاد ناظر مصرى وأساتذة من المصريين تخرج على أيديهم كثيرون من الإتيوبيين الذين احتلوا بعض ذلك

بعض المراكز الهامة وإذا كانت البطريركية هى التى كانت تقوم أولا بإرسال الأساتذة الى هذه المدرسة، إلا أن وزارة التربية والتعليم هى التى أخذت على عاتقها هذه المهمة بعد ذلك كما هاجر إليها بعض التجار المصريين الذين عملوا فى حقل الإقتصاد الاتيوبى

وإذا ماعادت اتيوبيا المستقلة الى عالم الوجود بعد الاحتلال الإتيوبى عادت العلاقات إلى مكانتها السابقة وسافرت بعثة مصرية من الأساتذة ليعملوا فى أكثر من مدرسة كما عمل رئيس هذه البعثة وهو الدكتور مراد كامل استاذ الدراسات السامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة مستشاراً لوزارة التربية. وقدم إلى مصر كثيرون من الطلبة يطلبون العلم فى مدارسها . واتجه إلى اتيوبيا كثير من المصريين الذين عملوا فى الحقول المختلفة من النشاط الإتيوبى .

و رعان ما اشتد التقارب بين سياستى الدولتين أثر قيام الجمهورية العربية المتحدة، حيث اختطت الدولتان سياسة أفريقية متقاربة من شأنها خلق وعى افريقى يجعل الاهتمام بالشؤون الإفريقية من اختصاص الإفريقيين وحدهم، كما وقفت الدولتان من الشعوب الإفريقية الراغبة فى التحرر من سلطة الاستعمار موقف التشجيع .

وهكذا وقفت الدولتان — كما اعتادتا دائماً — جنباً إلى جنب فى تأييد السلام العالمى وتأييد الدول الإفريقية وتعاونها .

مـــلاحق

١ — نقش دنمبرجر

٢— نقش الملك عيزانا قبل أن يصبح مسيحياً

٣ — نقش الملك عيزانا بعد أن أصبح مسيحياً

٤ — خطاب الملك يكونو أملاك الى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى يسأله الموافقة على أن يعين بطريرك الإسكندرية مطراناً مصرياً لإتيوبيا

٥ — خطاب الامبراطور يجبياصيون إلى السلطان قلاوون وخطابه الى الأبا يؤنس الثامن بطريرك الاسكندرية

٦ — خطاب البابا بطرس الجاولى الى امبراطور إتيوبيا

٧ — خطاب البابا بطرس الجاولى إلى الأبا سلامة الثالث

٨ — خطاب الامبراطور منليك الثانى إلى البابا كيرلس الخامس

٩ — تقرير الأبا كيرلس مطران إتيوبيا إلى البطريرك يؤنس التاسع عشر

١٠— نص الاتفاق بين الكنيستين المصرية والإتيوبية بشأن رفع درجة مطران إتيوبيا الى بطريرك جاثليق

١١— أسماء ملوك الأسرة الأجوية كما يذكرهم كبرانجست

١٢ — ملوك القرنين الرابع والخامس الميلادى كما يذكرهم كبرانجست .

(١) نقش ديتمبرجر

عثر عليه فى أ كسوم وهو لملك لم يعرف اسمه عاش فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى عن غزواته فى الهضبة الحبشية شمالا حتى حدود مصر وكذلك فى اليمن (أرابيتس) .

« قد تملكت الشعوب التى تعيش بالقرب منى لأحافظ على السلم فقد غزوت شعوب الجعز Gueze وعجامى Agames وزيجابينى Ziggabene وعجابى Aggabe وتياما Tiama وأثاجاوى Athagaow وكالا Kalae وكذلك شعب سمن Semin واقتسمت معهم أملاكهم وعبرت النيل وغزوت الشعوب التى تسكن الناحية الأخرى والتى يتحصن أهلها فى الجبال الوعرة المغطاة بالثلوج التى يغوص فيها الإنسان حتى ركبتيه . كما تسلطت على جميع الشعوب التى تجاورهم حيث الينابيع الساخنة المتدفقة حتى وصلت إلى شعب البجة Beja والشعوب الأخرى المناصرة له والتى تسكن بالقرب من حدود مصر حتى وصلت إلى حدود مصر وهناك أسرت جميع رجال هذه القبائل ونساءهم وأولادهم وبناتهم كما استوليت على جميع ممتلكاتهم . ومن بقى منهم رضى بالخضوع كما رضى بدفع الجزية وقدم لى ولاءه وخضوعه. كما أرسلت حملة بحرية إلى الشاطىء الآخر من البحر الأحمر حيث يسكن شعب أرابيتس Arabites وقوضت روشهم هناك وأرغمت ملوكهم على دفع الجزية عن أرضهم وقد حاربتهم ابتداء من بلاد لوكى كومى Leuke Kome حتى أراضى السبأيين Sabaens وقد ساعدنى الإله العظيم القوى لأخضع لسطوتى جميع الشعوب التى تجاورنى إلى الشرق إلى أقصى ما تمتد الأرض . ومن الغرب إلى أقصى ما يراه الإنسان . وقد تغلبت على بعضهم بنفسى وعلى الآخرين بواسطة الجيوش البحرية التى أرسلتها لهم . وأخيراً عدت إلى عدول حيث قدمت قرابين الشكر إلى زيوس وآرس وبوسيدون . وكان ذلك فى السنة السابعة والعشرين من حكمى[١] .

(١) مصدر رقم ١٤ : ص ١١٦ ـ ١١٨ .

(٢) أحد نقوش الملك عيزانا وهو لا يزال وثنيـــا :

١ ـ عيزانا ملك أكسوم و

٢ ـ حمير وريدان و

٣ ـ إتيوبيا وسبأ وصالحين

٤ ـ وسيامو وبيجا و

٥ ـ كاسو ملك الملوك وابن

٦ ـ الإله غير المقهور آرس ولما

٧ ـ ثار أهل البجا

٨ ـ أرسلنا لهم

٩ ـ أخوينا شاعيزانا وهادينا

١٠ ـ ليحارباهم ويقهراهم

١١ ـ فتم لهما ذلك

١٢ ـ وأحضراهم إلينا مع أتباعهم

١٣ ـ و ٣١١٢ من ماشيتهم

١٤ ـ و ٦٢٢٤ من أغنامهم

١٥ ـ وأعطيناهم ماشية

١٦ ـ وحنطة ليأكلوا وخمرا

١٧ ـ وماء ليشربوا

١٨ ـ بكمية كافية لهم

١٩ ـ وهم ستة ملوك من أتباعهم ٤٢٠٠

٢٠ ـ فكانوا يأخذون كل يوم

٣١ ـ ٢٢ ألف رغيف وخمرا

٢٢ ـ لأثنى عشر شهرا

٢٣ ـ كما أعطيناهم جميع أنواع الطعام

٢٤ ـ كما أعطيناهم ما يلزم لرحلتهم

٢٥ ـ واستقروا فى أرض تابعة

٢٦ ـ لنـا تسمى ماتليا وأمرنا

٢٧ ـ أن يعطى لهم الغذاء

٢٨ ـ ومنحنا ملوكهم الستة ٢٥١٤٠ رأساً

٢٩ ـ ليشعروا بجميل خالقنا الذى لا يقهر أرس

٣٠ ـ فأقمنا له تمثالا من ذهب و

٣١ ـ وآخر من فضة وثلاثة من نحاس .

(٣) أحد نقوش الملك غيرانا بعد أن اعتنق المسيحية :

١ ــ بقوة اله السماء الذى هو فى السماء . وأقوى من أى شىء فى الوجود .
٢ ــ غيرانا بن الاعميدا من مملكة هالن . ملك اكسوم .
٣ ــ وحمير وريدان . وسبأ وصالحين . وسيامو وبيجا .
٤ ــ وكاسو ملك الملوك ابن الاعميدا غير المنظور للأعداء .
٥ ــ بقوة إله السماء الذى أقامنى ملكا .

نقش الملك غيرانا بعد أن تنصر :

١ ــ بقوة إله السماء الذى هو فى السماء وأقوى من أى شىء فى الوجود .
٢ ــ غيرانا بن الاعميدا من مملكة هالن . ملك اكسوم .
٣ ــ وحمير وريدان وسبأ وصالحين وسيامو وبيجا .
٤ ــ وكاسو ملك الملوك ابن الاعميدا الذى لا يغلبه الأعداء .
٥ ــ بقوة إله السماء الذى جعلنى ملكا .
٦ ــ ولم يستطع عدو أن يتقدمه ولا أن يقف أمامه .
٧ ــ كما لن يتبعه عدو . بقوة إله الكل . أعلنت الحرب على النوبة لأن شعب النوبة ثاروا .

٨ ــ وجعلوا يفخرون بذلك . وقالوا أنهم (الاتيوبيين) لن يعبروا نهر تكاز (إليهم).

٩ ــ أهل النوبة اتخذوا عادة مهاجمة الناس فى مانجورتو . . . . وكاسا . . . وباريا . . والسود .

١٠ ــ جعلوا يشنون الحرب على الحمر ومرتين وثلاث مرات حنثوا بإيمانهم .

١١ ـ وقتلوا جيرانهم دون رحمة . وسـلبوا أملاكا وجردوا مندوبينا ورسلنا الذين

١٢ ـ أرسلتهم ليتحروا عن هذه السرقة وسلبوهم

١٣ ـ حرابهم التى يدافعون بها . ولما كنت قد حذرتهم ولم يلتفتوا بل رفضوا أن يوقفوا أعمالهم الشريرة بل زادوا وأغرقونى بشرورهم

١٤ ـ وركنوا إلى الفرار فحاربتهم ونشطت إلى ذلك بقوة إله

١٥ ـ الأرض (الله) وحاربتهم عند تكاز عند خليج كيالـكى فهربوا ولم

١٦ ـ يقفوا فتبعتهم ثلاثة وعشرين يوماً

١٧ ـ وقتلت بعضاً وأسرت بعضاً وقبضت عليهم أينما ذهبت

١٨ ـ وأعدت إلى أرضى من فر من شعبى وأحرقت مدنهم (سواء) .

١٩ ـ ما كانت مبنية بالأجر أو من الأعشاب. وحمل جنودى طعامهم وأوانيهم النحاسية والحديدية

٢٠ ـ ونحاسهم كما ضربوا تماثيل (صور) بيوتهم (معابدهم) وما اختزنوه من طعامهم وأشجار القطن .

٢١ ـ وألقيت بهم فى النهر (سيرا) فمات كثيرون منهم غرقى فى الماء

٢٢ ـ وعددهم لم يكن معروفاً لى . وأغرق (جندى) قواربهم فى النهر بما تحمله من ناس

٢٣ ـ من رجال ونساء . وقبضت على الزعيمين (منهم) اللذين

٢٤ ـ كانا قد قدما كجاسوسين راكبين ناقتين ويدعيان

٢٥ ـ يزاكا ويونالى وقبضت على الشريف انجـاب قناوى . وقد مات الزعماء

٢٦ ـ دانـكو ورجالى . اتاكو وهوارى وهاركارى وسيدهم (كاهنهم)

٢٧ ـ وكان الجند قد جرحوه ونزعوا عنه قميصه (كمدا
وصندوقه الذهبي

٢٨ ـ والزعماء الذين ماتوا كانوا خمسة وكاهناً . وجئت إلى كا،
معركة وأسرت من شعبها عند

٢٩ ـ التقاء النهرين سيرا وتكاز وبعد ذلك بيوم وصلت وبعثت

٣٠ ـ من اجتاح البـــلاد جيش ماحاز وجيش حارا . .
وفالى . وصيرا

٣١ ـ وعند أعلى نهر ســيرا حيث المدن مبنية من الأجر
وأسماء المدن

٣٢ ـ المبنية من الأجر علوة ودارو وهناك قتلوا وقبضوا على الأسرى
الناس فى

٣٣ ـ الماء وعادوا سالمين . وقد بعثوا الرعب فى قلوب أعدائهم
بقوة إله

٣٥ ـ الأرض وبعد ذلك أرسلت جيش هالن وجيش لا كن و

٣٥ ـ جيش سابارات وفالحا . وصيرا وأمام سيرا مدن النوبة المبنية

٣٦ ـ من الأعشاب وهى أربعة نحوس والمدن المبنية من الأجر التى
عليها النوبة هى تايينو

٣٧ ـ فرتوتى . ووصل شعبى إلى حدود النوبة الحمراء وعادوا سالمين

٣٨ ـ أن قبضوا على الأسرى وذبحوا النوبيين وحصلوا على الـ
بقوة إله

٣٩ ـ السماء وزرعت (اقمت) عرشاً هناك حيث يلتقى نهر سيرا

٣١ ــ وتكاز أمام المدينة التى بيوتهـــا من الأجر فى الجزيرة والأشياء التى أعطيتها

٤١ ــ إلى السماء هى من الرجال الأسرى ٢١٤ ومن النساء السبايا ٤١٥ ومجموعهم ٦٢٩

٤٢ ــ وذبح من الرجال ٦٠٢ ومن النســاء والأطفال ١٥٦ ومجموعهم ٧٠٠ و

٤٣ ــ ٥٨ مجمـــوع الأسرى والمذبوحين ١٣٨٧ وغنموا من الماشية من الماشية ١٠٫٥٠٠ و

٤٤ ــ ٦٠ ومن الغنم ٥١٠٥٠ وزرعت (أقمت) عرشاً فى شادو بقوة

٤٥ ــ إله السماء الذى منحنى العون والسلطة .

٤٦ ــ عسى أن يقوى الله مملـكتى وكما مكننى من أعدائى فى هذا اليوم

٤٧ ــ ينصرنى الله أينما أذهب وكما وهبنى النصر فى هذا اليوم وطرح أمامى

٤٨ ــ أعدائى (سأحكم) الناس بالحق والعـــدل . ولن أظلمهم عسى أن يظلوا آمنين .

٤٩ ــ عرشه الذى زرعته (أقمته) لإله السماء الذى جعلنى ملـكا و

٥٠ ــ الأرض التى حملته وإذا تجرأ أحد وحطمه أو رفعه أو ألقى به فهو

٥١ ــ وشعبه سوف يكسحون ، ويزالون من الأرض . ويطرحون خارجاً وقد زرعت (أقمت)

٥٢ ــ هذا العرش بقوة إله السماء

(٣)

خطاب الإمبراطور يكونو املاك إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى
يسأله الموافقة على أن يعين بطريرك الإسكندرية مطراناً مصرياً لإتيوبيا

أقل المماليك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه أن رسولا وصل إلى من والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان . ونحن عبيده . فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطراناً يكون رجلا جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة ويرسله إلى مدينة عوان . وأقل المماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب الملك ما يلزمه وهو يسيره إلى مولانا السلطان . إلا أننى كنت فى سكار ، والملك داود قد توفى وقد ملك موضعه ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس مسلم . أما النصارى فكثير لا يحصون . والكل غلمانى وتحت أمرك . والمطران الكبير يدعو لك . والخلق كلهم يقولون آمين . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل المماليك ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون . وأما الرسول الذى سفروه فهو مريض وبلادنا وخمة أى من مرض فيها لا يقدر أحد أن يدخل إليه أن من شم رائحته فيمرض ويموت . ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين . فسيروا مطراناً يحفظهم .

(٤)

خطاب الإمبراطور يجبيا صيون إلى السلطان قلاوون :

فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وستمائة ورد رسول من جهـــة الحبشة يحمل خطابا ترجمته :

المملوك المحب سليمان ملك الحبشة يكباب صهيون (يجبيا صيون) مضمونه أنه سير صحبة يوسف بن عبد الرحمن شريفى حربة مذهبة مشعل ويسأل فى إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التى فيها النصارى والمسلمين . وقال : إنه ما هو مثل والده ، وإننى أحفظ المسلمين فى جميع مملكتى ، ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده، حتى نصير مشورة واحدة ويداً واحدة وتتواصل الرسل من الجهتين . والذى جرت العادة به عند إنفاذ المطران ، من الخدام والجوارى والذهب والأسد يصل مع رسولى . وكان يطلب يسير ذلك صحبة رسوله يوسف ، لكن تأخر لأجل المطران الصريان الذى أتلف البلاد فى زمان والدى — هو من أعداء المسلمين — وأشتهى أن تحضر المطلوب صحبة رسول السلطان وصحبة رسولى ، وأنا أنتظر جواب السلطان بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة ولا يقول السلطان ما وصلتنى العوايد التى جرت العادة بها عند طلب المطران ، فإذا وصل صحبة رسول السلطان ورسلى وعملت ما يشتهيه السلطان ويوصى على البطريرك .

(٥)

أما خطاب الإمبراطور إلى البطريرك فهذا مضمونه :

أتوسل للبطريرك ـ بطريرك الإسكندرية ـ أبو يحنس ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص وأنذريانون يكون عليك . اسمع كلامى ، واقض حاجتى ، وابعث لى مطراناً أسقف جيد صالح يعلمنى كل شىء جيد ويكون مثل ما ضرب داود عليه السلم (السلام) المثل فى الزبور فى شأننا وقال خلوا رجالا جيادا من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد وقال فى وصيته : لا تخلى يا بنى خروفك يأكله الذئب وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا فى بطريركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم . وما كانوا تقدموا عندنا إلا بو الدنا ، لأنه ما كان عندنا أحد من جهتك والساعة لا تخرب مدينتك ، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح واذكر مرقص لا تخلينا بخطيئتنا وإن كنت وحدك تسير إلينا مطراناً فسيره . وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان . وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك ولا تخلى هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت اطردوهم . وإن قلت خلوهم خليناهم . وأنت أنكرت علينا بسببهم فاغفر لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطيئة واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت .

كلام آخر : السلام يا منصور اسمع يا سلطان مصر . نصرك الله . أعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفا فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص والى اليوم والرسم الذى لك والتقدمة . أنا أعطيك أن سيرت لى أسقف . واذا سيرته أنا أنقص منه عن رسمك ومهما قال فعاته .

(٦)

كتاب من البابا بطرس الجاولى إلى إمبراطور إتيوبيا تاريخه ٢٤ طوبة سنة ١٥٤١ ش .

من بطرس عبد الله الدعو بنعمته القائم الآن بمشيئته فى خدمة الكرسى المرقسى بالإسكندرية والمدينة الأورشليمية والديار المصرية والأقاليم الحبشية والبلاد المجاورة .

سلام الله القدوس . الخاضع لعزته وجلاله وعظمته الرئيس والمرءوس . يحمل ويتضاعف . ويزداد ويترادف . ويشمل ذات الأخ الحبيب . والمحل الشريف العالى . الملكى . ملك ملوك الجيوش النجاشية . والمحامى بصوارم سلطانه الممالك الحامية. الملك البار . المحب المختار . كيكار[1] تاج الأمم النصرانية . وفخر بنى المعمودية . أدام الله تعالى أيامه . وأيد نصره ورفع أعلامه . وشمل محله بالبركات السمائية وسوابغ الأنعام الإلهية . بطلبات من قبلت طلباتهم . آمين .

إنه فى ابرك وقت . واشرق ساعة . قد حضر إلينا فى جمادى الأولى سنة ١٢٤٠ هلالية كتابكم المؤرخ فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٣٧ هلالية . يتضمن اعتقاد أمانتكم بتجسد ابن الله الكلمة الازلية بالجسد الذى اخـذه من الروح القدس ومن مريم العذراء . إنكم حكم قولكم الأبن الوحيد بدهن المسحة. وأن اخانا المطران الذى توجه لكم لما منعكم من الأعتراف طلبتم أن نرسل لكم وأحداً خلافه يقول بقولكم . واعتقادكم هذا . وتقدمون لاعتقادكم الذى انتم متمسكون به شهادات تفسيرها تجدونه مكتوبا فى روح الأمانة الواصل لكم .

(١) ربما كان هذا إسما اشتهر به .

والحال يا أخانا أن الأباء البطاركة والمطارنة والاساقفةمن ابا (نا) مرقس الانجيلى إلى زماننا هذا . لم يقل أحد منهم (انه) أن الابن الوحيدبدهن المسحة ولا سمعنا أحداً من طوائف النصرانية جميعها تقول الابن الوحيدبدهن المسحة.

بل الجميع يقولون إن الابن الوحيد مسح ناسوته بلاهوته . كما قال أبونا القديس اغريغوريوس الثاولوغوس . وصار مسيحاً من أحل اللاهوت إذ كانت هى المسحة للبشرية ولم تكن مسحة بفعل منفصل بحسب ما كان فى غيره من المسيحيين بل كان من حضوره متصلا لم ينفصل عن الماسح . وصار العقل لهذه المسحة إن الماسح إنساناً . ويجعل الممسوح لها . وأيضاً نؤمن ونعترف أن ابن الله لهميلادان ميلاد من الله الأب قبل كل الدهور وميلاد آخر من القديسة مريم فى آخر الزمان . وليس ينبغى إذن ان نفهم طبيعتين بل طبيعةواحدةلله الكلمةالمتجسد ونؤمن ونعترف مثل المجامع المقدسة الثلاثة النيقاوى والقسطنطينى والافسسى.

وهذه صورة أمانتنا المرتبة من المجامع المذكورة

نؤمن باله واحد . الله . الأب . ضابط الكل . خالق السماء والأرض . مايرى ومالا يرى . نؤمن برب واحد . يسوع المسيح . ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور. نور من نور إلهحق ن إله حق . مولودغير مخلوق . مساو الأب فى الجوهر . الذى به كان كل شىء هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . نزل من السماء . وتجسد من الروح القدس . ومن مريم العذراء . تأنس . وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى . تألم وقبر وقام فى اليوم الثالث من بين الأموات . كما فى الكتب . وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه فى العلاء . وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والاموات والذى ليس لملكه انقضاء

نعم ونؤمن بالروح القدس المحيي المنبثق من الأب نسجدله ونمجده مع الاب والابن الناطق فى الأنبياء . وبالواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية الكنيسة .

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .

ونترجى قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى آمين .

هذه هى امانتنا من أيام مرقس الانجيلى إلى يومنا هذا وليس لنا مفاهيم ولا أمانة غيرها. وارسلنا لكم عدة ادراج بها ولم نعلم إن كانت تصلكم أم لا. أو تصل و لمترجمون يغيرونها . وكذلك الجوابات التى تحضر من عندكم لنا لم نعرف لها قاعدة . ولا نصا معتدلا ونحن غير عارفين إن كانت لخبطة جواباتكم من المترجمين أو من عدم معرفة اللغة . فقد عرفنا كم السبب الذى صار به الشك لكم . ولا جل كمال برهنة كلامنا المقدم شرحه واصل لكم درج مجموع بالاختصار من كلام آبائنا الرسل والآباء الذين بعدهم عند وصوله عندكم تترجمونه من اللغة العربية إلى الحبشية . ونطلعون عليه عامة الجيوش وجماعة العلماء بطرفكم كما هو يعلمنا إن فيهم اناساً ذوى فهم وعلم بالكتب المقدسة عتيقة وحديثة وكتب الأباء ويكون ذلك بحضور أخينا المكرم انبا كيرلس بعد صلحكم معه صلحاً شافياً . تأخذون منه الحل والبركة وتقبلونه كقبولنا عندكم . لانه رجل صالح قديس . وذو فهم وعلم بالكتب المقدسة . وتطيلون روحكم . ويكون عندكم التأنى فى ترجمة الدرج وجواباتنا الواصلة لكم حتى تفهموا ذلك جيداً إذا كان مصير عندكم وعند العموم الأقتناع بهذا الدرج فإن الله تعالى يهديكم إلى مايرضيه ويجنبكم عما يغضبه ويكون لكم عونا ومعيناً وحافظا وأميناً. وإن كان لم يصير عندكم الاقتناع بذلك لتميزوا أثنين أو ثلاثة من طرفكم ذوى فهم وعلم بالكتب المقدسة وارسلوهم ليحضروا لطرفنا . فنتكلم

معهم شفاهياً بالفهم حتى يقتنعوا بحضور صورة الأمانة وما يصير بيننا وبينهم من القول وما ينتجه الكلام يصل لكم به كتاب تفهمون به كل شيء منه تفصيلا والله تعالى يثبتكم ويساعدكم ويدبر أموركم وسلام الرب يحل عليكم والبركة تشملكم .

تحريرا فى شهر طوبه سنة ١٥٤١

ص٧ —٥٣ من كتاب ذكرى مصلح عظيم. بقلم جرجس فيلوثاؤس عوض .

مكتبة معهد الدراسات القبطية رقم ٩٠٨٠

(٧)

كتاب إلى الابا سلامة الثالث فى نفس التاريخ السابق.

حضر لنا جواب من أخينا كيكار سلطان الحبش يعرفنا فيه عن المتمسكين به فى اعتقادهم فى المسحة وغـــيرها . وانكم حرمتموهم بسبب ذلك ويطلب إرسال مطران عوضكم يقول بأعتقاده . فأرسلنا له رد الجواب ودرج الامانة بما فيه الـكفاية . عن رده عن اعتقاده حكم الدرج الذى ارسلنـــاه لـكم سابقاً وعرفناه فى الجواب أن يصطلح معكم ومع كل القائمين فى هواه . وبعد الصلح الشافى يترجمون درج الامانة من اللغة العربية إلى اللغة الحبشيةويقرأوه عليـكم ويفهمون مضمونه فأن كان يقنعهم ذلك فالله يبـارك وإن لم يقنعهم فيرسلوا جماعة من طرفهم ليأخذوا الأمانة منا مشافهة . وأما أنتم يا إخانافيحتاج الحال أن تحاولوهم ولا تقسوا عليهم بشىء لاهم ولا غيرهم . لأن الناحية التىانت مقيم فيها تشكو منكم بسبب الحرم والسفه والشتيمة والضرب . وكامل الذى اخبرناكم به فى جواب الوزير فيحتاج الحال يا إخانا ان تحال الجميع ولا يخرج من فيك إلى أحد بل البركة والدعاء الصالح . وتهذب اخلاقك معهم وتطول روحك عليهم فى كامل الأمور لأن الـكلام فى الدور الديانة والأمانة لايكون بالغترسة والفظاظة والحروم بل يكون بالملاطفة والسياسـة لأن آبانا القـديس كيرلس لما تحرف أهل المشرق فى امانتهم بسبب لغتهم وعدم فصـاحتهم فى المنطق وذرية اللسان . وعرف ابونا القديس ان انحرافهم بعدم المعرفة مالمعهم فى رأيهم وعرفهم أن امانتهم على الصحيح . ولما ركنوا اليه وزال نفورهم منه صار ابونا القديس يجذبهم اليه قليلا قليلا إلى أن عرفهم غلطهم فاعـترفوا له بالشكر . انه صار خلاصهم على يده . كذلك أنتم يا اخانا . كان يجب عليـكم ان تصنعوا مثل ذلك . والمظنون يا أخانا تمشى على موجب جوابنا هذا أحسن

من الكلام الذى بصلنا كثيراً . والله تعالى يعينك ويساعدك ويدبر أمورك . ويجعل خلاصهم على يدك . ويكون سعيك وكلامك مرضيين لديه ويجعل منك ربنا العمارة والثمرة .

الأبا سلامة الثالث هو الأسقف اندراوس عين مطرانا على اتيوبيا سنة ١٨٤١ . وهو أحد تلاميذ المدرسة الانجليزية البروتستانتية فى القاهرة .. وكان يميل إلى المرسلين البروتستانت مع كرهة تغيير المذهب . وقد توفى فى السجن سنة ١٨٦٧

وكان الاحباش قد أرسلوا يشكون الأبا سلامة منذ سنة ١٥٣٩ بكتابين ارسلهما الوزير Sebagedis أولهما مع من يدعى محمد الجبرتى والثانى مع يعقوب القبطى .

(٨)

خطاب جلالة الإمبراطور منليك الثانى إلى غبطة البطريرك كيرلس الخامس يستأذنه فى أن يقوم الأسقف متاوس أسقف شوا بتتويجه

الأسد المنتصر الخارج من سبط يهوذا منليك الثانى المختار من الله ملك ملوك اتيوبيا .

اقبل أقدامكم وأطلب بركتكم التى تساعد الجميع . وشفاعة سيدتنا العذراء مريم والدة الإله ومساعدة القديس مرقص الإنجيلى · المجد لله الذى أوصلنا إلى هذه الساعة آمين .

الملك يوحنا توفاه الله فى ٢ برمهات سنة ١٦٠٠ ولكن السيد المسيح جعل المملكة خاضعة لى الآن وإلى الأبد . وكان ذلك من غير سفك دم ولا حرب ولا ضرب بندقية . وهذا من مراحم الله . وشفاعة سيدتنا العذراء وبركة صلواتكم .

وحيث أن هذه إرادة الله قصدت أن أجرى على سنن الملوك المتقدمين فقلت لأبنكم الأنبا متاوس أن يمسحنى بدهن المسحة . كما كانت عادة أبائنا إلى الآن . فأجابنى أن الملك سبق أن كتب إلى البطريرك قبل رسامتنا أن تكون المسحة من حق المطران المقيم معه (الآنبا بطرس) أما أنا وأخوتى الأساقفة فحددوا لنا حدوداً أن لا نمسح الملوك الذين نذهب إليهم . فأجبته أن الحدود كانت يسبب كثرة الملوك فى الحبشة والغرض منها منع الحروب وسفك الدماء ولكن الحبشة مملكة عظيمة فكيف لا يكون لها . وإذا ملك عليها ملك . فكيف لا يمسح . فقال الأنبا متاوس أرسلوا إلى الآب البطريرك . وها أنا أكتب لقداستكم فى هذا الشأن . وتعلمون أن عادة أبائى الملوك المتقدمين أن

يمسحوا بيد أبائنا الروحيين المرتسمين من الكرسى المرقسى . كذلك أنا بإرادة الله وبركة صلواتكم قد مسحت بيد ابنكم متاوس فى ٢٥ بابه سنة ١٦٠٦ بشفاعة والدة المخلص .

لا تظنوا أن مملكتنا مستحدثة أو أو صغيرة الأساس . بل أن ابتدأها هو ملكة سبأ ومنها إلى أولادها إلى بنيهم من جيل إلى جيل إلى إبنكم منليك الثانى وأسألكم باأبانا أن تباركوا مملكتى وتباركونى أنا إبنكم الارثوذكسى وأطلبوا من الله عنا وعن الشعب المسيحى أن يحطم قوة الأمم المحيطة بنا . ولا تنسونا فى صلواتكم لأن صلاة البار تقتدر فى فعلها وحين وصول هذا أرجو أن ترسلوا لنا رداً :

(٩)

تقرير وضعه قداسة الحبر الجليل الأبا كيرلس مطران الإمبراطورية الأتيوبية ، وضعه قداسته عام١٩٣٧ بعد عودته من مفاوضاته مع عاهل إيطاليا موسولينى بعد غزو إيطاليا للأراضى الإتيوبية وامتلا كها.

سفر الإمبراطور

قبل أن يغادر حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور البلاد الحبشية ، صارحنى بقوله . أترغب أن تسافر إلى مصر لتمكث بها شهرين أو ثلاثة إلى أن تهدأ الحالة ثم تعود ثانية ؟ .

فأجبت جلالته : لامانع عندى من أن أرافق جلالتكم ...

فقال وزير الخارجية الحبشية : أفضل أن يبقى نيافة المطران هنا بصفته رئيس الكنيسة ، وليس له أى دخل بالسياسة .

ثم افترقنا ، ولما علمت بأنه مسافر أرسلت له مرة أخرى أحد الرهبان الذين كانوا معى وهو القمص يعقوب لأ تأكد من رأى جلالته وما يأمر بخصوص سفرى معه ، فرد على الرسول المذكور بقوله : إن وزير الخارجية قد أقنع جلالته بوجوب بقائى بالحبشة . وبناء عليه بقيت بأديس أبابا متكل على الله

وبعد سفر الإمبراطور قامت ثورة عنيفة فى البلد تخللها حريق وسلب ونهب ، وأصبحت المدينة كأنها ميدان قتال عنيف ، وكنا نتوقع الموت من ساعة إلى أخرى وفى هذه الساعة أرسلت المفوضية الانجليزية سيارة مسلحة لا توجه بها إليها ، ولكننى فضلت أن أبقى بالمطرانية إلى أن يدبر الرب الأمر .

ولما اشتدت الحاله جاءنى رسول من قبل المفوضية الأنجليزية والقنصلية

المصرية يقول : الحالة خطيرة ، ويجب أن اسير إلى المفوضية مع رجال القنصلية المصرية ، فخرجت بسيارة المطرانية وسرت بين نيران المدافع الرشاشة ، وتطاير الرصاص من الجانبين ، ولكن عناية الله لم تسمح بضررنا فوصلنا إلى المفوضية فى سلام ، وكان بالمفوضية مئات من الناس على اختلاف أجناسهم وقد شعروا بضيق شديد .

ودعانى السفير البريطانى والسيدة عقيلته لأمكث معهما فى بيتهما فلبيت دعوتهما الكريمة شاكراً ، ومكثت أربعة أيام ضيفاً عليهما .

وبعد ذلك : دخل الجيش الإيطالى إلى أديس أبابا فكان لا بد لى من الرجوع إلى مركز المطرانية . وبعد يومين أرسل لى القائد العام المارشال بادوليو رسولا يطلب منى مقابلته . وقد أحسن مقابلتى ورحب بى وقال لى : إنى مسرور بوجودكم فى أديس أبابا . وهذا أمر نشكركم عليه . انى مستعد لإتمام كل ما يعود لراحتكم من جميع الوجوه ، ولمساعدتكم فى كل مهام الكنيسة فإذا أردت أن تفتح مدارس أو تقوم بأى مشروع آخر ، فالحكومة الإيطالية مستعدة لأعطائكم كل ما يلزم فطلبت أن يترك الكنيسة حرة فى كل شؤونها الدينية ومرافقها الروحية ، فقال لى ماذا تطلب ؟ أجبته أطلب وثيقة رسمية من الحكومة الإيطالية بضمان الحرية الدينية للكنيسة فوعدنى بإجابة الطلب .

وبعد فترة قصيرة غادر الماريشال بادوليو أديس أبابا وخلفه الماريشال جرازيانى فدعانى مرات متوالية . وطلب منى كتابة منشور للشعب بتوقيعى لكى تهدأ الحالة ويطمئن الشعب الاتيوبى على مستقبله ويسالم الحكومة الإيطالية فطلبت أن يعطينى كتابة رسمية من الحكومة باستقلال الكنيسة ، كما

وعدنى الماريشال بادوليو ، حتى لا يكون هناك نزاع فيما بعد ، وحتى لا تقحم السياسة فى شؤون الكنيسة الروحية فوعدنى وعداً أكيداً بهذه الوثيقة ولكنه لم يف بوعده وصار بعد ذلك يلح على مرة بعد أخرى لأكتب له المنشور الذى طلبه منى ولكننى رفضت .

وظل يكرر على الطلب نفسه فكان جوابى لا يتغير كل مرة حتى عدل عن هذا الطلب ، ووجه نظره إلى نقطة أخرى هى انفصال الكنيسة الأثيوبية عن الكنيسة المصرية وعلل ذلك بأسباب كثيرة وقال إن مصر ليس لها شأن بالحبشة الآن لأنها خاصعة لحكم الانجليز ، والانجليز أعداؤنا الألداء ونكرههم كراهة شديدة ولا نريد أن نشرك بلداً خاضعاً لهم فى البلد الذى أخذناه بسفك دماء أبنائنا . وإنى أؤكد لك أن خروجنا من روما لا سهل علينا من خروجنا من أديس أبابا لذلك أرجوكم الانفصال التام عن مصر حيث تكون لكم سلطة رئاسة الكنيسة دون أن يكون عليكم رئيس آخر ، ولكم أن ترسموا مطارنة وأساقفة وكهنة . ونحن نساعدكم بكل قوانا فى ذلك ونعطى لكم كل ماتطلبونه وتكون الحكومة رهن إشارتكم فى كل كبيرة وصغيرة .

فكان جوابى ،هذا مستحيل . ولا يمكننى أن أقبل ذلك قط ، ولا اقبل لى أن أخون أمانة موضوعة فى عنق ، ووكالة أؤتمنت عليها ، وحافظ عليها ١١٤ مطرناً من قبلى ، وإنى أؤكد لكم أننى مستعد أن أحمل كل شىء من ضيق وحبس وجوع وأسر وغير ذلك ، ولا أقبل هذا مطلقاً . فقال لى ونحن أيضاً لا نقبل صلتكم بمصر مطلقاً ، وصار يردد لى هذه العبارة ويرسل لى الرسل ، ويمنينى مرة بالوعد ، ويهددنى أخرى بالوعيد حتى إنه مرة جاء لزيارتى بصفة رسمية ومعه قوة هائلة من الجيش خيالة ومشاة ودبابات وأحاطوا بدار المطرانية ومكث هو معى مدة ساعتين وظل يكلمنى عن ضرورة انفصال الكنيسة

ووجوب ذهابنا إلى روما ، فكان جوابى كالسابق ، وصار بعد ذلك يهددنى ومن وقت إلى آخر ،(وحدث) أن دعانى ذات ليلة إلى غابة مخيفة ،وعلى جانبى الطريق إليها صفت المدافع،وهددنى بالموت إن لم أعترف بالإمبراطورية الإيطالية وإن لم أساعدها وأقبل أوامرها فى الإنفصال عن الكنيسة المصرية ، فقلت له أنت تهدد رجلا أعزلا ، لا جيش له ولا حول ولا قوة ، فافعل ما تريد مر بقتلى، أما أنا فلا أقبل أمر الانفصال عن كنيسة مصر مهما كانت النتائج فما كان منه إلا أن قال : « إذن لنرجىء حديثنا إلى وقت آخر » .

وحضر إلى أديس أبابا وزير المستعمرات « لوسونا » وعلى أثر حضوره عقدوا اجتماعا بسراى الملك حضره الماريشال جرازيانى ووزير المستعمرات ورؤساء قواد الجيش وأستدعونى إلى هذا الإجتماع وأقفلوا الأبواب ووضعوا عليها حراساً وطلبوا منى إعلان إنفصال الكنيسه الحبشية عن الكنيسة المصرية ، وادعوا إدعاءات لم أعرف مدى صحتها عما حدث عند سفر غبطة البطريرك (الأنبا يؤانس) إلى النمسا للاستشفاء .

إذ قالوا أن البطريرك لم يرد أن يباحث ولا أن يخابر الحكومة الطليانية بخصوص الكنيسة فى الحبشة وهذا دليل على أن البطريرك ليس معنا . وإذن يكون هو أيضاً عدواً لنا فلا نقبل أن يكون له صلة بكنيسة أثيوبيا من الآن فأنت يجب أن تطيع أوامر الحكومة الإيطالية ، وتسلم تسليما كاملا بوجهة نظرنا وألا تكون عدواً للحكومة هنا ، فخاطبتهم على الفور بدون خوف ولا وجل قائلا : « إذا كان الأمر كذلك ، وكان طلبكم هو انفصال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية بحجة أن مصر تابعة للانجليز وحضراتكم تقولون أن البطريرك تابع لهم . فتكون جميع الكنائس الخاضعة لسلطة البابا

وفى دائرة حكم الإنجليز أو غيرهم من الدول التى لاتحب الطليان أعداء لكم يجب فصلها عن البابا » .

فقالوا إن مركز البطريرك الأسكندرى لا يعادل مركز البابا . فأجبتهم : هذا عكس ما يقوله التاريخ . لأن لقب البابوية كان للبطريرك الاسكندرى قبل أن يطلق على بابا روما ، وهذه مراكز دينية يجب أن يحفظ لكل كنيسة معتقدها وحقها . أما إذا كان الأمر للقوة فلتفعل القوة ما تشاء ، وأن قرارى الأول والأخير هو أننى لن أتنازل مطلقاً عن تبعيتى لكنيستى المصرية القديمة العهد . وأننى لاأقدر أن أكون مماثلا ليهوذا فى خيانة سيده . ولا أنزل نفسى هذه المنزلة طمعاً فى حياتى الأرضية . لأن كل مافى العالم باطل وزائل . ونهاية كل مافى الأرض للأرض .

ولما رأوا أن التهديد غير مجد حاولوا أن يستميلونى إلى جانبهم بالوسائل المادية . فمثلا كان وقتئذ قد تم بناء كنيسة كنا شيدناها بالمطرانية وكان قد بقى من حسابها للمقاول حوالى ٦٠٠٠ جنيه مصرى أو حوالى ٦٠٫٠٠٠ ستين ألف ريال حبشى . فتعمدوا من تلقاء أنفسهم بدفع هذا المبلغ للمقاول ، وغير هذا كثير ، ولم ينقطعوا خلال ذلك عن المطالبة بالانفصال ولكن بلا جدوى.

وبعد ذلك عمدوا إلى وسائل النكاية ، فمثلا بعد أن كان رئيس الكنيسة الحبشية يجلس على يمين الملك أو الحاكم العام البلاد ، صار يجلس عن يمينه القاصد الرسولى أو غيره من الكهنة الكاثوليك أو حتى من العلمانيين المنتمين لمجلس الفاشست . . . وفى ذات يوم أرادت السلطة الإيطالية أن تعين بمعرفتها رؤساء الكنائس ، وتجحف بحقوقنا الروحية الشرعية ! بسلب هذه السلطة منا فعرفت نائب الملك أنه لايجوز أن يعين أحد من رؤساء الكنائس لإدارة شؤونها الروحية بمعرفة الحكومة ، وأنذرت الذين يريدون أن يأخذوا هذه الوظائف بحرمانهم وفعلا أوقف تعيينهم .

حادث القنابل

إستمرت السلطة الإيطالية فى مضايقتنا بشتى الطرق إلى أن وقعت حادثة القنابل التى ألقاهـا الأحباش للانتقام من أعدائهم وعلى رأسهم المارشال جرازيانى فأصابته وأصابتنى معه شظاياها، ونقلت بسببها فى حالة إغماء شديد إلى المطرانية ، لم أفق منه إلا عند غروب الشمس عندما صدر أمر السلطة العامة بنقلى إلى المستشفى الإيطالى لعلاجى هناك ، ولم أكن أعرف أن القصد من ذلك هو القضاء على ، لأن البعض من رجال الجيش اتهمونى بتدبير هذه المكيدة ، وعولوا على قتلى وفعلا أوعزوا ذلك إلى الطبيب الألمانى الذى تولى معالجتى ولكن مراحم الإله لم تسمح بذلك إذ أظهرت براءتى وقد أكد لى الطبيب المعالج نفسه هذا بعد شفائى .

ونظراً لشدة ضعفى أشار علىّ الطبيب أن أسافر إلى مصر لتغيير الهواء ووافق المارشال على ذلك ، وفى منتصف الليل وافانى سكرتير نائب الملك وأخبرنى بأنه قد جاء أمر من روما بعدم سفرى إلى مصر.فقبلت ذلك راضياً غير أنهم عادوا فأبلغونى بضرورة سفرى إلى روما فرجوتهم أن يسمحوا لى عند وصولى إلى مصر بالنزول لمقابلة غبطة البطريرك فوافقوا مبدئياً ولكنهم عادوا فرفضوا .

ولا يفوتنى أن أذكر أن نائب الملك بعد أن ألححت مراراً كثيرة بحل مشكلة الكنيسة . قال لى بأنه لايمكن حل هذه المشكلة إلا مع موسولينى نفسه، وعند ماحاولت النزول بمصر لم يسمحوا لى بذلك ، غير أن غبطتكم قد تفضلتم فأرسلتم وفداً قابلنى بالسويس ،

مقابلة الدونشى بروما

وسافرت من السويس تواً إلى روما ، وعند ما وصلنا إلى نابولى استقبلنا

وفد من قبل الحكومة الإيطالية وكنت إذ ذاك معتل الصحة فاضطروا أن يحضروا لى طبيباً كان يعودنى بالفندق الذى نزلت فيه ، وبعد انقضاء يومين فى نابولى صدر الأمر بسفرنا إلى روما حيث أعدوا لنزولنا مكاناً فخما واحضروا لنا طبيباً كبيراً ، فأفهم الطبيب ولاة الأمور أن الفندق لا يوافق صحتى فأمروا بنقلى الى مصحة داخل البلاد ولكنى رفضت . فنقلونى الى لوكاندة أكبر أفردوا لى فيها جناحاً خاصاً ، وهنالا مكثت أسبوعاً كاملا كان الطبيب يتردد على خلاله من وقت لآخر .

وحدد لى موعد لمقابلة موسولينى وقابلنى بشدة وعنف مظهراً صولة رهيبة ولكننى كنت هادئاً مطمئناً ، وكان معه وزير المستعمرات لوسوناو وبعد برهة فتح الحديث بسؤالى عن سبب حضورى .

فأجبته بأننى دعيت من قبل الحكومة الإيطالية لمقابلتكم وعرض حالة الكنيسة فى أثيوبيا عليكم . ولن يحل مشكلتها غيركم .

فأجاب (لقد تعارفنا اليوم وإن شاء الله سنتحدث مع بعضنا فى هذا الموضوع فى المرة التالية) ولما هممت بالانصراف قام بتوديعى إلى الباب

فى دار المجلس الفاشستى الأعلى

وصار الدوتشى يرسل لنا رسله لمفاوضتنا فى أمر انفصال الكنيسة الحبشية عن أمها القبطية . فكنت أقرر لهم فى تأكيد استحالة الانفصال وعدم استطاعتى الإقدام عليه .

فدعانى رئيس المجلس الفاشستى الأعلى الى حفلة فى داره الخاصة وقوبلت بحفاوة وترحاب ، وألقى بعضهم خطب الترحيب بقدومى خلال الميكروفونات . وأخذت عدة صور لذلك الحفل الكبير ، وبعد الانتهاء من الخطب والتصوير ألحوا على أن أتكلم بما يوحيه إلى ضميرى فقلت : لقد جئت الى هنا بناء

على دعوة الحكومة الإيطالية ، لحل مشاكل الكنيسة الحبشية الموجودة الآن كما أنى أحمل وعداً من نائب الملك بحل هذه المشكلة . وأرجو أن تعمل الحكومة الإيطالية على صيانة حرية العبادة فى كنيسة الحبشة وتتيح لها حرية التصرف فى شؤونها الدينية فلا دخل للكنيسة فى السياسة ولا يجب ان تتدخل السياسة فى شؤون الكنيسة الروحية . هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى لا يمكننى أن أوافق على انفصال كنيسة إتيوبيا عن الكنيسة المصرية ، لأن اتصالها قديم العهد ، وإننى أقرر الآن ماسبق أن قلته لنائب الملك ولوزير المستعمرات فى اديس ابابا وهو أننى لن أخون الأمانة التى أودعت الى من قبل رئاسة الكنيسة القبطية ، وإننى مازلت متمسكا بهذه العلاقة الوطيدة التى ظلت ثابتة منذ العصور الغابرة .

وما كدت أنتهى من كلمتى حتى انفض المجلس وتركنى وشأنى فرجعت الى محل إقامتى ، ثم علمت من مصادر شتى أنهم يريدون أن يعيدونى بالقوة الى إتيوبيا ليمثلوا بى كما مثلوا بأحد الأساقفة الذى عينوه من قبلهم بقوة الحكومة ، فلما وقفت على نية القوم طلبت زيارة الوزير المفوض المصرى فى روما ، وكان فى ذلك الوقت سعادة مصطفى الصادق بك وأفهمته أن يخابر الحكومة المصرية فى شأن عودتى إلى مصر وإن لم يفعل فانى مضطر الى مغادرة الفندق والإقامة فى المفوضية المصرية الى أن يبت فى الأمر . وفعلا أجاب طلبى وقدم تقريراً للحكومة المصرية طالباً النظر فى مسألتى . وجرت المفاوضات بين الحكومتين الإيطالية والمصرية الى أن انتهى الأمر بعودتى إلى مصر .

زيارات ومقابلات

وفى أثناء وجودى فى روما طلب منى زيارة البابا فلم أقبل ذلك ، نظراً لعدم تصريحهم لى بمقابلة بابا وبطريرك الاسكندرية ورئيس كنيستنا الأكبر .

وقابلت جلالة ملك ايطاليا ، فكانت مقابلته لى حسنة . وشخصية بحتة كما أننى زرت كنيسة مار بطرس وبعض الكنائس الأخرى ونظراً لأن صحتى فى ذلك الوقت لم تكن على مايرام ، فقد اكتفيت بذلك ، مع أنهم سهلوا لى جميع طرق المواصلات .

وأخير أبلغونى أنه اذا كنت أريد السفر الى مصر فلا مانع عندهم بعد أن طلب منى أن أمكث مدة فى ايطاليا إذا رغبت ذلك .

العودة الى مصر

وعدت الى مصر وأنا أشكر الله الذى أنقذنى من شدائد كانت تكفنى وتهدد حياتى .

واننى فى الختام ياصاحب الغبطة كتبت هذا التقرير لاسعياً وراء شكر ولا طمعاً فى مديح من الناس ، أكليروساً أو شعباً ، لأننى أشعر فى قرارة نفسى بأننى لم أقم إلا بما يفرضه الواجب المقدس على ، وبما تقتضيه الأمانة التى تسلمتها من الله على يديكم ، والوكالة التى أقمت عليها وحسبتها وديعة يجب أن أكون أميناً عليها ، ولا أكون خائناً لكنيستى المقدسة التى تأسست على دماء أبنائها الشهداء الأطهار ، وحماتها الأبرار ، واننى كنت أشعر فى كل آونة بضرورة الاحتفاظ بهذه الوديعة بالحياة إذا لزم الأمر ذلك . ولعظمته الشكر دائماً .

هذا التقرير غير مؤرخ ولكن يظن أنه لن يكون قبل مايو سنة ١٩٣٧ (المؤلف)

(١٠)
اتفاقية بروتوكول

بين الكنيستين المصرية والاتيوبية

لما كان أسمى هدف لأبناء الكرازة المرقسية هو تنظيم شئون الكرازة وتعزيز الروابط التقليدية بين أقاليمها، فقد وجد من الضرورى اتخاذ كل التدابير اللازمة لبلوغ هذه الغاية . . على أن يبدأ بالأكثر أهمية وهو تنسيق العلاقة بين كنيسة القديس مار مرقس بمصر واتيوبيا .

(وفى سبيل ذلك) تم الوصول إلى الاتفاق الآتى بين :

(ا) الوفد الاتيوبى المكون من ممثلى صاحب الجلالة إمبراطور اتيوبيا وممثل الكنيسة الاتيوبية .

(ب) الوفد القبطى المعين من قبل صاحب القداسة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .

ورفع لتصديق قداسته .

١ — بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية خليفة القديس مرقس الانجيلى هو الآب الروحى الأعلى لكنيسة القديس مرقس بأتيوبيا ، يجب أن يكون على الدوام قبطياً مصرياً من أبوين مصريين ، مقره الدائم كرسى الاسكندرية فى الأقليم المصرى ، وسلطانه مصون وشخصه فوق أى تجريح.

يذكر اسم بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية فى كافة القداسات والصلوات باتيوبيا .

تكون زيارة بابا الاسكندرية لاتيوبيا موضع الترحيب ويقابل قداسته بجميع مظاهر التكريم والتبجيل الجديرة بمركزه السامى باعتباره الأول فى الكنيسة .

٢ — يشترك ممثلون عن اتيوبيا بعدد محدود مع الناخبين المصريين في انتخاب خليفة القديس مرقس ويحدد عددهم قداسة البابا .

٣ — يجب أن يكون قائمقام الكرازة المرقسية على الدوام قبطياً مصرياً من أبوين مصريين .

٤ — يرفع مركز مطران (ليقاباباسات) « الكنيسة الأرثوذكسية للدولة الاتيوبية » وهو خليفة القديس تكلا هيمانوت إلى مركز بطريرك جاثليق (أى رئساً ليقانا باباسات) ويختار وفقاً لقوانين وتقاليد كرسي القديس مرقس بالاسكندرية من بين الرهبان الاتيوبيين الذين لا تعلو رتبتهم عن درجة القمص وهو المبدأ المعمول به أيضاً فى سائر الكرازة المرقسية .

٥ — عندما يتم اختيار بطريرك جاثليق (رئساً ليقانا باباسات) الكنيسة الإتيوبية وفقاً لقانون الكنيسة . وعندما يعتمد هذا الاختيار ويصدق عليه من صاحب الجلالة إمبراطور إتيوبيا تجرى سيامته وتنصيبه وفقاً لقانون الكنيسة على يد البابا والبطريرك الجالس على الكرسي السكندرى للقديس مرقس .

٦ — يؤذن لبطريرك جاثليق (رئيساً ليقانا باباسات) إتيوبيا بسيامة مطارنة وأساقفة على الأمكنة التى تستلزمها حاجة كنيسة إتيوبيا ، على أنه يجب أساسياً قبل سيامتهم أن يقطع المطارنة والأساقفة المنتخبون على أنفسهم العهد الكتابى الملحق بهذا .

ويرسل هذا القسم الموقع منهم إلى بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية فوراً بعد اعتماد انتخابهم من صاحب الجلالة إمبراطور إتيوبيا .

٧ — ولكى يعتمد البابا تسجيلهم رسمياً يرسل بطريرك جاثليق (رئساً ليقانا باباسات) إثيوبيا مع هذا القسم الموقع منهم تاريخ حياة المطارنة والأساقفة والبيانات الخاصة بهم وبابراشياتهم .

ويأمر البابا بإرسال تاريخ حياة المطارنة وأساقفة الكرازة المرقسية مع ذكر ايراشياتهم إلى جميع أقاليم الكرازة .

٨ — كلما رأى البابا أن يعقد اجتماعاً لمعالجة المواضيع المتعلقة بالعقيدة أو الأمور التى تمس عموم كرازة القديس مرقس يحيط بطريرك جاثليق (رئسا ليقانابابا باسات) إتيوبيا علماً بذلك ويؤلف قداسته مجمعاً مقدساً عاماً من بين مطارنه وأساقفة المجمع المقدس المصرى وسائر المجامع المقدسة الإقليمية بالكرازة المرقسية للفصل فى هذا المسائل .

وكلما أثير أمر يمس شخصية بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية أو ينال من قداسته يختص هذا المجمع المقدس أيضاً بالفصل فى ذلك .

٩ — يحتل بطريرك جاثليق (رئسا ليقانا باباسات) إتيوبيا فى أثناء حياة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية المركز الثانى فى المنزلة بعد البابا

وفى حاله نياحة البابا يحتل بطريرك جاثليق (رئسا ليقانابا باسات) المركز الثانى فى المنزلة بعد قائمقام الكرازة المرقسية .

١٠ — توثيقاً لدوام الصلات الروحية القائمة بين كنيسة مصر وكنيسة إتيوبيا سيجرى فى مجال التعليم الدينى تبادل فى الأساتذة والطلبة .

وبالمثل فيما يخص حياة الرهبنة سيجرى تبادل فى الرهبان .

١١ — تخضع الأمور الآتية لمشاورات مقبلة بين قداسة البابا وبطريرك جاثليق (رئسا ليقانا باباسات) إتيوبيا .

(ا) لتقرير إنشاء ابراشيات جديدة للكرازة المرقسية خارج الأقاليم القائمة حالياً التى ستظل لشاغليها، وسيامة مطارنة وأساقفة لتلك الابراشيات الجديدة كلما أثير هذا الأمر من جانب بطريرك حاثليق (رئسا ليقانا باباسات إتيوبيا .)

(ب) إنشاء لجان خاصة لدراســـة الشئون المتعلقة بالنهضة الروحية والدراسات الدينية وتنظيم البعثات .

١٢ — تلغى جميع الأحكام التى تضمنتها قرارات المجمع المقدس وخاصة منها قرارات يوليو سنة ١٩٥٨ التى لا تتمشى مع الاتفاقية الحالية .

القاهرة فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٥٩ ١٨ بؤونة سنة ١٦٧٥

١٨ سنى سنة ١٩٥١

الوفد الإتيوبى :

سمو الداجازمتش أسرات كاسا نائب رئيس مجلس الشيوخ الإتيوبى رئيس الوفد .

نيافة الأنبا تاوفياس مطران هرر .

سعادة بلاتا مرسى حزن عضو مجلس الشيوخ .

الوفد القبطى :

نيافة الأنبا لوكاس	مطران منفلوط
نيافة الأنبا يؤانس	مطران الخرطوم
نيافة الأنبا باسيليوس	مطران أورشليم والشرق الأدنى
السيد / يوسف سعد	وزير سابق ووكيل المجلس الملى
السيد / عدلى أندراوس	سفير سابق فى باريس
السيد / ديمترى رزق	سفير سابق فى براج
الدكتور مراد كامل	أستاذ بجامعة القاهرة
القمص مكارى السريانى	

ملحق المادة ٦

باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد .

أتعهد أنا .... بأن أظل أميناً لعقيدتى وإيمانى القبطى الأرثوذكسى إيمان كنيسة الاسكندرية وكرسى القديس مرقس الإنجيلى .

وأتعهد أن أحترم قوانين كنيستنا التى انتقلت إلينا من الرسل وخلفائهم القديسين الثلثمائة والثمانية عشر المجتمعين بنقيا ، وآباء الكنيسة ، وأن أجل بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ، خليفة القديس مرقس وأن أعتبره بابانا .

وقد عاهدت نفسى أن لا أشترك فى سيامة بطريرك لإتيوبيا ، أو أى بطريرك آخر ، دون موافقة واعتماد قداسة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية . وأعد أن أظل وفياً لعهدى أمام الله والكنيسة .

(١١)

ملوك الأسرة الأجوية

كما تذكرهم وثائق دير دبرا ليبانوس	سنة	كما تذكرهم وثائق المتحف البريطانى	سنة
١ ـ تكلا هيمانوت	٤٠	تكلا هيمانوت	٣
٢ ـ چان شيوم	٤٠	توثاوم	٤٠
٣ ـ چرما شيوم	٤٠	جان شيوم	٤٠
٤ ـ جمصار ودم	٤٠	جرما ودم	٤٠
٥ ـ تمراى	٤٠	يمر حنا كرستوس	٤٠
٦ ـ جبرا مريم	٤٩	قديس حربى	٤٠
٧ ـ لاليبالا	٤٠	لاليبالا	٤٠
٨ ـ نكويتا لآب	٤٠	نكويتا لآب	٤٨
٩ ـ يتبارك	٩	يتبارك	٤٠
		فايرارى	١٥
المجموع	٣٤٣	حربى	٨
		المجموع	٣٥٤

كما ذكرهم باسيه	كما ذكرهم بروس
	وثنيون
محبرودم	توبا حودم
اصباصيون	جان شيوم
صنفاواعد	جاريما شيوم
نجاش زارى اصنفا	حربى
يعقوب	مابراى
	مسيحيون
بحر اسجد	تـكلا هيمانوت
ودم أكبر	قديس حربى
	يتبارك
	لاليبالا
	يمر حنا كرستوس
	نـكويتا لآب

ملوك القرنين الخامس والسادس كما جاءت فى كبرانجست
دون ذكر لسنى حكمهم

(١) قسطنطنوس
(٢) وسن سجد
(٣) فيرشاناى
(٤) اورياس
(٥) اكّلا ودم
(٦) جرما سفر
(٧) زرجاز
(٨) وجنا ميكائيل
(٩) بهر اكلا
(١٠) چوم
(١١) اسبجونجم
(١٢) لتم
(١٣) تالارتم
(١٤) اودا جوسن
(١٥) ايزور
(١٦) ودِم
(١٧) وددم
(١٨) ودم اصفرا
(١٩) ارماه
(٢٠) دجنا چان
(٢١) انبسا
(٢٢) دلنعاد

مصادر البحث

(١) ابن الأثير أبو الحسن على
الـكامل فى التاريخ طبعة دار الـكتب سنة ١٩٣٢
(٢) ابن عبد القادر شهاب الدين بن أحمد .
فتوح الحبشة كامبردج سنة ١٨٩٥
(٣) ابن المقفع ساويرس
تاريخ البطاركة مخطوطة بمكتبة المتحف القبطى رقم ١٢
(٤) أبو صالح الأرمنى
الـكنائس والأديرة فى مصر والبلاد المجاورة القاهرة سنة ١٨٩٥
(٥) حسن إبراهيم حسن
تاريخ الإسلام السياسى القاهرة ١٩٣٢
(٦) الحيمى حسن ن أحمد : سيرة الحبشة القاهرة سنة ١٩٥٨
(٧) زاهر رياض استعمار القارة الإفريقية واستقلالها
(٨) « « الدستور الإتيوبى
(٩) « « قصة ملكة سبأ بين الأسطوره والتاريخ القاهرة ١٩٦٠
(١٠) محمد عوض محمد : نهر النيل القاهرة ١٩٥٢
(١١) مراد كامل فى بلاد النجاشى القاهرة سنة١٩٥٩
(١٢) المقريزى تقى الدين أحمد بن على
الإلمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام مصر سنة ١٨٩٥
(١٣) يوسف جرجس
الرحلة البطريركية إلى الإمبراطورية الإتيوبية مصر سنة ١٩٢٩

13. Bruce, James; Travels to Discover the Sources of the Nile, London 1804.

14. Budge, Wallis; History of Ethiopia, London 1929.

15. ; The Queen of Sheba, London 1922.

16. Coulbeau: Histoire Politique et Religieuse de l'Abyssinie Paris 1929.

17. Diet; Les Relations Egypte-Abyssine sous les Sultans Mamloukes

18. Doresse, Jean; Le Prêtre Jean, Paris 1957.

19. Geddes; The Church History of Ethiopia, London 1698.

20. Kamerer; La Mer Rouge, Le Caire 1929.

21. Luca dei Sabelli; Storia d'Abissinia, Rome IXV.

22. Luther, Ernest; Ethiopia To-Day, London 1958.

23. Mathew, David; Ethiopia, London 1948.

24. Morié; Histoire de l'Ethiopie, Paris 1904.

25. Pankhurst, Sylvia; Ethiopia, Essex 1955.

26. Perham, Mergery; Government of Ethiopia, London 1938.

27. Stanley Lane-Pool; History of Egypt in the Middle Ages, London 1901.

28. Stephen Langrigg; A Short History of Eritrea, Oxford 1945

29. Trimingham, Spencer; Islam in Ethiopia, Oxford 1948.

30. Ya Ethiopia Hag Mangest; (the Ethiopean Constitution). Addis Abeba 1955.

31. Yuna Buggala & Murad Kamel; Ya Portugalutch Djagennanat (Amharic), Addis Abeba 1945.

32. Ethiopia Review; An English Monthly Review Published in Addis Abeba.

33. Ethiopia Observer; An English Monthly Review Published in London and Addis Abeba.

34. Nagarist Gazzette; The Official Journal of the Ethiopian Government Published Weekly in Addis Abeba,

فهرست

صفحة